الطبعة
الثانية

حينما كان للشوارع أسماء

رندة عبد الفتاح





رندة عبد الفتاح

حينما كان للشوارع أسماء

رواية

ترجمة

أميرة نويرة

نبيل نويرة





داربلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



حينما كان
للشوارع أسماء

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠
الطبعة الثانية ٢٠١٢
دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

Where the Streets Had a Name

First published in Australia by Pan Macmillan Pty Australia Ltd, 2008
First published in the UK in 2009 by Marion Lloyd Books
An imprint of Scholastic Ltd

الترقيم الدولي: 9789992142080

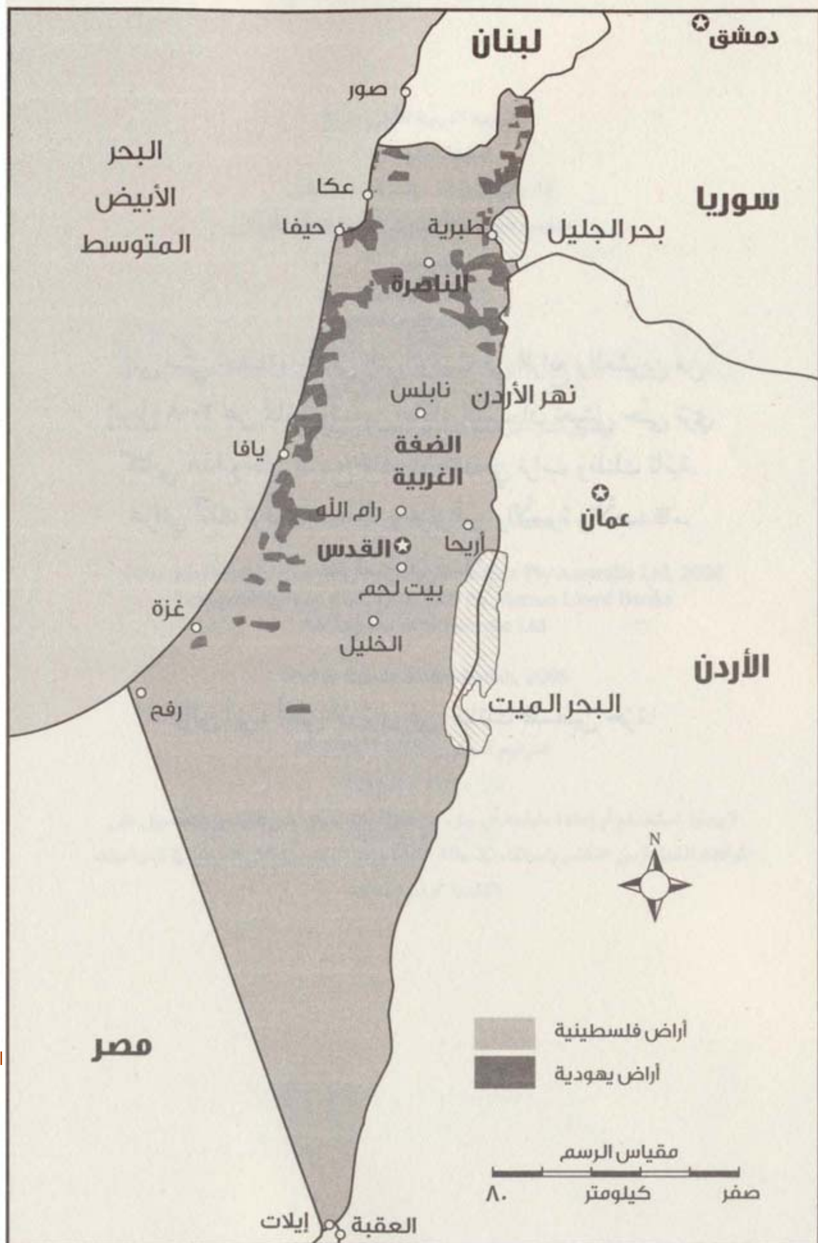
إلى ستّي جميلة، جدّتي التي تُوفّيت في الرابع والعشرين من إبريل ٢٠٠٨ عن ثمانية وتسعين عامًا، تمنّيت أن تعيشي حتّى ترَي كتابي هذا وحتّى يُسمح لك بأن تلمسي تراب وطنك ثانية.

عزائي أنّك توفّيت محاطة بإعزاز أبي والأسرة والأصدقاء.

فلترقدي في سلام.

وإلى أبي، أتمنّى أن ترى في حياتك فلسطين حرّة.

فلسطين، ١٩٤٦



لبنان
دمشق
صور
البحر
الأبيض
المتوسط
عكا
سوريا
حيفا
طبرية
بحر الجليل
الناصرة
نابلس
نهر الأردن
الضفة
الغربية
يافا
عمان
رام الله
أريحا
القدس
بيت لحم
غزة
الخليل
الأردن
البحر الميت
رفح
N
مصر
أراض فلسطينية
أراض يهودية
مقياس الرسم
٨٠
كيلومتر
صفر
إيلات
العقبة

الأراضي المحتلة أثناء مغامرة حياة وسامي





بيت لحم، الضفّة الغربية، ٢٠٠٤

السادسة والنصف صباحًا. أتعثّر وأنا أنزل من السرير. أرشّ الماء البارد على وجهي المحمرّ من شدّة الحرارة، فقد أُطفئت المروحة المتنقلة أثناء الليل. لعلّ ستّي زينب هي التي أطفأتها، فهي تنام وقد تغطّت بملاءة ثقيلة حتّى في ليالي الصيف الخانقة. أَمسك بفرشاة أسنان أختي التي نشترك فيها منذ أسابيع مضت. في الليلة الماضية عندما رُفع حظر التجوال كانت ماما مشوّشة الذهن فلم أحصل على واحدة جديدة.

لقد سُمح لنا بمغادرة بيوتنا لمدّة ساعتَين فأسرعنا إلى محلّ بقالة

أبي يوسف. بحسابات بابا كان لدينا ساعة وربع الساعة لجمع مشترياتنا ووضعها في سيّارتنا ثمّ العودة إلى البيت. ستّي زينب أرادت الذهاب معنا لكنّها، وقد بلغت السادسة والثمانين من عمرها، كانت تستغرق نفس الوقت الذي تستغرقه نشرة أخبار كاملة في قناة الجزيرة لكي تمشي من مقعدها إلى الحمّام. فكيف تكفي ساعتان لشراء احتياجاتها؟

محمّد، وعمره ثلاثة شهور، معلّق في حمّالة صُنعت منزليًّا، بجوار صدر ماما. ماما قامت بتوزيعنا على أقسام المحلّ. فأرسلتني إلى قسم المخبوزات، وأرسلت بابا إلى قسم مستحضرات النظافة الشخصية ومعه طارق، وعمره سبعة أعوام، ممسكًا بيده، وأرسلت چيهان، أختي الكبرى، إلى قسم أدوات التنظيف المنزلية. أمّا الباقي فقد تكفّلت به ماما.

اشترى بابا خمس زجاجات «اثنان في واحد» من الشامبو، ودستة من قطع الصابون، وأمواس حلاقة للاستعمال مرّة واحدة، وفوَطًا صحّية، وحفاضات، ومعجون أسنان، وورق تواليت. ونسي في اندفاعه المذعور (خلف طارق الذي كان يريد أن يلعب) أن يشتري لي فرشاة أسنان جديدة. لم أشكُ، فالحفاضات لسوء حظّ محمّد كانت أصغر من مقاسه.

وقف أبو يوسف خلف آلة دفع النقود ومعه زوجته وابنه يحاولون التعامل مع جمهور المشترين المحمَّلين بالبضائع، والذين يتدافعون ليحصل كلّ منهم على الخدمة أوّلًا. چيهان وأنا ضحكنا على أبي يوسف الذي احمرّ وجهه وهو يدقّ مفاتيح آلة دفع النقود بينما يصرخ في ابنه بأوامره ويجيب عن أسئلة المشترين عن أماكن المنظّفات ذات

رائحة الليمون، وورق التواليت ذي الرقائق الثلاث. بدأت امرأتان في الصراخ كلّ للأخرى بزعم أنّها الأحقّ بالخدمة أوّلًا.

صرخت أمّ يوسف في ضجر: «النظام! متى نتعلّم الوقوف في الطوابير؟»

تمتم بابا وهو ينظر إليّ في تعجب: «عندما تتحوّل جهنّم إلى ثلاجة.»

اقتربت ماما منّا وهي محمَّلة بالبضائع بين ذراعيها: «لماذا تقفون هنا بعيدًا عن آلة دفع النقود؟ لم يتبقَّ لنا ما يكفي من الوقت.»

هزّ بابا كتفَيه فنظرت ماما إليه كما لو كانت تريد أن تقذفه بجرّة المخلّل التي تمسكها. أومأ بابا إلى حشد المشترين قائلًا: «انظري إليهم. سوف يدهسوننا. أنا أرتدي أفضل بذلة لدي. فنحن لا نعرف من سنلقاه عندما يكون حظر التجوال مرفوعًا.»

وردّت ماما متأفّفة: «يدهسوننا أفضل من أن نُسحق في الطريق إذا عاد حظر التجوال.»

التقت عينا چيهان بعينيّ، عيناها تقولان إنّ أحدًا لا يمكن أن يسحق ماما، وهذا ما أعتقده أنا أيضًا. والدليل أنّها تمكّنت من أن تدفع بجسدها حتّى وصلت إلى آلة دفع النقود.

همس بابا في أذني: «كالمعتاد، حَرّ جهنّم.»

أنظر إلى المرآة وأنا أدعك أسناني بفرشاة چيهان الخشنة التي تآكلت. دائمًا يبدو لي وكأنّني أرى شخصًا غريبًا في المرآة. أحدّق في التشويه الملتوي في خدّي الأيمن والندبة المتعرّجة على جبهتي. أرفع يدي وأغطّي الجانب الأيمن من وجهي. الجانب الأيسر ناعم في أغلبه. عندما أُنزل ذراعي ببطء أرى الشخص الغريب في المرآة ثانية.

أبصق معجون الأسنان في الحوض، أتمضمض ثلاث مرّات، أستنشق، أغسل وجهي، أمسح قمّة رأسي، أغسل ذراعَيّ إلى المرفقين. على المرفق الأيمن ندبة قشرتها لها ملمس لحاء الشجر من أثر سقوطي من عتبة النافذة لتنفيذ التحدّي من صديقي سامي. ظنّ سامي أنّني سأكون خائفة من التسلّل إلى غرفة المدرّسين لآخذ بعض الحلويات من الطبق الذي تركه المدرّسونَ في الحُجرة. لم أكن مرعوبة، ولكنّني عندما تعثّرتُ من العتبة أثناء خروجي، سقطت منّي البقلاوة. مع ذلك أكلها سامي بعد أن مسح التراب عنها.

تتراقص ضفيرتي الطَويلة الثقيلة من جانب لآخر على ظهري. أنظر إلى جوربَيّ الممتدَّين أسفل قميص النوم الأحمر الذي كان في الأصل قميص چيهان. أنا كسولة جدًّا في غسل قدمَيّ لأستكمل الوضوء قبل الصلاة. أقول لنفسي إنّ الله يسامح الأطفال. لكنّ ستّي زينب لا تسامح. على أيّ حال، فهي ليست في حاجة أن تعرف أبدًا.

ستّي زينب تضرط. وكثيرًا.

هي تشترك في الغرفة معنا، چيهان وطارق وأنا. ونحن الثلاثة نشترك في سرير مزدوج. الليلة الماضية بلّلتُ السرير بعد كابوس آخر. بالطبع كانت چيهان غاضبة ولكنّها ساعدتني في تغيير الملاءة، وبدلًا من أن تلعنني أخذت تلعن في سرّها. في الصباح تجادلتْ مع بابا وماما لأنّها تريد سريرًا مستقلًّا، لكنّ رأيهما هو أنّ السرير الجديد «ليس أولويّة.» (عندما صادر الإسرائيليون أرضنا في بيت جالا انتقلنا إلى شقّة من غرفتَين في أحد الأحياء الفقيرة في بيت لحم ونحن نعيش الآن على مدّخرات بابا وماما). توقّف

بابا عن الجدل مع چيهان ولكنّ ماما حذّرتها بأن تمسك لسانها، وأنّبتها: «بابا لا يحتاج لأن يسمعك تنتحبين.» دفاعًا عن چيهان أوضحتُ لماما أنّها بالأمس فقط اشتكت لبابا من أنّ سجّادة الصالة تحتاج لاستبدالها. فأرسلتني ماما إلى غرفة النوم ومعي سلّة الملابس المغسولة لأطويها. أنا أُرسَل بانتظام إلى الغرفة.

تنام ستّي زينب على السرير المفرد. رأس السرير مزيّن بملصقات لامعة من المجلات لعمرو دياب ونانسي عجرم وليوناردو دي كابريو ومايكل جاكسون. تشكو ستّي زينب من أنّ الشفاه الممتلئة والأجسام البلاستيكية والأرداف المتراقصة سوف تطرد الملائكة من البيت. ذات مرّة استيقظتْ من النوم ولّما فتحتْ عينَيها أخذت تصرخ من رؤية عمرو دياب يحدّق فيها مبتسمًا بعيون لامعة متجمّدة.

كلّ ليلة تذهب ستّي زينب إلى سريرها في العاشرة مساءً، بعد أن تصلّي العشاء وتقرأ بضع صفحات من القرآن، ثمّ تُلقي بجسدها الضخم على السرير لأنّه من الصعب عليها أن ترفع ساقَيها. طبعًا لأنّها عجوز وفقدت مرونة الجسد. لكنّني وچيهان نظنّ أنّ السبب أيضًا هو أنّ صدرها الضخم يقف حائلًا. عندما تفلح ستّي زينب في النهاية في الرقود على السرير وتغوص رأسها في الوسادة، فإنّها تصيح «يا ربّ»، ويأخذ صدرها في اللهاث من الجهد الذي بذلته. وعادة ما تشعر بالارتياح بعدما تضرط.

ضراطها دائمًا عالي الصوت ولكنّه قليل الرائحة. چيهان وأنا نُحكم وسائل الدفاع. الرؤوس تحت الوسائد، والضحكات مكتومة، وفي بعض الأحيان نرش مزيل العرق الرخيص على

الوسائد. أمّا طارق فلا يتمالك نفسه: «ستّي زينب، سوف أطلب من الإسرائيليين قناعًا للغازات.»

تجلس ستّي زينب على حافّة السرير بينما أعود أنا إلى الغرفة لأرتدي الزيّ المدرسي. چيهان لا تزال نائمة والملاءة تغطّي وجهها عدا خصلات قليلة من شعرها تتناثر فوق الملاءة. من تحت الوسادة يظهر ركن من صورة خطيبها أحمد. قدماها في وجه طارق. فم طارق مفتوح على اتّساعه، ويداه بجوار صدره.

تبتسم ستّي زينب وتقول لي: «شعرك طويل وجميل. ما شاء الله، الحمد لله. كلّ البنات يتمنَّين أن يكون لهنّ مثل شعرك.»

«ثقيل جدًّا. أريده جميلًا.»

«آه، الأعور جميل في بلاد العميان.»

أهزّ كتفَيّ: «أريد فرشاة أسنان.»

«وأنا أريد استبدال مفصل فخذي. هذه هي الحياة.» تحدّق فيّ جدّتي وترفع جسدها قليلًا عن السرير وتضرط.

«ياه، المنسف هو السبب. أوف! دائمًا يعمل لي غازات.»

أعاون جدّتي في الذهاب إلى غرفة المعيشة. دائمًا تضع مؤخّرتها بعناية على حافّة الكرسيّ.

تكاد تبكي قائلة: «يا ربّ! ليّن عظامي.»

«ستّي زينب، هل تريدين أن تفطري؟»

تربت على بطنها بكلتَا يدَيها. «الوقت لا يزال مبكرًا.» تجعلها الفكرة تلوك بفمها، وتقول: «ربّما فيما بعد... نعم، فيما بعد... أوه. لكن كُلي أنت.» ثم تنفعل فجأة وتقول: «يجب أن تأكلي يا حبيبتي لكي تكوني قوية. أنت نحيفة جدًّا.»

وأتمتم: «نعم يا ستّي زينب.»

«يجب أن تملئي بطنك بالطعام قبل المدرسة وإلا سيظلّ مخّك نائمًا. يجب أن توقظيه ببعض الجبن والخبز. كيف يمكنك أن تصبحي دكتورة أو أستاذة في الجامعة؟ لست أتذكّر أبدًا...»

لا أجيب حيث إن طموحاتي لا تمتدّ لأيّ من هاتَين المهنتَين.

«لماذا لا زلت واقفة هنا؟ يللا! اذهبي وكُلي.»

أُسرع إلى المطبخ وأسمعها تحمد الله بينما يُحدث باب الثلاجة صريرًا وهو يُفتح. أصنع لنفسي كوبًا مُحلّى من الشاي بالنعناع وآكل قطعة من الخبز محشوة بشريحة من جبن الفيتا وبضع حبّات من الزيتون الأسود. بينما آكل تحضُر ماما وتقبّل جبهتي. هي امرأة ممتلئة وتدخّن بلا انقطاع. عندما لا تأكل فهي تدخّن. وفي بعض الأحيان تأكل وتدخّن سويًّا. ودائمًا تلهث. وماما تشارك أمّها في سوء الحظّ، فصدرها كأنّه دبّابة تضغط على جسمها فلا تكاد الكلمات تخرج من فمها. وهي تتكلّم هذا الصباح كما لو أنّ الزمن يطاردها، بينما هي لا تستطيع أن تضيّع كلمة واحدة ممّا تريد قوله.

«صباح الخير يا حياة. هل نمت جيّدًا؟ اصنعي كوبًا من الشاي لجدّتك. اليوم محمّد برازه غريب اللون. هل سمعته يبكي أثناء الليل؟ أوه، المدرسة مغلقة، هناك حظر تجوال. سوف نحتاج أن نرتّب استهلاكنا. استخدمي القليل من ورق التواليت، فأبوك لم يشترِ منه ما يكفي. الحمد لله أنّ معي سجائري. امسحي فُتات الخبز من فوق المنضدة.»

أفكّر في مضارّ حظر التجوال وفوائده. من ناحية، هناك الملل... من البقاء دائمًا بالمنزل، والقيام بالأعمال المنزلية، والتعامل مع ملل

ماما وبابا. «نظّفي غرفتك، ساعديني في ترتيب خزانات المطبخ. اعملي واجبك المدرسي. اذهبي إلى الداخل وذاكري دروسك. كُفّي عن الشجار مع چيهان وطارق. هل تقشّرين البطاطس من فضلك يا حياة؟ لا؟ هل تقولين لا؟ اذهبي فقشّريها فورًا!»

ثمّ هناك مسألة أخرى هامّة هي مواجهة التحدّي الأخير لسامي بوضع حبّة بطاطس داخل ماسورة العادم لسيّارة الأستاذ هاني. حبّة ليست مقشّرة بل بقشرها.

قد يبدو هذا قاسيًا لكنّ الأستاذ هاني يُدخل إصبعه في منخره ويدرّسنا الرياضيات ولذلك فلا بأس من وضع البطاطس في ماسورة عادم سيّارته.

ومن ناحية أخرى، سوف أكون في إجازة من المدرسة، وهو أمر ليس سيّئًا ولكنّني أهمس لنفسي: «لن أستطيع أن أرى خاطر في هذه الفترة.»

تسأل ماما: «من هو خاطر؟»

يدخل طارق وهو يَجري ويضحك في وجهي: «خاطر خنزير. خاطر براز خنزير. خاطر حشرة تأكل براز الخنزير.» أبتسم له. كم أحبّ دعمه المعنوي!

وتصرخ ماما: «لا تستخدم هذه اللغة يا ولد!»

«هو يسمّيها وجه البطاطس المهروسة. إنّه خراء.»

تضربه ماما على قفاه. «كفى! من أين تأتي بهذه اللغة البذيئة؟»

«أنت قلت أمس لخالتو سمر إنّ رائحة الحمّام كالخراء لأنّ...»

تحدّق فيه ماما بنظرة قاتلة وتقول: «كفى!». يخرج طارق وعلى وجهه نظرة متحيّرة.

تصرخ ستّي زينب من غرفة المعيشة: «يا ربّي! كيف يمكن أن تذاكر حياة دروسها مع كلّ هذا الإزعاج؟» كم أتعجّب أنا من قدرتها على السمع رغم سنّها المتقدّمة!

ماما تغيّر اتّجاه نظراتها وتُشعل سيجارة وتقول: «ياما لا تزيدي الأمر سوءًا». ثمّ تلقي بنفسها على الكرسيّ، وتمدّ ساقَيها، وتسحب نفَسًا من السيجارة، وتُغمض عينَيها، وتُلقي برأسها للخلف. تنظر إلى السقف وتهمس: «حظر التجوال اللعين. محصورة مع العائلة لمدّة أطول ممّا يتحمّل أيّ إنسان. محصورة مع أبيك المتذمّر، وأمّي المزعجة، وطفلي الباكي، وابني الشقيّ، وابنتي الولهانة التي تطبّق الرِّجيم الغذائي. يعلم الله كم سيستمر حظر التجوال هذه المرّة.»

«ياما، بابا لا يتذمّر.»

تنظر إليّ بإمعان: «هل تعلمين ماذا فعل هذا الصباح؟ لقد حاولت أن أشرح له ببساطة أنّ هناك طريقة لإخراج معجون الأسنان من أنبوبته بكفاءة، لكنّه تنهّد وهو ينصرف عنّي قائلًا في همس إنّه لن يدخل في حوار حول معجون الأسنان. آه! لكنّه لم يفهم أنّ المسألة ليست هي معجون الأسنان نفسه، بل انبثاقه من الأنبوبة على الحوض كلّه ممّا يضطرّني لتنظيفه!»

أحوّل انتباهي. لقد تعوّدت على شكاوى ماما المشوّشة عن بابا. ماما تتحوّل إليّ بعد إلقاء خطبتها العصماء قائلة: «حبيبتي يا كنزي الثمين، عسى الله يأتيك بشابّ طيّب يتجاهل ندوبك ويحبّك لشخصك.»

ماما تمصّ الدخان من سيجارتها وتبتسم لي في حنان ثم تتّجه إلى غرفة المعيشة لتنضمّ إلى ستّي زينب.

أصنع لستّي زينب كوبًا من الشاي وآخذه إليها، فتقول: «جزاك الله خيرًا وشفى وجهك.» أصرّ على أسناني وأرتمي على الكرسيّ. رغم أنّه لم تمضِ سوى ساعات على بدء حظر التجوال إلا أنّ الملل أصابني، وإذا سمعت حديثًا آخر عن وجهي فسوف أصرخ.

چيهان تصحو من النوم في التوّ وتتعثّر في غرفة المعيشة وهي تدعك النوم من عينَيها.

«ماما، أحمد اتّصل بالهاتف أمس. وجد قاعة أفراح في رام الله. وهو يريدني أن أوافق عليها أوّلًا. هل أستطيع الذهاب؟»

«بابا وأنا سنأتي معك.»

«ماما!»

ماما تزمّ شفتَيها: «هل تظنّين أنّك ستذهبين وحدك؟ كتب الكتاب لا يعني في نظر المجتمع أنّك متزوّجة. الزفاف لم يتمّ بعد. هه! وماذا لو أغلقوا الطرق وعلقتِ في رام الله؟ وماذا لو تعطلتِ في نقطة تفتيش قلنديا أو لم يُسمح لك بالعبور؟ فكّري يا چيهان قبل أن تتكلّمي حتّى لا أُضطر لتدخين عدد أكبر من السجائر.»

تصرخ چيهان: «هذا ليس عدلًا!» ثمّ تسقط بشكل درامي على الكرسيّ. «منذ أن تقدّم للخطوبة والأمر على ما هو عليه. طلب الحصول على الجنسية؟ تصريح العبور الأزرق أو تصريح عبور الضفّة الغربية؟ سوف يبيضّ شعري قبل أن أتزوّج.»

كانت المشكلة هي أنّ أحمد من عرب إسرائيل. وهو يعيش ويعمل في لدّة. لكنّ چيهان من سكّان الضفّة الغربية ولا يمكنها الحصول على الجنسية الإسرائيلية. وبما أنّ لدّة أقرب إلى رام الله منها إلى بيت لحم فقد قرّرا أن يعيشا في رام الله بحيث يستطيع أحمد

الاحتفاظ بوظيفته. الزفاف كان سيتمّ أيضًا في رام الله حيث إنّه من المستحيل لچيهان الحصول على تصريح لدخول لدّة حتّى ولو كان ذلك لحضور زفافها فقط.

قبل أن يظهر أحمد في حياتها، أحضر بابا وماما لچيهان العديد من الخُطّاب من بيت لحم. ولكنّها تفحّصتهم جميعًا بعينَيها. هذا له شارب سميك، وهذا فكّه السفلي ضعيف. وكلّ منهم لديه مشكلة: «يتكلّم في السياسة فقط.» ولذلك أحضر بابا وماما واحدًا «يتكلّم في كمال الأجسام فقط». وتواصلت الشكاوى: «هذا لا يعرف من هو عمرو دياب!» «هذا يظن أنّ ستّي زينب جذابة!»

في النهاية يئس بابا وماما. ثمّ اصطدمت چيهان بأحمد بالمعنى الحرفي. كان قد حضر إلى بيت لحم لحضور زفاف صديق مشترك. وبالمصادفة ارتطم بها في حلبة الرقص. بعد ثلاث ساعات أعلنت چيهان لوالدَيّ أنّها وقعت في الحبّ. أمضى بابا وماما الأيّام التالية في سعي محموم لعمل التحرّيات عنه: من عائلته؟ هل هم أناس طيّبون ومحترمون؟ هل يعمل؟ هل يستطيع إعالة ابنتهم الغالية؟

هاني عبد الله، المهندس الإنشائي، يشهد بالسمعة الممتازة لعائلة أحمد. أمير صاحب المطعم يُقرّ بحُسن أخلاق أحمد وخلوّ ماضيه من الفضائح. وهكذا قُرئت الفاتحة بعد شهر، ومن يومها تقضي چيهان كلّ ليلة وهي تعاين في إعجاب خاتمها الذي يتلألأ تحت المصباح الموجود فوق موقد المطبخ.

تقول چيهان: «حسنًا، هل تأتين معي اليوم لنجد ثوبًا جديدًا؟ أنا أكره ملابسي القديمة، كلّها بدون استثناء.»

تقول ماما لچيهان بلهجة جافّة: «أقدامنا لا تستطيع حتّى أن

تلمس الشارع. لا تفكّري في مغادرة المنزل اليوم.» ثمّ تستدير ماما إلى ستّي زينب وتقول: «لماذا لا تقع في الحبّ إلا مع شخص من خارج المنطقة؟»

تنظر ستّي زينب إلى ماما نظرة رصينة وتومئ بالموافقة. «لو كان الولد من بيت لحم لكان الأمر أسهل.»

«ألا أستطيع أن أختار من أحبّه؟»

تقول ستّي زينب: «كان يمكنك اختيار سليمان! ماذا كان العيب فيه؟ هل لاحظت أنّ عيونه كالشوكولاتة الذائبة؟ كان مؤدّبًا وطويلًا، وهي صفات يجب أن تتوفّر في الرجل إن أمكن. والأروع أنّه كان لديه وظيفة.»

«إذا كان كاملًا من كلّ الوجوه كما تقولين فلماذا لم تتزوّجيه أنت؟» ثم تزم چيهان شفتَيها.

تضحك ستّي زينب. فقد تعوّدت على طبع چيهان الناري.

«يا حبيبتي لن يستطيع أن يجاريني.»

تحاول چيهان أن تكتم قهقهتها.

تتنهّد ماما: «ولكن يا حبيبتي كان الأمر سيصبح أسهل لو وقعت في غرام شخص من هنا. سوف تنتقلين إلى رام الله، وسوف أقبّلك ليلة زفافك ثمّ لن أراك بعدها أبدًا.»

«أوه يا ماما، كفاك من هذا الكلام الدرامي. تستطيعين دائمًا زيارتي.»

«نعم، لكي أقضي ساعات على الطريق، ثمّ أحارب معركة نقطة تفتيش قلنديا ومعي محمّد. قلنديا؟ الجحيم على الأرض! عندما أصل ستكون أعصابي قد تحطّمت، وسأدخل بيتك وقد

تعكّر مزاجي، وسوف يشكو أحمد لأمّه من حماته السيّئة المزاج. فتغضبين منه بسببي غضبًا شديدًا، ثمّ ينشأ بينكما عراك، وأعرف أنّك ستدافعين عنّي، ولكنّ البيت سيتحول من نعيم إلى جحيم. وهكذا يا عزيزتي ترين أن موضوع رام الله هذا هو كارثة.»

تغطّي چيهان وجهها بيديها وتتأوّه. تنحني ستّي زينب للأمام: «قولي لها عن الخيار المخلّل.»

«ماذا؟»

«الخيار المخلّل!» تقولها ستّي زينب وهي تغطس في الكرسيّ لاهثة.

«أوه! نعم. وعلاوة على ذلك فهناك مشكلة في أن أصنع لك جرار الخيار المخلّل. تعرفين كم يحبّه أحمد. قال لي إنّه يفضّله على ما تصنعه أمّه لأنّها تضع ملحًا أكثر. هل تعرفين أنّه قال ذلك؟»

تقول چيهان في ضجر: «كلا، لم يذكره إطلاقًا.»

«نعم قاله. أفلا أستطيع حتّى أن أدلّل زوج ابنتي بخيار ممتاز من صنع يدَيّ؟»

تقول چيهان وهي تغمز لي: «الأسهل أن تشتري صندوقًا من الخيار، وبعدما تجتازين نقاط التفتيش من هنا إلى رام الله سيكون الخيار قد تحوّل من تلقاء ذاته إلى مخلّل.»

تقول ستّي زينب بجدّية: «هه. نعم. ربّما. ولكن من المحتمل أن يفسد الخيار داخل الصندوق لأنّه من الورق المقوّى.»

تجول چيهان بعينَيها حولها ثمّ تُطلق فجأة صرخة ملتاعة: «أنا أفتقده. أريد أن أراه.»

تقول ماما: «على خطيبك أن ينتظر.»

تقول ستّي زينب بصرامة: «الانتظار سيجعله يرغب فيك أكثر.»

«ليست الرغبة هي ما ينقصنا في علاقتنا. لدينا الكثير جدًّا منها. إنّني أختنق.» وترفع يدَيها إلى أعلى في يأس: «أريد أن أكون قادرة على أن أراه كلّما أحببت. أن أشرب معه القهوة في المقهى والناس من حولنا تحسدنا عندما يرونه يداعب يدي.»

ماما وستّي زينب تنفجران ضحكًا. چيهان تتجهّم لهما: «ماذا يضحك؟ حياتي المعذّبة ليست مضحكة!»

تكرّر ماما وهي تُطلق ضحكة عالية: «حياتك المعذّبة! ما أحلى الشباب وما أحلى الكلام!»

تقول ستّي زينب: «وماذا تعرفين عن العذاب يا چيهان؟ ما أكثر شفقتك على نفسك!»

تستدير چيهان على عقبيها فأهرول وراءها. تهمس في أذني: «الصهاينة أفضل من الشمطاء.»

٢

يجلس بابا في مقعده وعيناه مثبّتتان على ورقة في يده. لست قريبة منه لأرى المكتوب فيها، ولكنّني لست مضطرّة لرؤيتها. أعلم أنّه يمسك بشهادة ملكية أرضنا. هو يربت على حواف الورقة كطفل يربت على قطيطة.

أودّ لو ألقي بنفسي على حجره وأتوسّل إليه أن يحكي لي حكاية تبدأ بجملة «كان يا ما كان». الحكاية التي سمعها من جده عندما جلس الرجال منذ فصول شتاء عديدة في الفناء الأمامي للبيت المبني من الحجر ينفثون دخان الأرجيلة الذي يتصاعد منهم في حلقات كما لو أنهم تنانين نعسانة، ويتبادلون الحكايات الشعبية، ويغنون على تقاسيم العود، ويتبادلون الرأي بشأن إيقاعات الدربُكّة.

عندما كنت صغيرة تسلّقت أشجار الزيتون الموجودة في الخمسة والسبعين دونمًا من الأرض التي يمتلكها أبي في بيت جالا، وهي مدينة تبعد دقائق عن بيت لحم. طارق كان في ذلك الوقت لا يزال في رحم ماما، وأنا متأكّدة أنّه كان يمصّ أصابعه غيرةً منّي عندما يسمعني أتأرجح من غصن لغصن متجاهلة رجاء ماما لي لكي أنزل لألعب بالعرائس أو أقرأ كتابًا. كان جدّي أبو حسن قد أنّب بابا منذ فصول صيف عديدة على ذلك، فأبوه، أبو مراد، قد غرس هذه الأشجار ورعى التربة قبل ذلك بفصول خريف عديدة. كانت الأرض خضراء وخصبة وفيها أكثر من مائة شجرة زيتون تمدّ جذورها لتتشعّب في التربة.

تعوّد بابا أن يقول: «هذه أشجار مقدّسة. إنّها جزء من تراثنا، وهي مذكورة في القرآن. السيدة مريم، الأمّ المحبوبة للمسيح عليه السلام، التجأت إلى شجرة زيتون عندما لم يسعها تحمّل آلام المخاض.»

صحّحت له: «نخلة يا بابا.»

«هل أنت متأكّدة؟»

«نعم. تعلّمت ذلك في المدرسة. وهزت إليها بجذع النخلة في بيت لحم وأكلت الرطب.»

«أوه... حسنًا، نخلة أو شجرة زيتون ما الفرق؟ الجذور في هذه الأرض كلّها مقدّسة. أوه اسمعي يا حياة.»

«مم؟»

«لا تذكري هذا لمدرّسك.»

بعد الحصاد كنت أراقب في تعجّب كيف تتحوّل ثمار الزيتون إلى عجين وهي تُطحن تحت حجرَين دوارَين كبيرَين. بعد ذلك يقوم

بابا ومعه العمّال بفرد العجين على حُصُر دائرية من القشّ ثم توضع الحصر في معصرة تعصر العجين وتحوّله إلى زيت سميك له لون أخضر يميل إلى الصفرة وله رائحة عطرة. بعد ذلك يُجمع الزيت في أوعية كبيرة من البلاستيك. ماما كانت تدعو الأصدقاء للإفطار لتناول الصعتر، والخبز، والجبن، والحمّص. وبابا كان يجلس على رأس المائدة يراقب الضيوف وهم يأكلون ويحثّهم على غمس الخبز في الزيت لكي يأكلوا أكثر، وترتسم على وجهه السعادة كلّما رأى الزيت اللذيذ يلمع على أركان أفواههم.

ذات يوم رجوت بابا أن يأخذني معه في الصباح. ذهبنا إلى أرضنا بينما لا تزال الشمس نائمة. قال لي بابا أن أكفّ عن الثرثرة: «افتحي النافذة وانصتي.» رددت متحيّرة: «ولكن كل شيء هادئ.» قال بابا: «نعم، ولكن انصتي للهدوء.»

أَنصتُّ ونظرت إلى جبل «أبو غنيم». منظر الجبل أخّاذ وقد كسته الغابات الكثيفة وأحاطت به الوديان والتلال ذات القمم المتدرّجة في نعومة.

سألت: «من يعيش هنا يا بابا؟» أحببت أن أتخيّل سكّان الجبل من الجنّيات ومن مخلوقات على هيئة الشجر، وتخيّلتها وهي تقيم حفلات ليلية وترشّ أشجار أرضنا بالسحر.

شرح بابا: «توجد أماكن مسيحية مقدّسة كثيرة في هذا الجبل. حقول الراعي، بئر القدّيس تيودور، الدير البيزنطي، وكنيسة بير قاديسوم، حيث نزلت العذراء مريم قبل أن تلد المسيح. قولي هذا لمدرّسك!»

أجد أنّ هذه المعلومات مملّة وأفضّل عليها تخيّل الجنّيات الطائرة.

جلسنا تحت شجرة زيتون نراقب الأفق وهو يتفجّر بألوان الأحمر والبرتقالي والمرجاني فوق جبل «أبو غنيم». سألني بابا: «هل تعرفين يا حياة أن الشمس تطلب الإذن من الله كي تشرق وتغرب كلّ يوم؟» شعرت بالدفء وأنا أجلس بجوار بابا وأرى إذن الله يتجلّى. بعد ذلك بقليل لم أعد أشاهد شروق الشمس مع بابا فقد عبثت البلدوزرات دهسًا في أراضي الجبل. واستيقظت الجنّيات والأشجار على صوت البلدوزر طراز كاتربيلر د-٦ وهو يمهّد الأرض لبناء مستوطنات جديدة ولشقّ طرق تبادلية مقصورة على الإسرائيليين.

ذكرياتي عن بيت جالا تشبه لحافًا مرقّعًا مليئًا بالثقوب. لكنّ ذكرياتي عن ماما هناك هي الأكثر لمعانًا وألوانًا. استيقظت ذات مرّة مبكرًا وقمت من سريري لأجدها تجلس في غرفة الحياكة منحنية فوق طبقات من الأقمشة موضوعة على حجرها، وقد تغضّن وجهها من شدّة التركيز. كانت ترتدي نفس الملابس التي ارتدتها بالأمس. وكان شعرها المصبوغ بالحنّاء الحمراء ينسكب على ظهرها، بينما انزلق الشريط الملون المربوط على شعرها للخلف لمّا رفعت نظارتها إلى فوق رأسها. سألتها إن كانت قد نامت الليل فابتسمت رافعة ذراعَيها ناحية السقف، والتمعت عيناها بنظرة انزعاج. قالت: «لقد سئمت منظر الستائر في غرفة نومي ولذا فقد قضيت اثنتي عشرة ساعة أصنع ستائر جديدة.» وبعدها لم تتوقف، صنعت مفروشات جديدة لغرفة المعيشة، وألحفة لأسرّتنا، وشالات لستّي زينب لتلبسها في الشتاء، وبطانيات لأطفال أصدقائنا. وكانت تستيقظ مبكرًا مع بابا وتطبخ وجبات فطور ساخنة: البيض المقلي مع الفول واللحم المفروم والمحاط بصلصة

الحمّص، والخبز الساخن المغموس في زيت الزيتون والصعتر. بعد أن ينتهي بابا وماما من الفطور، كان بابا يذهب إلى الحقل. وعندما نستيقظ، چيهان وطارق وستّي زينب وأنا، بعدها بساعتَين كان الفطور يوضع مرّة أخرى لنا على المنضدة، وتجلس معنا ستّي زينب ونظرتها التي تشبه نظرة الصقر تتوعّدنا إذا لم نأكل.

في بيت جالا، كانت ماما ممتلئة بطاقة لا تهمد، تحيك، وتضع الأصص في أحواض الزرع بالحديقة، وتطبخ كما تفعل في أيّام شهر رمضان.

وعندما انتهت حياتنا القديمة هذه سحقًا تحت الطريق الجديد الذي أنشئ للمستوطنين تساءلتُ في نفسي إن كانت ماما ستتغيّر. انتقلنا إلى بيت لحم حيث كان يأمل بابا في أن يجد عملًا. ماما بكت ولعنت، ثمّ ذات يوم توقّفت عن ذلك. أعتقد أنّها أدركت أنّنا لن نعود ثانية إلى بيت جالا وأنّ الأفضل لها أن تسيطر علينا وأن تدير البيت كما لو أنّ حماتها اللوامة كانت تراقب سكناتها.

من ناحية أخرى تغيّر بابا. حزن على فقدان بستان الزيتون كما يحزن الأب لموت ابنه. في بيت جالا كان صوته وهو يمزح عاليًا، وكان عمله في أرضه يُسعده، وكنّا نشعر بهذه السعادة عندما يعود إلى البيت في المساء. أمّا في شقّتنا في بيت لحم فكان يجلس في صمت يدخن الأرجيلة ويغيّر قنوات الأخبار في التلفزيون.

فقدان أرضنا جعله ينفجر إلى داخله، ولم يكن لدينا وسيلة لنرى الدليل على ما حلّ به من دمار، فقد احتفظ بالركام والحطام بداخله، إذ لم يعد يتكلّم أو يضحك أو يحكي الحكايات كما كان يفعل من قبل.

يواظب بابا على الاستيقاظ مبكرًا قبل شروق الشمس، وهي

عادة لديه منذ أن كان يرعى مزرعته. يأكل إفطاره معنا في ساعات الصباح المبكرة، ثم يتحرّك في البيت بحذر كحركات ضيف لا يعرف البيت. عادة بعد الإفطار يخرج بابا، ويعود قرب العصر لتناول الغداء. يأكل بسرعة وفي هدوء، ثمّ يجمع بعض قطع من الفحم من غرفة غسيل الملابس ويضعها على الموقد ويضبط الحرارة بدقّة. يفرغ رأس الأرجيلة ويضع عليه تبغ التفّاح الذي تشبه رائحته رائحة الحلويات، ثم يحشو التبغ جيّدًا ويغطّيه بقطعة صغيرة من رقيقة معدنية. يكلّف واحدًا منّا، طارق أو أنا، بأن نجد له عود أسنان ليثقب عدّة فتحات في الرقيقة. بعد ذلك يعيد ملء الأرجيلة بالماء. تؤنّبه ماما: «ألا تستطيع أن تفعل ذلك في مكان آخر؟ أنا أحاول غسل الأطباق.» لكنّه يعيد تكرار الأمر في المطبخ كلّ ليلة، وفي كلّ ليلة تؤنّبه ماما.

وعندما يتأجّج الفحم على الموقد ويصبح لونه رماديًّا، يلتقطه بالماشة ويضعه على الرقيقة ويضغط عليه. العمارة التي فيها شقّتنا تقع في مواجهة حديقة عامّة صغيرة. الدور الأرضي للعمارة له عتبة أمامية. بابا يحمل الأرجيلة إلى العتبة ويجلس على المقعد الأخضر مادًّا ساقَيه إلى الأمام وواضعًا قدمًا على الأخرى.

ماما أرسلتني وراءه مرّة قائلة: «اذهبي وحدك. سيكون من العار على هذه الأسرة لو عرف أحد أنّني أرسلتك.» لكنّني على أيّ حال قد أخبرت سامي.

تبعْنا بابا إلى شارع الفرير، وهو أعلى نقطة في بيت لحم. بابا كان يمشي ببطء نحو مكان محدّد ويداه في جيبَي سرواله الرمادي. انتهى بنا إلى نقطة مرتفعة محاطة بقضبان حديدية عند جامعة بيت لحم. أخذتُ نفَسًا عميقًا عندما رأيت المنظر أمامي. منظر بانورامي لجبل

«أبو غنيم» وقد تغطّى الآن بالمستوطنات.

وضع بابا مرفقه على القضبان الحديدية ونظر إلى الأفق في صمت كما ينظر المرء إلى شاهد قبر.

ظلّ واقفًا في سكون غير طبيعي لمدّة نصف ساعة لا يتحرّك إلا لمامًا.

سامي كان يفهم جيّدًا أنّ عليه أن يظلّ صامتًا.

في طريق العودة توقّف بابا في المقهى وأخرج هاتفه المحمول من جيب قميصه ليحادث صديقه. بعد قليل وصل أبو حسين. راقبناهما، سامي وأنا، وهما يطلبان شايًا بالنعناع وأرجيلة لكلّ منهما.

عندما سألتني ماما أين ذهب بابا أخبرتها عن المقهى فقط.

يستمرّ حظر التجوال لعدّة أيّام أخرى. يتشاجر بابا وماما حول كلّ شيء: احمرار مؤخّرة محمّد من الحفاضة، خطط زفاف چيهان، الفشل في تخزين قدر كافٍ من جبن الفيتا والخبز. وضع سكّر كثير في الشاي، أو سكّر قليل.

تقوم چيهان بعمل تمريناتها في الغرفة المزدحمة بالعائلة: تمرين البطن، والقفز بفتح وضمّ الساقَين، والجري في المكان، ورفع الأثقال من علب الحمّص أو مساحيق الغسيل لتقوية العضلات. عندما تسنح لچيهان الفرصة بدون توبيخ فإنّها تستبدل الوجبات بالسجائر (تدخّنها خلسة خلف خزّان المياه الموجود على سطح المنزل) مختفية من الجنود ومن والدَيَّ اللذَين يعترضان بشدّة على التدخين إلا بالنسبة لهما. چيهان تصمّم على أن تقلّل وزنها قبل زفافها وهي في ذلك مستعدّة حتّى لاستخدام قوّات الدفاع الإسرائيلية. لا بدّ أنّها أكثر خوفًا من ماما وبابا.

ستّي زينب تجلس على مقعدها لأيّام وتظنّ أنّ چيهان قد أصابها الجنون: «من الجميل أن يكون لدى المرأة بعض من اللحم. هل تريدين أن يراك الناس في زفافك ويظنّون أنّك كنت تقضين إجازتك في غزة؟»

تصُرّ چيهان على أسنانها وتواصل تمرينات القفز. فتقول ستّي زينب وهي تضحك لبابا الذي لا يتدخّل لأنّه منهمك في تدخين الأرجيلة: «نعم أنا امرأة عجوز. فكيف لچيهان التي خرجت للتوّ من البيضة أن تهتمّ بأن تسمع لما تقوله العجوز ذات التجاعيد؟» تهمس لي چيهان: «أوّل مرّة تقول شيئًا بذكاء منذ شهور.»

خلال حظر التجوال لا تترك ستي زينب مقعدها إلا للصلاة، أو للذهاب للحمام، أو إلى سريرها لتنام. في كلّ موضوع لها رأي. وفي كلّ يوم تستهلك ماما علبة سجائر كاملة قبل أن تغرب الشمس، وتبذل قصارى جهدها ألا تقتل ستّي زينب أو بابا.

أنا أقضي ليالي حظر التجوال في عمل الواجب المدرسي أمام التلفزيون. نحن ندرس الموسيقى العالمية بالإنجليزية. مدرّسي من أشدّ المعجبين بمايكل جاكسون ويحبّ أغنيته «تذكّري الوقت». الواجب المدرسي هو أن نؤلف أغنية عن إحدى ذكرياتنا. من ذكرياتي، المرّة التي تمّ انتخابي فيها كأحسن راقصة في الفصل. كنت أرقص رقصة الدبكة الشعبية. وعندما أرقص أشعر كأنّ قدمَيّ لهما أجنحة صغيرة. الخطوات تتمّ بخفّة ولكن في تحكّم جيّد، وأنا أعرف هذه الخطوات عن ظهر قلب. خطوة للأمام، الانحناء حتّى الركبة، الرفس بالقدم اليمنى، خطوة أخرى.

من ذكرياتي، أنّه عندما وُلد محمّد فإنّ ماما عضّت ذراع بابا أثناء الطلق فسال دمه. لم يكن مسموحًا لبابا حتّى بتكشيرة.

من ذكرياتي، المرّة الأولى والوحيدة التي شاهدت فيها فيلمًا في السينما. كان ذلك في رام الله، ولم يكن التنقّل صعبًا حينئذٍ. اسم الفيلم «مذكّرات أميرة». في خلال الدقائق الخمس عشرة الأولى من الفيلم أكلت كلّ الفشار الذي معي وشربت علبة البيبسي كولا.

من ذكرياتي، مايسة بضفيرتها وضبة أسنانها ونحن في فناء المدرسة نشرح لبعض البنات ما تعلمناه من خطوات جديدة لرقصة الدبكة، لنكوّن بعدها صفًّا واحدًا لنرقص في دائرة كبيرة جذبت بنات أخريات للمشاركة في الرقص. وغنّينا:

يا اللي مرّيتي وبيدك سلّمتي أسرار المحبّي ابقلبي علمتي
اسمعت صوتك لما اتكلّمتي بلبـل بيغـني فـوق الزيتونا

دائمًا كان لسان مايسة يبرز قليلًا من فمها عندما تركّز على خطوات الرقص. أذكرها ولكنّ الذكرى تُشعرني بالغثيان لأنّني أذكر كيف تغيّر كلّ شيء.

منذ ذلك اليوم ظللت أنا الوحيدة التي تبلّل الفراش أحيانًا. أنا الوحيدة المعرّضة للتأوّهات المكبوتة وللدعاء إلى السماء في كلّ مرّة يحدّق فيها في وجهي واحد من الأعمام أو العمّات أو من أصدقاء العائلة. النساء يمسكن بذقني في أيديهنّ، يتصنّعن الدموع في العيون، ويتنفّسن بحرقة. تقتلني رائحة السجائر أو الثوم في أنفاسهنّ. «جمالك انخطف. ضاع. آه يا حبيبتي.»

في الليلة الأخيرة من حظر التجوال استيقظت من كابوس مألوف. شخير خفيف من چيهان وطارق اللذين ينامان بجواري. في ذعر، أضع يدي على المرتبة أتحسّسها. الحمد لله أنّها جافّة هذه المرّة.

وجه مايسة يملأ أحلامي، هي كالصنبور التالف الذي لا يتوقّف عن تنقيط الماء. لا تسمع له صوتًا إلا في سكون الليل.

أمسح حبّات العرق عن وجهي. ستّي زينب تضرط وهي تغطّ في نومها الهانئ غير عالمة بألمي.

الوقت حوالي الثالثة صباحًا وأنا أحتاج إلى الهواء النقيّ. من المفهوم أنّني أنام في غرفة مملوءة بكمّية من الغازات تكفي لإشعال الموقد.

أخرج من الغرفة على أطراف أصابعي وأمرّ عبر غرفة نوم بابا وماما.

محمّد مستغرق في النوم العميق بين ماما وبابا. أفتح الباب الأمامي ببطء وأختلس نظرة.

عربة جيب تقوم بالدورية. أغلق الباب بسرعة وأنتظر حتّى تمضي. أنتظر وأنتظر. وعندما أتأكّد أنّها مضت أواصل الانتظار. في النهاية أفتح الباب قليلًا. ثلاثة جنود يتجوّلون الآن في الشارع الضيّق حاملين مدافعهم الرشاشة. يتوقّفون فجأة. اثنان منهما يبدوان أصغر عمرًا من جيهان والثالث يبدو في مثل عمر أبي. يتشاورون سويًّا. واحد منهما يعطي الآخرَيْن سيجارتَين. يشعلون السجائر وهم يتّكئون على حاجز حجري مكسور أمام العمارة السكنية المهدّمة أمام بيتنا مباشرة.

للّيل صمت مميت كأنّه صمت مدينة الأشباح. لا سيّارات ولا خطوات أقدام. لا خفافيش ولا بوم. لا حفيف من أوراق الشجر. أصوات الجنود تضجّ في الليل الساكن.

يبدأ أحد الجنود في قصّ حكاية. لا أملك إلا أن أحدّق وأراقب لأرى كيف يتحوّل الجندي إلى إنسان. وجهه يضيء. يصبح مفعمًا

بالحيوية والنشاط. بندقيّته تهتزّ أكثر مع ازدياد حركاته. يقهقه الآخران ضحكًا. يبهجني المشهد. أتّكئ بوجهي على حافّة الباب وأحدّق في هذا الثلاثي الذي لا يفصلني عنه إلا ستّة أمتار فقط. لم أرَ من الوجوه خلال الأيّام الماضية إلا وجوه أفراد عائلتي فقط. أدرس وجوه الجنود، وشكل أنوفهم، ولون أعينهم، وخطوط عظام خدودهم، وشكل شعر ذقونهم. عيوني تغشى، وأصبح بلا وزن، ولا أعي وجودي.

يراني أحد الجنود فيرتعب ويسدّد بندقيته نحوي. يصرخ في عربية مكسّرة: «ادخلي!»

الجنديّان الآخران يمسكان البنادق وينظران حولهما نظرات محمومة بعيون ملؤها الرعب. يمتلئ الهواء برائحة خوف عطنة. لا أشدّ خطرًا من خوفي إلا خوفهم.

في قلق أخطو للخلف إلى داخل البيت وأغلق الباب ورائي.

٣

أخيرًا رُفع حظر التجوال. المدرسة تفتح أبوابها مرّة أخرى. يدقّ سامي على الباب بقوّة ويقول صائحًا: «ياللا يا حياة، تعالي.»

أقفز عبر البيت وأمرّ بماما التي تحمل في إحدى يدَيها رغيفًا كبيرًا من الخبز. محمّد في اليد الأخرى يصرخ. تصيح فيّ ألا أَجري عبر الشقة. تصيح ستّي زينب: «اشربي المعلومات شربًا.»

أسمع ماما تقول لستّي زينب وهي تتنهّد: «ما يفيدها الآن هو التعليم، فمن سيتزوّجها بهذه الندوب؟»

تقول ستّي زينب: «لا تقلقي، كلّ فولة ولها كيّال. أؤكّد لك أنّني أرى حياة كأميرة.»

يقول طارق ببراءة: «يمكنها أن تتزوّج شخصًا أعمى.»

تؤنّبه ﭼيهان: «لا تكن عبيطًا.» القاعدة هي أن تطلق ﭼيهان على طارق لقب «العبيط». «نحن أيضًا لنا قواعدنا.»

أُسرع مندفعة خارج العمارة فأكاد أوقع سامي من على قدمَيه. سامي فتى نحيل باهت اللون، حول وجهه معرَفة كثيفة من خصل سوداء، هو أوّل من يقبل التحدّي، وأوّل من يفقد أعصابه، وهو من يستطيع أن يجعل المدرّس يبكي من فرط الحنق. له حواجب ثقيلة وسوداء، معلّقة فوق عينَين صغيرتَين رماديتَين. يُقال إنّ عينَيه كانتا ملوّنتين حتى سُجن أبوه؛ ثمّ بعدها بقليل ماتت أمّه بنوبة قلبية؛ كان آنئذٍ في السادسة. ولأنّنا انتقلنا إلى بيت لحم عندما كنت في التاسعة لذا لم أعرف والدَي سامي.

يقولون إنّ والد سامي كان من الأشخاص الذين يستحقّون الاحترام. أمّ زياد صاحبة محلّ بيع الخبز القريب قالت لبابا وماما عندما انتقلنا إلى هنا، في معرض شرحها لفضائح الأسر الموجودة في الجوار: «حينما كان يتكلّم، كان كلامه يؤثّر حتّى في أغبى الأغبياء، حتّى بمن فيهم ابني الكسول الغبي، الذي كان يشارك في الإضرابات متأثّرًا بكلام أبي سامي بعدما يسمعه يخطب في المحافل العامّة أو بعدما يقرأ مقالاته.»

يقولون إنّ سامي رأى أباه وعملاء جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي الشاباك يجرّونه إلى خارج المنزل. فقد وشى به شخص ما. كانت الوشاية كافية ليَحضر عملاء الشاباك في المساء ليضربوا أبا سامي ويأخذوه بعيدًا. لم يتكلّم سامي أبدًا عن هذا. ربّما كان أصغر من أن يتذكّر التفاصيل. أنا لم أجرؤ أبدًا أن أسأله. يعيش سامي مع عمّه وزوجته، عمّو جوزيف وعمتو كريستينا. ليس لهما

أولاد، وهما يقومان بأعمال خيرية في كنيستهما يومَي السبت والأحد، ويديران ورش عمل دينية باقي أيّام الأسبوع، وفي أوقات فراغهما يرتّبان لإعادة زرع أشجار الزيتون التي اقتُلعت، وبعد العشاء يتطوّعان للعمل مع وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. وطبقًا لماما فهما «يبحثان عن علاج للسرطان، ويرتّقان ثقب الأوزون، ويأتيان بالديموقراطية إلى الشرق الأوسط.»

عمّو جوزيف وعمتو كريستينا قصيران وفي نفس الوقت نحيلان، ويبدوان كأخ وأخته أكثر من زوج وزوجته. وهما يعتقدان أنّ التلفزيون من عمل الشيطان وأنّ الموسيقى هي هوايته. هما يوافقان على الأناشيد والأغاني الوطنية ولكن لا يوافقان على الرسوم المتحركة وأفلام هوليوود ومسابقة المواهب الموسيقية العربية. وبالتالي فقد قضينا، سامي وأنا، وقتًا طويلًا نحاول أن نجد حجّة نقنع بها عمّو جوزيف وعمتو كريستينا أنّ التلفزيون لن يؤدي بنا إلى أن نُشوى على نار الفحم المشتعل.

بابا يحبّ عمّو جوزيف لأنّه يدخّن الأرجيلة حينما لا يكون مشغولًا بإنقاذ فلسطين. وهما لا يتناقشان في الدين أبدًا. أحيانًا يناقشان السياسة. ودائمًا يناقشان «الأيّام القديمة الطيّبة»، ومعظم أحاديثهما تتضمن ذكرًا لأشجار التين والزيتون.

ماما تحبّ عمتو كريستينا وعمّو جوزيف ولكنّها لا توافق على صداقتي لسامي لأنّه «متذمّر دائمًا»، ولأنّ الآخرين يمكنهم سماعه وهو يجادل عمتو كريستينا وعمو جوزيف في كلّ شيء بدءًا من ترك الفوَط المبتلّة على أرضية الحمّام إلى الذهاب إلى الكنيسة دون تمشيط شعره. ربّما لا أعرف ما إذا كانت الأمّهات اليهوديات يوافقن على

أن تقضي بناتهنّ أوقات فراغهنّ مع الصبيان، ولكنّني أعرف أنّني سمعت ماما مرّات عديدة وهي تشكو لبابا أنّه ليس من الطبيعي أن أكون صديقة لصبي. يقول بابا: «إنّها لا تزال صغيرة جدًّا على هذه الأشياء.» وتجيب ماما: «نعم، ولكن من الأفضل أن يتوقّف هذا الآن قبل أن يُدركا الأمور. ليس لها صديقات يا فؤاد. ليس منذ... نعم، إنّها تكره أن تكون مع البنات. إنّها تكره أن تكون مع أيّ شخص عدا سامي. هذا خطأ يا فؤاد.»

«يا نور! فكّري للحظة. أليس من الواضح لماذا لا تحبّ أن تكون مع البنات؟»

«نعم. لكن هناك شيئًا خطأ في صداقتهما. إنّها قوية جدًّا. وهي لا تعجبني... إنّها تخيفني.»

«باه! إنهما أطفال، فدعيهما يستمتعان ببراءتهما وهما لا يزالان يمتلكانها.»

حتّى الآن رأي بابا هو الذي يسود، أمّا ماما فتتنهّد في أسى في كلّ مرّة أقول لها إنّني في الخارج ألعب مع سامي.

هذا الصباح لم يهتمّ سامي كيف قضيت وقتي أثناء حظر التجوال. كان كلّ ما يريد معرفته هو مَنْ من المتسابقين استُبعد من مسابقة المواهب الموسيقية.

بعد أن أتجشّم عناء شرح كلّ تفاصيل عملية الاستبعاد أقول صائحة: «سأسابقك إلى المدرسة. أحتاج إلى أن أتحرّك ثانية.»

تنقطع أنفاسنا على طول الطريق الحجري الصاعد، ونحن نحشر أنفسنا بين كتل البشر التي خرجت لتستمتع تحت السماء المفتوحة في أوّل صباح لها منذ أيّام مضت.

نحن نتجنّب سيّارات الأجرة التي تُطلق أبواقها، والعربات التي تجرّها الحمير، والحافلات الصغيرة، والعائلات التي تسير وهي تثرثر. نحن نجري خلال شبكة الطرقات الضيّقة ونمرّ بالكنائس والمساجد ومواقف الحافلات المزدحمة عبر الطرق الممهّدة بالحجر في طريقنا إلى ميدان المهد. نجري بجوار الحوائط المطبوع عليها شعارات بالعربية والإنجليزية: السلام فقط! الحرية! يسقط الاحتلال! نسرع بجوار الفيلات الجميلة المبنية من الحجر الجيري، والفنادق الفاخرة ذات الطراز الاستعماري، ونلوّح بأيدينا للأطفال الذين يلعبون أمام العمارات السكنية. نقفز من فوق الأرجل الممتدّة للرجال الذين يجلسون على عتبات أبوابهم يتشمّسون ويُسبِّحون على حبّات المسابح أو يتلمّسون صلبانهم. نجري تحت الغسيل المنشور على حبال يدوية الصنع. نجري ونشعر بإحساس جميل بأنّ الشمس تلمس وجوهنا وأنّ الهواء يداعب شعرنا. الأهمّ هو أنّنا نشعر أنّنا عدنا للحياة مرّة أخرى.

سامي يتشاجر من أجلي. يلكم خاطر في بطنه. خاطر يردّ بلكمة في الذقن لكنّ سامي يصدّها.

يبصق خاطر: «يا يتيم يا جبان! تدافع عن بنت؟ بنت لها وجه مثل اللحم المفروم!»

يندفع سامي ورأسه إلى الأمام ناحية بطن خاطر ويصيح: «يا ابن الحرام!»

خاطر بجسمه الأطول والأعرض يدفع سامي فيوقعه أرضًا. خاطر يرفع قدمه ليرفسه.

أصيح: «دعه وشأنه!» وألطم خاطر على رقبته، وأنحني لأرى سامي.

ينفجر خاطر ضاحكًا. «خذيه!» وينصرف عنّا سعيدًا بنفسه.

أسأل سامي: «هل أنت بخير؟»

«لا.»

«أين الإصابة؟»

ينهض سامي ويقول في غضب: «إصابة؟»

«سُمعتي يا حياة! تنقذينني! أوف! لو كنت أنزف دمًا كبقرة يذبحها الجزّار لما أردت أن تنقذينني. الآن ضاعت كل مصداقيّتي. اتركيني لحالي.»

عندما يحلّ وقت الغداء يكون سامي قد سامحني. هكذا تمضي الأمور ببساطة بيننا. لا يمكننا أن نظلّ غضبانَين من بعضنا البعض لفترة طويلة، فهناك أشياء كثيرة لنعملها سويًّا.

يسرق سامي علبة طلاء مفتوحة من أحد فصول المدرسة ويُقنع أدهم وتيريزا وأنا لنذهب معه إلى الجدار العازل الذي يحيط بجزء من مدرستنا. أدهم وتيريزا يتذرّعان بشكوكهما، فمرافقة سامي تعني المتاعب مع المدرّسين، والعصا ليست بعيدة على أيّة حال. سامي يعرف كيف يدلي الجزرة أمام الحمار. يكفي اتّهام أدهم بالجبن أمام تيريزا ذات الشعر الحريري الطويل والعينَين الزرقاوَين حتّى يلين ويذهب إلى الجدار. تتبعه تيريزا من باب الفضول. حينما نقترب يبدو الجدار هائلًا ويغرقنا بظلٍ غير طبيعي. يتلوّى الجدار في طريقه عبر الأرض ليشقّ القرى والمدن، ويفصل العائلات عن بعضها والمصلّين عن كنائسهم ومساجدهم. الجدار يرعبني. أشعر

أنّه سيسحقني ويخنقني رغم أنّه ثابت في مكانه.

أنظر إلى الجدار وأتذكّر اليوم الذي فقدتُ فيه راوية أميري، أخصّائية العلاج الطبيعي، أخاها بسببه. عندما أرى الجدار لا أرى إلا الموت وفقدان الأحبة.

عينا راوية رماديتان بدرجة تقرب من اللون البنفسجي. هي لا تضع الماكياج. شعرها قصير ودائماً مصفّف للخلف ومدهون بكريم بريل. (تعودت ماما أن تعتبر راوية ناقصة الأنوثة ولكنها توقفت عن انتقادها بعد ما حدث. فجأة اعتبرتها ماما من أجمل النساء اللواتي قابلتهنّ. ماما أصبحت تقول إنّه رغم أنّ شعر راوية قصير إلا أنّه على الأقلّ حريري.) عندما عدت في ذلك اليوم من المدرسة إلى البيت سمعت ماما تتكلّم مع عمتو سمر. كانتا تتكلّمان بصوتٍ هامس بينما تدخّنان بلا انقطاع، وتحتسيان القهوة المحلاة بالسكّر، وتقرآن الطالع في الفناجين.

اختبأت خلف الباب لأستمع إليهما، وأنا أختلس النظرات من فتحة الباب الموارب قليلًا.

قالت ماما بلهجتها الهادئة التي تحتفظ بها لحكايات الفواجع: «ذهبت راوية للعمل كما تفعل في أيّ يوم عادي. يقولون إنّها قامت بعمل تدليك لرسغَي امرأة وقامت بوضع قوالب مغناطيسية ساخنة على ظهر رجل يعاني تشوهات في الفقرات. ربّما تكلّمت معهم عن الطقس، أو محادثات السلام، أو طريقة صنع فطيرة الجبن.»

طقطقت عمتو سمر بلسانها أسفًا: «لم يكن لديها فكرة عمّا حدث.»

نفثت ماما حلقة من الدخان ناحية السقف وأخذت رشفة من

القهوة. «عندما عادت إلى البيت وعرفت ما حدث فكأنّما نُزع قلبها من جسمها وداسه البلدوزر!»

«يا الله!»

«تعرفين أخاها الأصمّ الأبكم هشام؟ أليس كذلك؟ يبدو دائمًا وكأنّه يثير قليلًا من الخوف في من يراه. ذلك لأنّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا سوى أن يحدّق بنظره. رحمة الله عليه.»

ترنّمت عمتو سمر: «آمين.»

«لم تُتَح له فرصة يا سمر. يقول الجيران إنّهم سمعوا أحد الجنود يُلقي تحذيرًا بواسطة مجهار الصوت، وإنّهم أسرعوا محاولين الوصول إلى سائق البلدوزر ليخبروه أنّ هشام في البيت. لكنّهم مُنعوا من الاقتراب، فسُحق هشام مع باقي البيت.»

«يتغمّده الله برحمته!»

سمعتُ صوت الولاعة ورأيت عمتو سمر تشعل سيجارة أخرى.

«ذهبت مع فؤاد وبعض الجيران وبحثنا في الركام طول الليل. لم نجد إلا بضعة أجزاء من جسمه... رأسه كان بجوار الثلاجة.»

أدهم وتيريزا وسامي وأنا نقف عند أسفل الجدار فنبدو بجواره صغارًا كالنمل وفي متناول تهديد برج المراقبة.

يقول سامي لأدهم وهو يقرب علبة الطلاء والفرشاة: «أنت أوّلًا.»

فجأة يبدو أدهم متمنّعًا: «ماذا لو أمسكونا؟»

سامي يتكلّف الابتسام ويطوي ذراعَيه على صدره ويرمق تيريزا بنظرة خاطفة. «وماذا لو أمسكونا؟ أنا لست خائفًا.»

يرفع أدهم حاجبه ثم يختطف الفرشاة وعلبة الطلاء. ينحني مقتربًا من الجدار ولسانه يبرز قليلًا من فمه مقطّبًا من شدّة التركيز. يكتب بالإنجليزية.

وباكا يسوع.

تهتف تيريزا: «آه! أنا أعرف هذه الآية!»

يشرق وجه أدهم ويخطف سامي الفرشاة منه.

«دوري الآن! كما تعلم أنا أستطيع أن أكتب بالإنجليزية أيضًا.»

يبدأ الكتابة: «كفحو.»

أخطو للأمام بجوار سامي وأهمس في أذنه مصحّحة: «كافحوا».

قبل أن يصيح ردًّا عليّ أسرع فأقول: «وحافظ على مصداقيّتك أمام تيريزا.» ينظر إليّ سامي بنظرة حانقة رغم أنّني أعرف أنّه ممتن لي في سرّه. أبتسم وأخطو للخلف وأنا أستمتع بمجاهدته في السيطرة على نفسه أمام تيريزا التي أعتقد أنّه مغرم بها، فهو يحاول دائمًا أن يمسك يدها في أثناء رقص الدبكة. يقوم بتصحيح ما كتبه، وعندما ينتهي، يخطو إلى الخلف لينظر في إعجاب لما كتبه:

كافحوا الجدار حت تا يسقوط

تيريزا وأدهم ينفجران ضاحكَين.

«هه! ماذا يُضحك؟»

يقول أدهم: «لا شيء يا أستاذ سامي.»

«اسكت إذن!»

تقول تيريزا في صوت واهنٍ عذب: «أظنّه جيّدًا جدًّا.»

يردّ سامي سريعًا دون أن يسيطر على انفعاله حتّى أمام تيريزا ذات الشعر الحريري: «إذن فلماذا تضحكين؟»

تهز كتفيها فتشتعل أذناه احمرارًا.

يقول بغضب: «مجرّد بنت حمقاء.»

«إيّاك أن تقول عنّي حمقاء.»

«أنت غبية! و... و... ولا تستطيعين التهجّي!»

تستدير على عقبَيها وهي تنفخ غضبًا.

يضحك أدهم في نفسه ولكنّه لا يلبث أن يندم على ذلك.

تتحرّك قبضة سامي بحركة مفاجئة وتصل إلى كتف أدهم.

«لقد أهنتني أمام تيريزا يا أحمق!»

أقفز على سامي لأحجزه عن أدهم.

يصيح أدهم وهو يدعك كتفه: «أنت مجنون! يجب أن يحجزوك في سجن إتزيون مع أبيك!»

بعد خمس عشرة دقيقة نجلس سامي وأنا في مكتب إدارة المدرسة. الأستاذة مريم مع أدهم تعالج أنفه المكسور. الأستاذ إيهاب الناظر يستدعي سامي أوّلًا. يقف الأستاذ إيهاب على باب مكتبه يداعب شاربه ويطقطق بلسانه في خيبة أمل. سامي، الذي يعرف الأستاذ إيهاب جيّدًا ويعرف عصاه، يسير في تحدٍّ إلى داخل المكتب.

بعد قليل يخرج سامي ويداه حمراوان وملتهبتان.

الأستاذة مريم تمرّ أمامه وهي تحمل كيسًا من البلاستيك فيه رباط ملوث بالدم.

تقول لسامي بحنان وهي تقترب منه: «دعني أرى يديك.»

بسرعة يبعد سامي يديه ويعبس ثم يصيح: «لا أريد منك مساعدة.» يجري خارجًا من المكتب.

يعطيني الأستاذ إيهاب محاضرة عن اللعب مع الصبيان، وعن

تجنّب مثيري الشغب، وعن مراعاة الأنوثة. يقول: «أنت فتاة لطيفة. البنات أفضل صحبة لك.»

ألمس وجهي وأحدّق في اللوحات المعلّقة خلف مكتبه على الحائط. شخص ما طبع أغاني معروفة ووضعها في أطر وعلّقها.

«عديني أنّك ستصادقين البنات. حياة هل تسمعينني؟»

أقول وذهني مشتّت: «نعم يا أستاذ.»

«نعم ماذا؟ أنّك تسمعينني؟ أم أنّك تعدينني؟»

أقول: «نعم.»



استيقظتُ قبل أن يعطي الله الإذن للشمس كي تشرق.

كان طارق قد رفسني في وجهي ثمّ همس في أذني بأن لديه قوة خارقة وأنّه سوف يطير إلى أميركا كي يأكل الهامبرجر. أتركه في أحلامه وأغيّر مكان نومي. ثمّ ألاحظ أنّ ستّي زينب قد جلست وأسندت ظهرها على وسادتها وفي حجرها علبة بسكويت زرقاء.

«لماذا أنت متيقّظة يا ستّي؟» أهمس وأنا أتعثّر من فوق السرير، وأتشمّم الهواء بينما أجلس بجانبها على السرير. لا أريد أن أدخل في نطاق منطقتها الشخصية إن كان ثمّة ضرطة طازجة في الهواء، خصوصًا إذا كنّا قد تناولنا القرنبيط المقلي في عشائنا.

«النوم لا يأتي يا حبيبتي.»

«إلام تنظرين؟» أشير إلى صورة تلاطفها بيدَيها الضعيفتَين المغضنتَين وأنا أقترب إلى جوارها.

«جدّك. أنا أفتقده.»

«أتمنّى لو كنتُ رأيتُ سيدي.»

«لكنتِ أحببتِه ولكان أحبّك. أنا متأكّدة من ذلك. كان يحبّ الأطفال، وحديقته، ويحبّني.» تضحك لي فيظهر فمها بلا أسنان، ثمّ تُلقي نظرة خجولة على الصورة.

«كانت له عيون جنّي...»

«جنّي!» يا لها من صورة مفزعة.

«ماذا يعلّمونك في المدرسة هؤلاء الحمير الذين لا عقل لهم؟ ألا يعلّمونك أنّ الله خلق الجنّ من نار وخلق الإنسان من طين، وأنّ الجنّ يعبدون الله كما يعبده الناس؟ كما يوجد أناس أشرار هناك جنّ أشرار، وكما يوجد أناس صالحون هناك جن صالحون. كان لجدّك عينان مليئتان بالسحر والرقص كعينَي جنّي صالح. كان معارفنا يسمّونه «المبتسم»، وكان مغرمًا بالألاعيب. ضبطته ذات مرّة في حديقتنا مع عمّك سليم، يرحمه الله. كان سليم شابًّا. رأيتهما من نافذة المطبخ – فقد كنت أستطيع أن أرى كلّ شيء منها يا حياة. كانت قريتي تقع على إحدى تلال القدس المرتفعة وكان بيتنا في أعلى مكان بالقرية. من خلال نافذة مطبخي رأيت جدّك ومعه سليم جاثمَين على الحشائش ورأساهما متقاربان كأنّهما يحيكان مؤامرة ما. كان صوت جدّك عاليًا ومنفعلًا. فجأة سمعت سليم يصرخ. جريت إلى خارج البيت. كان جدّك الأحمق، رحمة الله عليه، يُجري تجربة مع سليم. هل أخبرك عنها؟ أنا لست امرأة تفهم في العلم لكنّني لن أنسى هذه التجربة أبدًا إلى يوم أن أموت. لقد تحدّثنا عنها كثيرًا بعد ذلك.»

«نعم، قولي لي!»

تحكّ يدَيها في بعضهما وقد سرّتها حماستي.

«لقد حفر الاثنان حفرة صغيرة في الأرض ووضعا فيها بعض الماء ثم غطياها بقمع مقلوب. ثم ألقى سليم مسحوقًا أبيض، لا بدّ أنّه أحضره من المدرسة، من خلال القمع. بوم! انفجر المسحوق الغبي وطار القمع ليصطدم برأس سليم ويجرح جبهته. كانت لديهما الجرأة ليضحكا بعد ذلك بشكل هستيري! أنا طاردت سليم في جميع أرجاء الحديقة وعندما أمسكت به ضربته بكلّ قوّتي على مؤخّرته. لقد أرعبني ابن الحمار. كاد أن يُقتل.»

«لم يكن خطأه فقد ساعده سيدي.»

«نعم، أنا أعلم ذلك.» تقول وعيناها تلمعان: «لقد طاردته هو أيضًا وأذقته ضربًا مبرحًا، وكلّ ما فعله هو أن ظلّ يضحك ويقول إنّه كان يحاول أن يجعل من سليم عالِمًا.»

«هل أصبح عمّو سليم عالِمًا؟»

اكفهرّ وجهها: «لقد مات...» ثمّ همستْ: «أنا أفتقد القدس يا حياة.» صوتها يلين بحيث لا أكاد أسمعها: «أنا أحاول ألا أشكو. أنا أُقيم الآن في بيت ابنتي وزوج ابنتي، وأبوك فقد أرضه، ولذا فأنا أكتم ما في نفسي كما يفعل هو.» تضمّ قبضة يدها وترفعها إلى قلبها.

«الحنين يخنقني. أرى القرية وبيتي المبنيّ من الحجر الجيري. أرى المذياع الذي ابتاعه جدّك عندما ذهبنا إلى سوق المدينة القديمة. وضعنا المذياع في المطبخ. أرى النوافذ ذات الأقواس المطلّة على التلال، وكلّ نافذة كأنّها إطار من الحجر. أستطيع أن أشمّ رائحة أشجار الياسمين واللوز في حديقتي وأتذكّر أشجار الزيتون التي

حَصدتُ ثمارها. هذه الذكريات استقرّت في قصبتي الهوائية حتّى أنّني لا أجسر أن أستحضر ذكريات غيرها خشية ألا أستطيع التنفس. لست أبعُد عن القدس سوى ستّة أميال ومع ذلك لا أستطيع دخولها. لن أرى أبدًا المكان الذي ولدتُ فيه ولا البيت الذي دخلته كعروس. وأشجار زيتوني يا حياة! أوه، كم أفتقدها! كان لدينا إحدى عشرة شجرة تحيط ببيتنا. لو رأيتِ البيت لأحببته.»

«كيف كان شكله؟»

«فيلا من دورَين، مبنيّة من الحجر الجيري الأصفر فاتح اللون. جدّك وأبوه وجدّه كانوا أغنياء. امتلكوا هذه الأرض منذ أجيال. كانت أرضًا عظيمة بحقّ. في مقدّمتها باحة صغيرة ممهّدة ببلاطات سوداء وخضراء وبيضاء معشّقة مع بعضها. في ليالي الصيف كنّا نُحضر الكراسي والمناضد ونضعها تحت الأشجار ونجلس مع أصدقائنا نأكل البرتقال ونُعدّ الكنافة على نار الفحم. لا زلت أتذكّر رائحة تلك الأشجار. الباب الأمامي كان عنّابي اللون لامعًا وتحميه ستارة بيضاء من الحديد المشغول. كان الباب محفورًا من أعلاه على شكل هلال. وكانت هناك نافذتان بأقواس وزجاج ملوّن على جانبَي الباب.»

رغم أنّني استمعت لحكاياتها مرّات عديدة إلا أنّني لا أسأمها.

«في ذلك البيت وَلدتُ سليم رحمة الله عليه، ووَلدتُ هاني، ربّنا يحميه ويحمي زوجته السورية ذات الفم الكبير وأحفادهما الثلاثة. وولدتُ شمس رحمة الله عليها. ماتت في الثالثة من عمرها عندما كنّا نعيش في المخيّم. ووَلدتُ ابتسام ربّنا يحميها ويحمي زوجها الفلسطيني وأولادهما، الذين تركوا بلدنا ليعيشوا في أميركا وربّنا

يحقّق لهم النجاح. في مخيّم اللاجئين وَلَدتْ شريف ربّنا يحميه هو وولَدَيه، الذين يعيشون في أستراليا في آخر بقاع الأرض. لماذا لم يستطيعوا أن يكون لهم أربعة أو خمسة من الأولاد؟ ربنا يرحم زوجته ويسامحني إذا كنت قلت عنها كلامًا سيّئًا في الماضي لأنّها أخذته إلى آخر بقاع الأرض، وأخيرًا وَلدتُ أمّك ربّنا يحمي...»

«ستّي؟»

«نعم يا حياة؟»

«هل يمكن أن أقترح عليك شيئًا؟ لماذا لا تذكرين جميع أسماء أولادك ثم تدعين لهم جميعًا مرّة واحدة؟ هذا سيكون أسرع بالنسبة لك.»

«إه. لا تكوني حمقاء.»

أتنهّد وقد نفد صبري منتظرة أن تنتهي من دعواتها التي لا تنتهي.

أسأل بسرعة: «كيف فقدت بيتك؟» سمعتُ القصّة منها مرّات لا تُحصى ولكنّها تستحقّ سماعها مرّة أخرى، على الأقلّ لإلهائها عن البدء في الدعاء لنصف سكّان الضفّة الغربية. تُلقي خمارها على وجهها وتبدأ في الأنين. أسحب الخمار برفق فترفع عينَيها إلى السقف.

«كان ذلك في ١٩٤٨. كنّا نسمع عن الأفعال التي ترتكبها الإرجون والهاجاناه. هذه كانت المنظّمات الصهيونية التي أرهبت المدن والقرى حتّى تُجبر الفلسطينيين على الهروب من بيوتهم. كلّ يوم نسمع عن مزيد من الضحايا. وسمعنا عن مجزرة قرية دير ياسين القريبة. قُتل مائتان من رجالها ونسائها وأطفالها يا حياة. هل تستطيعين تخيّل رعبنا؟ حضرت القوّات المسلحة وأخرجتنا.

أخذنا معنا ما نستطيع حمله على ظهورنا. ولم يخطر ببالنا أنّنا لن نعود أبدًا. لقد أغلقنا أبوابنا. تخيّلي أن...»

أتعلّق بالحكاية وأرجوها أن تواصل.

«أُعلنت دولة إسرائيل فورًا بعد ذلك. لم أر بيتي مرة أخرى إلا بعد ١٩٦٧.» تتنهّد في أسى بالغ رافعة عينيها إلى السقف. «في ١٩٥٠ أصدروا قانونًا جديدًا. كلّ شخص لم يكن في إسرائيل يوم ١ سبتمبر ١٩٤٨ يُعتبر من وقتها مالكًا متغيّبًا. هه! هل علّمك مدرّسوك هذا القانون؟»

«لا.»

«ماذا يعلّمونك إذن؟ لست أفهم. حسنًا هذا القانون خراء.»

«هذا سباب.»

«فليسامحني الله» تتمتم بدعاء سرًّا وتسألني أن أضع الوسادة خلف ظهرها. رغم حرارة الجوّ، تطلب منّي أن أضع ملاءة على كتفَيها. تحدّق في چيهان وطارق اللذَين يغطّان في نومهما على السرير وتتنهّد. «يقول القانون إنّ جميع أملاكنا يمكن أن تُحكَّر الآن أو تُباع.»

«أنا أكرههم.»

تعقد ستّي زينب حاجبَيها. «نحن العرب نقول إنّ الجرح الذي ينزف إلى الداخل هو الأكثر خطورة. لذا فأنا لا أكره يا حياة. الكره لن يعيد أرضي لي.»

أعبس. «ولكنّ هذا ليس عدلًا.»

تأخذ ذقني في يدها وتنظر إليّ في عينَيّ. «أقول لك هذا لأنّك ابنة ابنتي. اشعري كما تشائين فهذا حقّك. ولكنّك ستجدين قريبًا أنّ الكره لن يعطيك الراحة. بل سيجعلك بائسة فقط.

«إنّه عالم غريب يا حياة. أوه، أنا أعرف أنّني عجوز كالجبل، لكنّني تعلّمت بعض الأشياء الغريبة خلال حياتي.»

تتوقّف ثمّ تفتّش في صندوقها باهتمام.

«هنا، انظري!»

«ما هذا؟»

تهمس كما لو كانت تبوح بسرّ خاصّ: «عقود مُلكية الأرض.»

تُجعِّد أنفها المجعّد أصلاً، وفجأة ينفجر الغضب في وجهها.

«بيتي احُتلّ. سُرق. في كثير من المرّات أتعجّب يا حياة عن ماذا حدث لممتلكاتنا بعد أن هربنا. هل استخدموا أثاثنا وملابسنا وأوانينا؟ هل تخلصوا منها؟ لا أستطيع أن أقرّر أيّهما أسوأ. لقد فقدنا الأصدقاء والأقارب. لم يكن هناك وقت للوداع. هربنا ونحن نظنّ أنّنا سوف نعود بعد أيّام أو أسابيع. أتذكّر الليالي في المخيّم حينما كنّا نتجمع كلّنا ونستمع من المذياع إلى رسائل الناس في المخيّمات الأخرى. أووه! آذاننا كانت تمتدّ كآذان الأرانب في انتظار رسالة من شخص نعرفه. لم نسمع إلا رسالة واحدة من شخص نعرفه وهو ابن عمّ جدّكِ. كانت عمّتك ابتسام في ذلك الوقت رضيعة. كانت لديها غازات فظيعة لكنّني كنت مشغولة في إطعام شمس. شمس كانت مريضة منذ وُلدتْ وكانت تريد أن تظلّ دائمًا على صدري. جلس جدّك معي في خيمتنا وأنا أعلّمه كيف يضع زيت الزيتون الدافئ في ثقب بطن ابتسام.»

«ماذا؟»

«الزيت ملطِّف.» تواصل حديثها متجاهلة فكّي المتدلّي: «بينما كان يسكب قطرات الزيت الدافئ على بطن ابتسام سمعنا المذيع في المذياع يقول: «أبو ناصر محمود عبد الرازق يقول إنّه في أمان

مع عائلته في مخيّم شاتيلا في شمال لبنان.» صُعق جدّك لدرجة أنّه نسي ما كان يفعله وسكب كلّ إناء الزيت تقريبًا على ابتسام.» ترتجّ كتفاها الثقيلتان بينما تضحك في سرّها. «عندئذٍ بدأ جدّك في النشيج. أقول لك يا حياة إنّ الرجال لا يعرفون، ولن يعرفوا أبدًا، كيف يصنعون شيئين في نفس الوقت. أنا كنت أبكي أيضًا لكنّني واصلت إرضاع شمس. أمّا جدّك فلم يستطع أن يرعى ابتسام الباكية بينما هو ينشج من أجل أبي ناصر. وعلى فكرة، فإنّ ابتسام أصبحت مزيّتة كالدجاجة المنقوعة في الزيت. لذا وضعها بين ذراعَيّ وتركها، فأخذت أحاول أن أهدّئها في نفس الوقت الذي أرضع فيه شمس وأبكي على أبي ناصر.»

«هل رأيت بيتك بعد ذلك يا ستّي؟»

«بعد حرب الأيّام الستّة. لقد عدنا في وقت ما في ١٩٦٧. قريتنا التي كانت، أصبحت الآن تسمّى القدس الغربية. معظم البيوت احتلّتها عائلات يهودية. بعض أجزاء البيوت تغيّر بحيث لم يمكننا التعرّف عليها. جدّك، وأنا، ومعنا هاني وابتسام، ربّنا يحمي...»

أقاطعها وقد نفد صبري: «نعم، نعم! ربّنا يريح أرواحهم ويفتح أبواب السموات لهم ولكلّ من قابلوه في حياتهم. إذن ماذا عن عودتك؟ ماذا حدث؟»

«أنا عجوز وأنسى حتّى أين وضعت شبشبي ومتى عيد ميلاد أمّك، ولكن اعلمي يا حياة أنّ هذا اليوم محفور في ذاكرتي لا يُمّحى، وأنّني أستطيع تذكّر كافّة التفاصيل. سليم لم يأتِ معنا لأنّه كان في ذلك الوقت يعمل في الكويت. ولكن جاء معنا هاني وابتسام لأنّهما كانوا قد كبروا. هاني كان يعمل لدى أسرة إسرائيلية قرب ناتانيا ولذا كان يتحدّث العبرية وقادرًا على الترجمة. أمّك كانت في السابعة

وشريف في التاسعة، وقد تركناهما في رعاية صديق بسبب شقاوتهما الزائدة. سرنا خلال القرية يا حياة وأنا أسمع صوت صمت أهلنا. كانوا كالأشباح تحوم حولنا. شعرت ونحن نسير في شوارع القرية الواسعة وفي الطرقات الضيّقة التي لم تُدمَّر، أنّني كاليتيمة التي عادت لحضن والدَيها. سرنا بجوار موقع مسجد القرية الذي كان يُستخدم أيضًا كنادٍ. كانت بيوت السكّان اليهود قد بُنيتْ فوقه. أتذكّر كيف كنّا نتجمّع في مدخل المسجد خلال العيد لنستعرض ملابسنا الجديدة أو لنقارن العيديات التي حصلنا عليها من عائلاتنا. كانت الأغنام تُذبح إحياءً لذكرى تضحية النبي إبراهيم. كان العيد يتواصل حتّى المساء. أراد جدّك أن يصلّي ركعتَين في الشارع، لكنّني منعته. كنت أخشى من أن تحدث مشكلة. نزلنا منحدرًا صغيرًا ورأينا بيتنا. ساعتها توقّف الزمن. لم يتغيّر شكل المنزل من الخارج. وصلنا إلى البوّابة المؤدّية إلى باحة البيت. كانت البوّابة مواربةً لذا دفعها جدّك ليفتحها. سرنا إلى الداخل. قال بصوت مرتجف: «انتظروا هنا.» لكنّني رفضت. لا بدّ وأن أرى البيت مرّة أخرى. اعتمدت في سَيري على هاني وابتسام اللذَين يمسك كلّ منهما بأحد ذراعَيّ. سرنا على البلاطات واقتربنا إلى الدرجات الثلاث لمدخل البيت. فجأة تهيّجتْ أحاسيسنا وأخذنا في تبادل الذكريات وكلّ منّا يتنافس في الحصول على اهتمام ابتسام بتذكيرها بالبيت الذي ولدتْ فيه. فجأة فتح الباب على مصراعه ورأيت رجلًا يقف على عتبة بابي وتحت سقفي، قصير القامة وله لحية كثيفة وخصلات جانبية متموّجة. كان يرتدي معطفًا طويلًا أسود اللون ولكنّ قدمَيه كانتا حافيتَين. لا بدّ أنّه ارتدى ثيابه على عجل فنسي حذاءه. كانت قدماه الحافيتان وكأنّهما تبزغان من تحت ثيابه.»

شعرت أثناء حديث ستّي زينب أنّني كنت هناك معهم أجلس فوق شجرة لوز في الباحة وأرقب المشهد وهو يتجلّى للعيان.

«أمرنا وكأنّه يهشّنا بعيدًا: «اخرجوا من أملاكي!» كان الموقف مضحكًا يا حياة. لم نستطع حتّى أن نتحادث سويًّا. كان هاني يترجم لنا وكان واضحًا أنّنا نُطرد بعيدًا. لهث جدّك. لن أنسى أبدًا صوت لهاثه. كأنّما كانت كلمات الرجل أيادٍ تخنق عنق جدّك. عندئذٍ ظهرت زوجة الرجل إلى جانبه. كان شعرها مغطّى مثل شعري. وكانت تضع خمارًا أبيض مربوطًا خلف عنقها الطويل الأبيض. عيناها زرقاوان كزرقة السماء. كانت ضئيلة الحجم وترتدي مريلة خضراء عليها بقع من الدقيق والزيت. أنا لست شخصية عنيفة يا حبيبتي لكنّني أقسم بالله أنّني في تلك اللحظة أردت أن أفقأ عينَيها عندما تخيّلتها تطبخ في مطبخي وتنظر من نافذتي وتستخدم موقدي وأرففي. أسرع هاني إلى جانب جدّك بينما تشبّثت ابتسام بي. عندئذٍ تكلّمت المرأة. «هذه أرضنا.» ترجم هاني. كان صوتها عصبيًّا ومرتجًا كطفلة تتشبّث بلعبة تعرف أنّها لا تملكها. فيما بعد في تلك الليلة، وأنا راقدة أنتظر أن يغشاني النوم، فكّرت في الكلمات «ملكُهم» و«ملكُنا» وكيف أصبحت عديمة الجدوى.

«أعلن جدّك بالعربية وهو يُخرج عقود الملكية من جيب جلابيته البنّية: «بل هذه أرضنا.» إنّها نفْس العقود التي أُمسكها الآن. نظر الرجل والمرأة إلينا متحيّرين. سوّى جدّك غطرته ذات اللونَين الأحمر والأبيض على رأسه، وهو ما كان يفعله عندما يكون عصبيًّا، بينما يترجم هاني كلامه. أخرجت مفتاح البيت من جيبي وأظهرته لهما كي يرياه. نفخ الرجل صدره واستدار لهاني قائلًا إنّ عقودنا ليس لها معنى الآن. قال إنّنا هَجرنا بيتنا ولذا فإنّ دولة إسرائيل

وضعت يدها عليه. قال إنّ البيت الآن ملكهم وإنّنا ننتهك حرمته. أردت أن أبكي لكنّني لم أستطع أن أسمح لهم بالشماتة.

«حاولت أن أتفاهم معهم بالعقل. «هاني، قل لهم إنّ هذا بيتنا. قل لهم إنّنا أُجبرنا على تركه، ولكنّنا عائدون. اسألهم أيّ حقّ لهم في أخذ بيتنا!» حاولت المرأة أن تشرح. قالت إنّها فقدت عائلتها، أمّها وأباها وأختها التوأم، في غرف الغاز في معسكرات الاعتقال النازية، يا حياة.

«تحيّرتُ. خطوتُ للأمام خطوة وأنا أدعو المرأة أن تفهم. أجبتها من خلال هاني: «آسفة لما حدث لعائلتك وشعبك، ولكن لماذا نعاقب نحن؟»

«ردّ زوجها: «لقد أُعلنت دولة إسرائيل وأصبح الماضي ماضيًا. فانسِ بيتك لأنّه الآن بيتنا. اذهبي إلى مصر أو الأردن أو سوريا. هناكَ بلاد كثيرة لتختاري منها.» بدا في الواقع سعيدًا بنفسه عندما قال هذا الاقتراح، كما لو أنّه كان يصالحنا. صاح هاني: 'لكن هذا وطننا. هل يمكنك أن تطلب من شخص إنجليزي أن ينتقل إلى أميركا أو أستراليا لأنّهم يتكلّمون الإنجليزية في هذه البلاد أيضًا؟ فلسطين وطننا وليس مصر أو سوريا.« ظللنا نتجادل، وهاني يقف بيننا، إلى أن استدار الرجل ودخل إلى البيت. عاد ومعه بندقية. أمرنا: «اخرجوا من أرضي.» كنت بائسة. من رعبي صرخت كطفلة وشعرت فورًا بالعار يملأني. جذبتني ابتسام ناحية الشارع وهي تصيح في جدّك وهاني أن يتحرّكا بعيدًا.

«حاولنا يا حبيبتي، لكن دون جدوى. مصيرنا كان قد سكّ إلى الأبد. لم يعد لنا وطن الآن سوى المخيّم.»

وضعت رأسي على كتف ستّي زينب. هذه هي المرّة الأولى

التي تتكلّم فيها بصراحة عن كيف أصبحت لاجئة. حكايتها تجعلني أقشعرّ. لأنّنا أيضًا فقدنا بيتنا في بيت جالا فأنا أعرف جيّدًا ما الذي مرّت به. يصبح صوتها الآن همسًا وقد استغرقتها الذكريات: «كنت في المخيّم عندما استمعت إلى هذه المرأة، رئيسة وزرائهم التي لا أذكر اسمها، وهي تقول: «لا توجد أشياء تُسمّى الفلسطينيين. تلك الأشياء ليس لها وجود.» في تلك الليلة ذهبت إلى فراشي محمومة. كلماتها سمّمتني يا حياة، لقد كنت موجودة يا حياة. أنا موجودة!»

ربتُّ على يدها لأهدّئ من روعها.

«إن كان لي أن أتمنّى أمنية واحدة فقط يا حياة فهي أن أمسّ تراب بيتي مرّة أخيرة قبل أن أموت. الأرض، يا حياة. ليس هناك ما هو أهمّ منها. كلما كانت جذورك أعمق، كلما كان نموّك أطول وأقوى. أمّا إذا اقتُلعتْ جذورك من تحتك، فأنت إلى ذبول. كلّ ما أريده هو أن أموت على أرضي، وليس في بيت ابنتي، بل في بيتي.»

أمدّ يدَيّ نحوها وألمس خدّها المجعّد. تتسرّب من خلال فتحات الستائر بحيرات صغيرة من ضياء القمر فتصنع ظلالًا على وجهها فيبدو كخريطة من التجاعيد المتقاطعة في فوضى. لون عينيها كلون البندق القاتم. عيناها تلمعان من تحت الخمار الأبيض الفضفاض الذي يغطّي رأسها وينسدل على كتفَيها والذي تعوّدت ارتداءه. بعض جدائل من شعرها الفضّي الجميل تتدلّى على جانبَي وجهها. تبتسم لي ثمّ تفتّش في الصندوق لتُخرج منه مفتاحًا كبيرًا من الحديد معلّق في شرّابة وشاح أسود.

تتنهّد بعمق وتبتسم: «مفتاح بيتي. أخذته معي عندما هربنا. دسسته في ثيابي الداخلية. كان يحتك في جلدي ونحن نجري،

لكنّني كنت أعرف أنّني يجب أن أحتفظ به إلى أن نعود. لكنّ الخيمة أصبحت بيتنا الجديد. ومع الوقت أدركنا أنّه لن يُسمح لنا أبدًا بالعودة ولا أن نحصل حتّى على تعويض، وعندئذٍ فهمنا أنّ المخيّم سيكون دائمًا. وعندئذٍ، عندما مات جدّك...»

«بقلب محطّم كسير؟» رغم أنّني استمعت إلى الحكاية مرّات عديدة إلا أنّ ستّي زينب لم تشرح أبدًا بالتفصيل كيف مات جدّي. هل كان يعاني نفس ما يعانيه بابا الآن؟

«دهسته سيّارة.»

«أوه.» أسأل لأعرف ما إذا كان ردّ فعل بابا طبيعيًّا: «لكن هل تحطّم قلبه؟»

تقول وقد بدت عليها الحيرة: «طبعًا، بكلّ تأكيد. وكذا كلّ أجزاء جسمه. لقد كانت سيّارة كبيرة.»

أحجم عن تغيير اتّجاه عينَيّ وأغيّر الموضوع: «متى انتقلتِ إلى بيت ماما؟»

«أمّك تزوّجت من أبيك وكنت سعيدة لأنّ لديه أرضًا، وبستان زيتون، وضحكة لطيفة.»

أقول غير مصدّقة: «ضحكة لطيفة؟ لا أسمعها أبدًا.»

«لقد حدثت لأبيك أمور سيّئة فهو حزين. ولهذا فليس من المستغرب أنّك لا تسمعين ضحكته اللطيفة كثيرًا. لا يمكننا أن نكون جميعًا مثل جدّك الذي كان يستطيع أن يجد السعادة في أيّ مكان. هذا هو قدر الناس ذوي القلوب البسيطة. كم أحسدهم! قلبي كان مليئًا بالمرارة والغضب. لقد سئمنا من عمّال الأمم المتّحدة فهذا يؤذي كبريائي. أنا أكره البلاد العربية والخونة. وأكره الإسرائيليين، والأمم المتّحدة، والغرب، والشرق. أكره

الاصطفاف كالشحاذين من أجل الحصول على طعام العائلة، أنا التي كنت ذات يوم أملك بيتًا بدورَين وله نوافذ بأقواس وبلاطات ملوّنة.

«كان جدّك يقول لي: 'الحمد لله أنّنا لا نزال أحياء.' في ذلك الوقت لم أكن متديّنة. تركت الدين حتّى ابيضّ شعري وأصبحتُ دميمة. كم كنت غبية! لكنّني كنت جميلة يا حياة. هل تعرفين أنّ شعري كان أصفر؟» تبرم جديلة من شعرها حول إصبعها، وتقول وهي تقرّبها أمام عينَيّ: «انظري، إنه فاتح اللون جدًّا.»

«لكنّني أذكر أنّك قلت إنّ الأعور جميل في بلد العميان؟»

«أوه، حتّى الأعمى كان يمكنه أن يدرك أنّ شعري فاتح يا حياة.»

أحبس قهقهتي.

«أحيانًا كان موقف جدّك يحبطني. كنت أعيش في خيمة وأتجمّد في الشتاء، وفي الصيف أعرق وأهش الذباب. لكن في يوم ما، كان لي بيت، فيه بلاطات ملوّنة، وأسقف عالية، وأثاث. قلبي يحترق عليه كحرقته بعد وجبة دسمة. قلبي يحترق ولا يمكنك أن تفعلي شيئًا يزيل هذا الإحساس.»

أحني رأسي جانبًا. «هل تريدين كوبًا من اللبن؟»

«هه! حتّى هذا يحرمونني منه!»

«يمكنك شراؤه من أيّ محل. أبو يوسف يبيعه.»

تحرّك ستّي زينب عينَيها وتتحدّث إلى السقف: «لهذا فإن الإغلاق المتواصل للمدارس جريمة. شبابنا فقد القدرة على استخدام لغة الاستعارة.»

لا أعبأ بالردّ عليها.

«لقد فكّرت في كثير من الأشياء في ذلك المخيّم، يا حياة. ولم

أتوقّف عن التفكير منذ ذلك الوقت. ليس لهم رأسان وعشرة أقدام.»

«من؟ اللاجئون؟»

«لا، اليهود. هذا هو الأكثر إيلامًا في الموضوع. تلك المرأة التي سرقت بيتي لا بدّ وأنّها تقبّل أطفالها وتلاعبهم. لا بدّ أنّ لديها أحلامها وأحبّاءها. هي تعرف الألم والمعاناة مثلي وتعرف عذاب فقدان العائلة والبيت.

«أذكر أنّني التقيت بواحد من جيراننا في القرية حينما كنّا نقف في طابور الطعام في المخيّم. كان شخصًا فظًّا تعوّد أن يضرب أطفاله. مرّة أرسلت جدّك ليمنعه لأنّ صراخهم كان يعذّبني. في الطابور تبادلنا النظرات. رأيته يدفع ابنه بقوّة كما لو كان حيوانًا يروّضه. أدركت عندئذٍ أنّه حتّى ضحايا الظلم يمكن أن يكونوا قُساة غير قادرين على الحبّ.»

بعد فترة صمت سألتُ: «هل تظنّين أنّهم يضحكون؟»

توقّفت وهي تداعب المفتاح في يدها. «نعم. بالطبع يضحكون. أنا أراهم في التلفزيون وهم على شاطئ البحر المتوسط في تل أبيب يتشمسون بثياب الاستحمام، ربّما يغفر لهم عدم احتشامهم، ويلعبون الكرة ويضحكون تحت الشمس. نعم يا حياة. إنّهم يضحكون. المسألة هي أنّ أحدًا لا يُدرك أنّ الضحك واحد سواء صدر عن يهودي أو عن فلسطيني.»



في الصباح التالي تستيقظ ستّي زينب وتأكل نصف بيضة مسلوقة ثم تنهار على الأرض.

«ماما! الحقيني!» أصرخ وأنا ألقي بنفسي على جسد ستّي زينب الذي لا يتحرك وأناديها كي تفيق.

تجري ماما وتدخل غرفة المعيشة وتصرخ: «فؤاد! فؤاد! ماما انهارت!»

تحاول ماما أن تبعدني عن ستّي زينب لكنّني لا أتزحزح.

تبكي وتفلح في جرّي بعيدًا: «دعيني أتأكّد من أنّ قلبها ينبض!»

أجلس بجوارهما منكمشة وأنا أنشج بينما تضع ماما أصابعها على

رسغ ستّي زينب.

أكرّر في صوت خفيض: «من فضلك، من فضلك، من فضلك.»

يندفع طارق وچيهان إلى الغرفة. يبدأ طارق في الصراخ وتحاول چيهان إسكاته بأخذه في حضنها. لكنّه لا يسكت. يتصاعد نحيبه إلى السقف.

تهتف ماما: «النبض موجود ولكنه خافت!» نسمع خطوات بابا تدق على السلالم وهو يهبط مسرعًا من السطوح. «ماذا حدث؟»

بابا يذرع الغرفة مصدرًا أوامره بصوت رابط الجأش: «چيهان، اطلبي عربة الإسعاف. حياة خذي طارق إلى غرفتك وهدّئيه.»

«لا.» يقفز الرفض من فمي بسرعة تصعقني كما تصعق بابا. ينظر إليّ مذهولًا في صمت. أبكي: «لن أتركها.» ثمّ أنفجر باكية والدموع تهطل من عينَيّ فيتركني لحالي.

بعد قليل تصل سيّارة الإسعاف.

تقول ماما للممرّضات بينما يرفعن ستّي زينب من على الأرض ويضعنها على نقّالة: «من نعمة الله عليها أنّه ليس هناك حظر تجوال. إنّها من أحباب الله. كنت سريعة الغضب عليها اليوم عندما طلبت منّي أن أصنع لها كوبًا آخر من الشاي بدلًا من الكوب الذي برد. فليسامحني الله.» تغطّي ماما وجهها بيدَيها وتبدأ في النشيج. يتنهّد بابا ولكنّه لا يقترب منها. انتهت عادة الحنان المتبادل بينهما.

تدفع الممرّضات النقّالة إلى عربة الإسعاف. يصر بابا على أن نجلس على الدرجات الأمامية للعمارة لكي لا نعوّقهم. يجلس طارق بجواري يقضم أظافره ويحدّق في عربة الإسعاف بتمعّن. يهمس في أذني بخجل: «أريد أن أسمع صوت صفارة الإسعاف. هل تقولين لهم أن يديروها؟»

أردّ في شرود: «ستغضب ماما.»

يبدو أنّه يفكّر في ذلك للحظة ثمّ يقول: «الأمر يستحقّ.»

تضع چيهان محمّد على وركها وهي تراقب المشهد. ماما تطلق أوامرها أسرع من طلقات المدفع الرشّاش: «حافظي عليه دافئًا. أرضعيه من اللبن الصناعي الموجود أعلى الموقد. غيّري له الحفّاضة وضعي الكريم. أقول لك، سآخذه معي وإلا أصبح الأمر أصعب. من الأفضل عدم ترك المنزل اليوم إلا للذهاب إلى المدرسة. لا تتعاركوا. ضعي الدجاجة في الماء البارد حتّى يفكّ تجمّدها ولكن لا تستهلكي ماء كثيرًا. أبلغي الجيران عدا أمّ أمجد لأنها متطفّلة وعينها سوداء علينا. ابتعدوا عن المشاكل.»

أترك ماما وچيهان لتتّفقا على شروط السيطرة علينا (كلمتها قانون حتّى عودة بابا وماما)، وأقترب من ستّي زينب التي ترقد بلا حراك على النقالة داخل عربة الإسعاف. في رأسي بدايات خطّة تتكوّن. أريد أن أرى ستّي زينب مرّة أخيرة لأعرف ما إذا كانت الشجاعة ستؤاتيني لتنفيذ خطّتي.

الممرّضتان يبدو عليهما الانزعاج وتنظران لي بضجر وتقولان في عجل: «يجب أن نذهب الآن.»

أؤكّد لهما: «لن أتأخّر كثيرًا.» وأقفز في عربة الإسعاف وأنحني على ستّي زينب. أضغط شفتَيّ قرب أذنها اليمنى. أريد أن أقول لها شيئًا يصدر من أعماقي يوقظها لكنّ عقلي لا يسعفني. كلّ ما أستطيعه هو أن أتذكّر جولة الذكريات التي قمنا بها في الليلة الفائتة.

أهمس: «ابقَي وسأجعلك تلمسين هذه الأرض مرّة أخرى.» لا تصدر عنها نأمة.

أقبّل خدّها المجعّد وأقفز من عربة الإسعاف. أنا الآن في مهمّة، وأنا أحتاج بشدّة إلى شريك.



سامي وأنا نسير إلى المدرسة خلال الشارع الذي كان من قبل شارعًا سكنيًّا واسعًا. هذا الجانب من الشارع تتجاور فيه بيوت جميلة مبنية من الحجر الجيري. الباحات الواسعة التي تؤدّي إلى الأبواب الأمامية البيضاء والخضراء والمصنوعة من الحديد المشغول تملؤها أشجار السرخس والنخيل التي تلقي بظلالها عبر الأسوار على الشارع. كل بيت له بوابة عالية خضراء أو سوداء أو بيضاء.

على مسافة لا تتعدّى أربعة أمتار من هذه البوّابات يمتدّ الجدار العازل قاطعًا الشارع، الذي كان من قبل واسعًا، إلى نصفَين. المشهد الوحيد الذي يُرى من هذه البيوت هو الألواح الخرسانية التي ترتفع رأسيًّا ثمانية أمتار وبرج المراقبة الدائري العالي الذي

بني على جزء من الجدار في مواجهة المنزل الأخير في الشارع. برج المراقبة له ثلاث فتحات مستطيلة متراصّة فوق بعضها تشدّ العيون عن لون الجدار الرمادي. الشارع، وقد انقسم إلى جانبَين، لا توجد لافتة باسمه يمكن رؤيتها في هذا الجانب. ربّما تكون قد سقطت على الجانب الآخر. الآن انفصل الاسم عن المسمّى.

يقف سامي أمام أحد البيوت مأخوذًا بمنظر شجرة وقع نظره عليها. أحد فروعها يمتدّ فوق حائط كبير. يقفز سامي في الهواء ويطبق على الفرع بكلتا يديه ثمّ يشد نفسه لأعلى. بعد ذلك يمتطي الفرع ويبدو سعيدًا بنفسه. أنا مسمّرة في مكاني أمام الألواح الخرسانية للجدار العازل. لا أستطيع أن أميّز أين تنتهي السماء وأين يبدأ الجدار.

يسأل سامي: «هل ستكون بخير؟»

«لا أعرف. ولكنّني أعرف ما الذي سيجعلها أحسن حالًا.»

أُخبره عن خطّتي لزيارة قرية ستّي زينب وإحضار بعض التربة من أرضها. أخشى أن يقول لي إنّني غبية مثل بقية البنات، ولذا لا أجسر على النظر في عينَيه وأنا أتكلم. يتوقّف هو للحظة وينقر بيدَيه على فرع الشجرة.

«سأذهب معك.»

«حقًّا؟»

«عندنا الأستاذ هاني غدًا ليعطينا درس الجبر. له رائحة كرائحة الشاة الميتة وهو يُصرّ على أن يلاحقنا بأنفاسه ولا يتركنا في حالنا عندما نقوم بعملنا. فلماذا أذهب إلى المدرسة؟ لكنّني يجب أن أعود إلى البيت قبل حلول الظلام لأنّ عمّو جوزيف يجبرني على الذهاب إلى الكنيسة معه في ليلة الغد. الأب أنتوني عاد لتوّه من رام الله وسيعقد قدّاسًا خاصًّا.»

«أليس القدّاس مملاً مثل الصلاة في المسجد؟»

نظر إليّ كأنّما هذا سؤال غبي: «إنّه يشلّ مخّي. عمّي يلاحظ أنّني غير مهتمّ ويقرص أذني كلّ دقيقتَين، وفي الواقع أنا ممتن لأنّني أظلّ صاحيًا.»

«أنا أغلق عينَيّ أثناء الصلاة وعندما تتّهمني ماما بقلّة الإيمان أخبرها أنّ إغلاق عينَيّ يقرّبني من الله فينشرح قلبها.»

«الأب أنتوني يعظنا دائمًا أن نكون أقوياء في مواجهة القهر. يقول: 'لا تستسلموا أو تجبنوا أمام الاحتلال الصهيوني.' ومع ذلك رأيته ذات مرّة مجبرًا على أن يخلع ملابسه، إلا الداخلية منها، عند نقطة تفتيش. فأين كانت شجاعته عندئذٍ؟» يلوي سامي وجهه في اشمئزاز ويقفز من على فرع الشجرة. «كان شعر صدره أبيض! لم أتحمّل رؤيته هكذا. راهب! شعر صدره الأبيض تعبث به الريح فيضحك عليه الجنود! كم مرة قلت لك يا حياة إنّ الكبار لا فائدة فيهم. هم لا يستطيعون حمايتنا أو حماية أنفسهم.» يهزّ سامي رأسه ثمّ يضرب على جبهته. «ياه. لقد نسيت. كيف سنصل إلى القدس. ليس مسموحًا لنا بالذهاب.»

«إنّها لا تبعد إلا عشرة كيلومترات.»

«هل أنت مجنونة؟ لن نستطيع ذلك أبدًا.»

نسيت هذا. نحن طفلان من بيت لحم ممنوع علينا دخول القدس ما حيينا.

طأطأت رأسي وشعور الخيبة يغمر جسمي كلّه. تحسّست الندوب على خدّي وأنا أنظر إلى الأرض.

يقول سامي: «بالطبع يمكننا دائمًا أن نحاول الدخول من الأبواب الخلفية.»

«أنت تعني بشكل غير قانوني؟»

يومئ برأسه متفكّرًا. «سوف نجد أناسًا يعودون على أعقابهم من نقاط التفتيش ليأخذوا الطرق الخلفية. الناس يفعلون ذلك طول الوقت... أليس كذلك؟»

أهزّ كتفَيّ: «لا أعلم.»

«أعتقد أنّهم يفعلون ذلك. سوف نحتاج إلى ركوب حافلة. فإذا أعادونا عند نقاط التفتيش، فأنا متأكّد أنّنا سنستطيع تدبّر الأمر.»

«ماذا لو متنا؟»

«إه؟»

«ماذا لو أطلقوا علينا النار؟»

«من المحتمل ألا أموت. معي صليبي من أجل الحماية. يمكنني أن أعيرك واحدًا إذا شئت. ولكن لأنّك مسلمة فقد لا يكون مفيدًا.» أقهقه. «قد لا يكون.»

«على أيّة حال، ستكونين شهيدة.»

لا تعجبني الفكرة. عندما كان وجهي عاديًّا، تعوّدت أن أفكر في أنّه أمر رائع أن أموت من أجل الحرّية والسلام والعدل وما إلى ذلك، ولكن بشكل يلفت الأنظار. مثلا أن ألقي بنفسي أمام دبابة لأحمي رجلًا عجوزًا. أحيانًا كنت أستغرق في أحلام اليقظة، عادة بعد أن يؤنّبني بابا وماما وأريد معاقبتهما بموتي حتّى يشعرا بالذنب، فأتخيّل نفسي وقد متُّ في ظروف بطولية تجعل والدَيّ والمدرسة ينفطرون كمدًا، وتجعل الناس يتغنّون باسمي، والنساء يغمى عليهنّ من شدّة الأسى، وأفراد أسرتي يتجمّعون ليحكوا حكايتي قائلين كم كنت ملاكًا، ناسين عن قصد المرّات العديدة التي قُرصتْ فيها أذنَيّ لأنّني لم أرتّب فراشي أو لأنّني رفضت أن

آكل البامية. كنت أشعر بصدري ينتفخ كلّما تصوّرت الأشياء الطيّبة التي سيقولونها عنّي.

أمّا الآن فأنا أعلم أنّ الموت الجسور أمر طيّب ولكن نظريًّا فقط.

أقول: «الأفضل أن أعيش.»

«وأنا أيضًا. لذا سوف نبذل جهدنا ألا تُطلق علينا النار. لا تلبسي هذا الفستان المقرف باللونَين الأحمر والقرنفلي الذي تُصرّين على ارتدائه لتعمي به عيون الجميع. فصليبي لن يكون مؤثّرًا عندئذٍ.»

«أنا أحبّ هذا الفستان.»

تتحرّك عيناه. «أيّ جندي تحت التدريب حتّى ولو كانت لديه عينا ديك سوف يلحظك وأنت في هذا الفستان. نحن نحتاج لنقود من أجل الانتقال.»

«والدَيّ لديهما رصيد مخبّأ في درج الملابس الداخلية لأبي. سأقترض بعضًا منه بعدما يذهبان إلى المستشفى غدًا. طبعًا لغرض نبيل. وسأقترض من چيهان أيضًا فهي توفّر نقودها لتشتري آلة للتمرينات الرياضية.»

«سوف تقتلك.»

«أعلم ذلك.»

«أنا أيضًا معي قليل من النقود ويمكنني أن أسرق بعضًا من حصالة الأعمال الخيرية لعمتو كريستينا. مساعدة ستّي زينب تُعتبر من الأعمال الخيرية. والآن أين سنضع التربة؟»

فتّشت في حقيبة المدرسة وأخرجت علبة حمّص خالية.

«فكرة جيدة. ولكنّك جعلت معدتي تقرقر. ياللا. فلنذهب إلى مخبز جورج قبل أن تبدأ المدرسة لنشتري شطيرة.»

يعود بابا وماما إلى البيت متأخرَين هذه الليلة، وليس معهما ستّي

زينب. يتّجه بابا إلى المطبخ مباشرة لإعداد أرجيلته. تتهاوى ماما على كرسيّ. ساقاها ممتدّتان ويدها تقبض على سيجارة لم تشعل بعد. تلقي برأسها إلى الخلف وتغلق عينَيها. تنطلق منها تنهيدة ضجرة.

«كيف هي يا ماما؟ هل هي بخير؟»

تقول ماما دون أن تفتح عينَيها: «نعم. إنّه كبر السنّ يا حبيبتي. قلبها أصبح أضعف. يا ربّ احفظها. ستعود إلى البيت غدًا إن شاء الله.»

أجلس على حافّة الأريكة أقضم أظافري. يملؤني شعور بالارتياح. فقد استُبعدت الأمراض المخيفة، الجلطة والأزمة القلبية والسرطان. لكنّ هشاشة حالة ستّي زينب لا تزال ترعبني.

أذهب إلى غرفتي. چيهان مشغولة بقفزاتها وتغنّي مع جهاز الووكمان. أُحضر قطعة من الورق وأكتب عليها اسم قرية ستّي زينب ووصف بيتها. أضعها في حقيبة الظهر التي أهداني إيّاها بابا. أتأكّد أنّ علبة الحمص فارغة ومحكمة وأقرّر لفّها في واحدة من لفّات محمّد لأحميها جيّدًا. ألفّ بعض المأكولات الخفيفة استعدادًا للرحلة. شهادة ميلادي مطوية في مظروف وموضوعة في الجيب الأمامي للحقيبة.

أذهب للنوم مبكرًا. أحلم بالدبّابات تطاردني في شوارع القدس. أحلم بأنّني دُفِنتُ حيّة. مايسة تهيل التراب عليّ لكنّني لا أستطيع الصراخ لأنّ فمي مملوء بالأحجار والسماد العضوي. أصحو مبتلّة بعرق بارد. أنظر إلى سرير ستّي زينب الخالي وأُدرك الآن فقط كم أحتاج إليها. أُجبر نفسي على أن أغلق عينَيّ وأكرّر كلمات إحدى أغاني البوب حتّى أستغرق في النوم.



أغادر البيت مبكرًا في الصباح التالي. أترك لچيهان ورقة كتبت عليها أنّني ذهبت إلى المدرسة. چيهان تغطّ في نومها بجوار طارق. لم يفكّر أحد منّا في النوم في سرير ستّي زينب الخالي.

سامي وأنا ليس لدينا أدنى فكرة عن كيفية الوصول إلى القدس ولذا نتّفق على أن نذهب إلى موقف سيّارات الأجرة في ميدان المهد.

بيت لحم لم تستيقظ تمامًا بعد. ربّما لا يزال معظم السيّاح، الذين يرتادون الشوارع الحجرية للمدينة المقدّسة بعيون مندهشة ومليئة بالتعجّب، نائمين نومًا عميقًا في أسرّة فنادقهم وقد ضمّوا أطرافهم إليهم. هم يحضرون إلى المدينة مرتدين بنطلونات الجينز وأحذية المشي والتيشرتات وقبّعات البيسبول. على ظهورهم يعلّقون

الحقائب الرياضية وحول أعناقهم يضعون الأشرطة التي تتدلّى منها آلات التصوير، وهم متشوّقون للتعرّف على المكان الذي ولد فيه يسوع. سامي وأنا نحبّ مراقبتهم وهم يستمعون إلى شرح المرشد السياحي الفلسطيني الذي يشرح لهم تاريخ كنيسة المهد ويقودهم إلى محلات التذكارات حيث يمكنهم شراء الأكواب أو التيشرتات أو الرسومات أو لوحات فأرة الحاسوب المطبوع عليها صورة العذراء مريم وهي تحمل يسوعًا وهو طفل (يقول بابا إنّ المرشد السياحي يحصل على عمولة خاصّة).

سامي وأنا نستمتع بالحديث مع السيّاح، فهم إمّا مبهورون (وفي هذه الحالة نشعر بالأسف من أجلهم ونهشّ عنهم الشحّاذين والأطفال الذين يحاولون البيع لهم) وإمّا منفعلون (وفي هذه الحالة نقف معهم لالتقاط الصور أو نمارس عليهم مهاراتنا في اللغة الإنجليزية).

أثناء سيرنا نندهش لسماع رجلين يتحادثان بأصوات عالية. يضحك سامي لي صائحًا: «نحن نتكلّم لندن أيضًا.»

أضحك وأجذب سامي من ذراعه بعيدًا وأقول: «الناس لا تتكلّم لندن يا غبي!»

«حسنًا ماذا كانا يتحدّثان إذن؟»

«باللغة الإنجليزية، فهما يتحدّثان الإنجليزية.»

«لندن أو الإنجليزية، نفس الشيء.»

«عليك أن تتوقّف عن النوم في حصص الأستاذة مريم.»

«طيّب يا دلوعة المعلمة.»

سامي وأنا نبدأ في رفس حصاة صغيرة رمادية اللون نتبادلها فيما بيننا على طول الشارع. ثم ينشأ بيننا جدال كما يحدث دائمًا، يبدأ الجدال حينما أقول له إنّني أريد أن أصبح عندما أكبر طبيبة بيطرية

في حديقة الحيوان. يشخر ويسألني عن نوع الحديقة.

«يستطيع الناس أن يتجوّلوا فيها مع الحيوانات.»

يبدو الأمر مسلّيًا جدًّا له. «لا يمكن أن توجد حديقة حيوان بلا أقفاص. الحيوانات ستفترس الناس.»

«لن يفترسوهم. سوف أدرّب الحيوانات على أن تكون طيبة.»

«لا يمكن ترويض الأسد ليتجوّل مع إنسان. لا تكوني سخيفة.»

أصيح حانقة من سخريته: «بل يمكن. هناك أماكن في العالم يشاهد فيها الناس الحيوانات عن قرب.»

«تُسمّى السفاري.»

«سفاري؟ بل سرافي يا غبي.»

«كلا ليست كذلك.»

«بل هي.»

«ليست كذلك.»

«بل هي كذلك.»

«لا.»

«نعم. سرافي! سرافي! سرافي!»

«أوه، اخرسي.»

«على أيّة حال، ما الذي تتحدّث عنه؟ كفّ عن الكلام كما لو أنّك تعرف ماذا يوجد في العالم. أنت لم ترَ أسدًا أبدًا. أو قردًا. ولا حتّى جملًا، مع أنّنا في الشرق الأوسط. كفّ بحقّ الله!»

أرفس الحصاة بقوّة بعيدًا فأجعله يجري ليبعدها أكثر. القاعدة هي أنّ الشخص الأوّل الذي يفوته رفسها يكون هو الخاسر. وكلانا لا يحبّ أن يخسر.

«رأيتهم في التلفزيون.»

«وهكذا ستصبحين المروّضة الفلسطينية الأولى للأسود.» يُتبع قوله بضحكة مبالَغ فيها ثمّ يرفس الحصاة فيجبرني على استعادتها من زاوية مزنوقة بجوار البالوعة.

أقول وقد نجحت في رفس الحصاة لمسافة قصيرة: «من الواضح أنّني سأدرس للحصول على هذه الوظيفة.»

«أين ستدرسين؟ لا توجد هناك دروس في ذلك.»

أقف أمامه واضعة يديّ على أردافي.

«يا حمار، هذا ما خلقت الجامعات من أجله.»

«حسنًا، ولكنّ الحيوانات لن تستطيع المرور من نقاط التفتيش. هل تستطيعين تخيّل الفيل وهو يتوسّل إلى الجنديّ ليجعله يمر؟ فكرتك غبية. وبعد كلّ شيء، فأنت لست من محبّي الحيوانات.»

«أوه، اخرس. على أية حال فكرتي ليست غبية. سأكتب إلى الناس في كلّ أنحاء العالم وسوف يرسلون الحيوانات وسوف يقول الإسرائيليون نعم.»

يسأل وعلى وجهه سخرية: «لماذا؟ هل لأنّهم يحبّون الحيوانات أكثر ممّا يحبّوننا؟»

أهزّ كتفَيّ: «سيقولون نعم. وسأفتح أوّل حديقة حيوانات بدون أقفاص. ستكون مفتوحة للجميع! ما عداك!»

ينظر إليّ في غضب. «كفّي عن الأحلام الغبية.»

«ليس هذا حلمًا غبيًّا.»

«بل هو كذلك.»

فجأة نسينا كلّ شيء عن الحصاة.

«وأنت؟ ماذا تريد أن تكون؟ هه؟»

يقطب. «وما هي الفكرة في أن أريد أن أكون شيئًا؟»

ألقي بيدي في الهواء سخطًا عليه. «أتقول إنّك لا تريد أن تكون طبيبًا؟ أو صاحب محلّ؟ أو سائق شاحنة؟ أو مدرّسًا؟»

«أكون مدرّسا؟ يا حياة لا بدّ أنّك مجنونة. تخيّلي أنّني أدرّس شخصًا مثلي. سأصاب بانهيار عصبي كما حدث للأستاذ هاني عندما لصقت محفظته بالغراء سريع اللصق. أكون طبيبًا؟ كثير من الدماء. صاحبَ محل؟ الناس فقراء. فما هي الفكرة؟ سائقَ شاحنة؟ لماذا؟ ألكي تصادر كما صودرت عربة عبد الله؟ أو لكي أقودها من نقطة التفتيش إلى مكان قطع الطريق؟ لا. أشكرك. ليس لديّ أحلام غبية يا حياة.»

للحظة لا أقول شيئًا. أحدّق في عينَيه وأهمس: «لا أصدّقك.»

ينظر في عينَيّ ويضحك. «هل يكون مقبولًا أن أريد أن أكون لاعب كرة قدم؟»

أهزّ كتفَيّ: «ربّما.»

«حسنًا. هذا هو ما أريد أن أكونه. وعندما تفشل فكرتك عن حديقة الحيوانات التي بلا أقفاص، يمكنك أن تأتي إليّ في أي وقت وسوف أعيّنك كمساعدتي الشخصية لتتولَّي الردّ على رسائل المشجّعين لي، وعقود الإعلانات.»

أنقضّ عليه لكنّه سريع جدًّا، يتفاداني جانبًا وينفجر في نوبة من الضحك.

نواصل سيرنا إلى وسط بيت لحم. السوق الآن يمتلئ بالضوضاء والفوضى رغم أنّ الوقت لا يزال مبكرًا. نتفادى السيّارات والعربات التي تسرع خلال الشوارع منحرفة ذات اليمين واليسار حول المارّة، وباعة الفاكهة الجائلين، والحمير التي تمشي الهوينى،

وممرّات المشاة المكسورة، وجزر المرور التي لا لزوم لها. أصحاب المحلات يقفون خارج محلاتهم يدخّنون ويتّكئون على أبوابها مراقبين المارّة وعلى وجوههم علامات الضجر. الأطفال يجْرون خلف أمّهاتهم وآبائهم الذين يحملون حقائب المشتريات وأقفاص الفاكهة والخضر. نجري أمام حافلة مزدحمة بالركّاب ونلوّح لهم. نمرّ بجوار الدير الأرمني ونهبط في شارع مغارة ستّي مريم بمحلاته الكثيرة التي تبيع تذكارات من الحلي الفضية، والصلبان المصنوعة يدويًّا، والأوسمة، والمسابح، والصناديق المصنوعة من خشب الزيتون والمزخرفة بالصدف. نجري أمام المطاعم والمقاهي والبارات حيث يجلس الرجال على مداخلها يحتسون فناجين صغيرة من القهوة التركية وهم يتجادلون في خشونة ويتبادلون النميمة. أخيرًا نصل إلى ميدان المهد. أحني رأسي إلى قرب ساقَيّ لأهدّئ من أنفاسي المتقطّعة.

أقرّر طالما أنّنا وصلنا إلى هنا أنّني أريد القيام بزيارة سريعة لمسجد الخليفة عمر الموجود عند حافّة ميدان المهد.

يعبّر سامي عن شكوكه: «هل تهزلين؟» ويغمغم: «ولماذا؟»

«لن أتأخّر. أعدك.»

نقترب من مدخل المسجد ويحيّينا رجل عجوز يمصّ دخان سيجارته كما يمص الرضيع الحلمة المطاطية. ينظر إلينا من أعلى لأسفل وعلى وجهه ابتسامة بلهاء. يصيح ويهزّ بيده العجوز ذات القشور علبة من الصفيح بها نقود: «أعطوا الزكاة للشهداء!» عندما يضحك تبدو لثّته الحمراء عارية أمامنا. من الواضح أنّ عقله ليس سليمًا.

يصيح ويهزّ علبته: «أعطوا الزكاة لمن يقاتلون الإسرائيليين.»

أتجاهله وأحوّل عينَيّ بعيدًا عن عينَيه وأعدو سريعًا. أخلع حذاءَيّ وأضعهما في رفّ الأحذية. سامي يدخل متردّدًا إلى المسجد ويقبّل صليبه ويتمتم: «يا ربّ اغفر لي.» يخلع حذاءَيه وينظر إلى قدمَيه. يعلن: «وجدت ثقبًا!» ويقرّب قدمه من وجهه. «قدمي نتنة الرائحة. سوف تقتلني عمتو كريستينا لو عرفت أنّني، دونًا عن جميع الأماكن، دخلت مسجدًا بجوارب نتنة الرائحة فيها ثقب!»

أجذب وشاحًا من رفّ للملابس وأغطّي به شعري. نختار زاوية في المسجد لكي نتجنّب نظرات مجموعة من الرجال جالسين في حلقة.

أنحني على السجّادة وأرفع راحتَيّ أمام وجهي وأدعو. يا ربّ احفظها لنا. يا ربّ احفظ لها حياتها. يا ربّ ساعدنا عند نقاط التفتيش.

يتمتم سامي: «لن تكون عمتو كريستينا سعيدة إذا عرفت أنّني كنت هنا. انتظري لحظة فأنا أريد الذهاب إلى الحمام... سأعود.» يفتح الباب ويمضي.

بعد عدّة لحظات تجلس بجانبي فتاة ترتدي حجابًا أخضر اللون. أستدير لأنظر إليها وكلّي فضول لأن أعرف لماذا اختارت الجلوس بجواري بينما المسجد كله متاح لها. أرى سامي ضاحكًا لي وأسنانه البيضاء تلمع تحت ضوء مصابيح المسجد وهو يضع الحجاب الأخضر. يحرّك رموشه لي وهو يتصنّع ضحكة هستيرية.

أهمس: «أنت مجنون؟»

يهمس: «لا. فقط أردت أن أرى إن كان أحد سيلاحظ.»

«أنت أقبح فتاة رأيتها. احمد الله أن جعلك ولدًا. أنا لم أدرك إلا الآن فقط كم أنّ منخريك كبيران. وحاجبيك! إنّهما واحد فقط.»

«هل كان الأمر كذلك دائمًا؟»

«منذ أن وعيتُ وهما يدفئان أعلى أنفك. تعال. هيا بنا نرحل. لقد انتهيت ممّا أريد.»

أجذب ذراعه وأقوده للخارج بعيدًا عن العيون الفضولية للرجال الجالسين في الحلقة والذين تنمّ همهماتهم عن أنّهم يستمتعون بالنميمة وليس بدرس ديني.

ألاحظ عند خروجنا من المسجد ولدًا صغيرًا يبدو في نفس عمرنا يتحدّث إلى رجل عجوز. عندما يرانا العجوز يهمس في أذن الولد شيئًا فيجري الولد وراءنا ليقطع علينا الطريق. يتدلّى من ذراعه كيس من البلاستيك به مناديل ورقية. شعره أشعث ومترب، وكعبا رجلَيه متشقّقان، وملابسه ممزّقة وأكبر بكثير من مقاسه.

يسأل: «مناديل ورقية؟ ربّنا يطيل عمركما.»

يقول سامي وإن كان دون حمية: «اذهب بعيدًا.» هذا هو الردّ المعتاد على باعة الشوارع الذين لا يكفّون عن المساومة، لكنّ الولد لا يتزحزح البتّة. «هل نبدو كسيّاح؟ دعنا وشأننا. وراءنا عمل هامّ.»

تتّقد عينا الولد. «عمي يظنّكم مثار شكّ.»

يقول سامي: «هذا المجنون عمّك؟»

«نعم. إذن ما هو العمل الهامّ؟» يلعق شفتيه توقّعًا لردّ سامي.

يردّ سامي متكلّفًا الأهمّية: «نحن في مهمّة خاصّة.»

يقول الولد في رجاء: «أخبرني.» ثمّ ينظر إليّ. أنا ألفّ ضفيرتي على إصبعي وأفكّر في أنّ جلده شديد القذارة.

أسأله: «من أين أنت؟» نبدأ في السير فيتبعنا.

«عمّي وأنا من مخيّم عايدة. هل أنتما من هناك أيضًا؟»

أصيح غاضبة: «بالطبع لا.» أنا لا أحبّ أن يعرف أحد أنّ ماما ولدت في مخيم للّاجئين وأنّها عاشت فيه حتّى تزوّجت. هذا الولد، المهلهل الثياب المتضوّر جوعًا، تجعلني رؤيته أشعر بالغضب لسبب ما. أسأله مؤنّبةً: «لماذا لا تغتسل؟ أنا متأكّدة أنّه يوجد صابون في المخيّم. رائحتك كريهة وملابسك قذرة.»

يهزّ الولد كتفَيه: «أخبريني عن المهمّة. لقد سئمت.»

أقول وأنا أحرّك يدي في الهواء كما لو أنّني أهشّ ذبابة: «اذهب بعيدًا. ليس لدينا وقت لك.»

«لماذا وجهك هكذا؟ ماذا حدث لك؟ هل تتألّمين؟»

أنظر حولي بسرعة وأحدّق فيه: «اسكت. دعني وشأني أيّها اللاجئ القذر النتن!»

فجأة تغرورق عيناه. يطأطئ كما لو كان سيربط رباط حذائه. لكنّ حذاءه بلا رباط. في تلك اللحظة أشعر بالعار يغمر جسدي بقوّةٍ تكاد تجعلني أتهاوى. كيف يتأتّى أن يحتاج شخص ما إلى أن يحمي كرامته واحترامه لذاته منّي أنا! أنا التي تحمّلت ما تحمّلت من عذاب في المدرسة. أنا التي شعرت بالحرج في كلّ مرّة كنت أنظر فيها لصورتي في المرآة. أجد نفسي أبتاع كل حقيبة مناديله.

يسأل سامي وهو يراني أدسّ المناديل في حقيبة ظهري: «ماذا سنفعل بكلّ هذه المناديل؟»

أتمتم: «ليست المسألة هي ماذا نفعل بالمناديل.»

يقول الولد بتفكير: «رأيت حلقة عن الرجل العنكبوت يقوم فيها بإنقاذ شخص يحاول أن يتسلّق مبنى باستخدام ملاءات السرير المربوطة ببعضها البعض.»

يثير اهتمام سامي.

«تخيّل لو أنّك ربطت المناديل الورقية سويًّا وتسلّقت بها جدران المدينة القديمة.»

يقول سامي ضاحكًا: «وتخيّل أنّ الجنود رأونا نفعل ذلك، أعتقد أنّهم سيتركوننا مكافأة على عبقريّتنا الخالصة.»

«المنديل الورقي يتمزّق بقليل من المخاط وأنتما الاثنان تظنّان أنّه سيتحمّل أوزان أجسادنا؟»

يقول سامي: «هذه هي المرأة العملية لهذا اليوم.»

أقول: «تعال، دعنا نتحرّك في طريقنا. إذا سكتّما سوف أريكما الطيّارة الورقية التي حشوتها في حقيبتي. سوف نجعل الرجل العنكبوت يمسكها لنا فوق الجدار العازل بينما نتعلّق أنت وأنا يا سامي في أشرطتها. ياللا بنا الآن. يجب أن نجد طريقنا إلى القدس.»



الولد القذر من مخيّم عايدة الذي لم تتبقّ له مناديل ورقية ليبيعها اسمه وسيم. تركناه يسير معنا لأنّه ضُمّ إلى فريق كرة قدم ترعاه الأمم المتّحدة لكي يلعب في الدورات الدولية. انبهر سامي فورًا. لا أعرف إن كان يريد أن يحتضن وسيم أو يضربه.

يقول سامي وصوته يقطر حسدًا: «ولماذا أنت؟ كيف تمّ اختيارك؟ أعني أنّك لاجئ.»

يبتسم وسيم: «هذه هي المسألة يا زلمة.» لا أستطيع إلا أن أقهقه ضاحكة. «زلمة» تعني «رجل» إلا أنّ كبار السنّ فقط هم الذين

يقولون هذه الأشياء. وهي تبدو مضحكة عندما تخرج من فم وسيم.
«لأنّني لاجئ فقد أشفقوا عليّ. سوف يتمّ تدريبي تدريبًا صحيحًا! سوف أرتدي حذاء كرة القدم وتيشرت وواقي الركب!»

«واقي الركب!» تتّسع عينا سامي لتصبحا في حجم الإناء الذي تقدّم ماما فيه المنسف. «هه! كذّاب.»

«أقسم بالله يا زلمة. والمدرّب من إنجلترا ولهجته سليمة وكلّه تمام.»

«إنجليزي؟»

«يا زلمة، المدرّب يشرب الشاي أكثر ممّا نشرب!»

«كفّ عن الكذب!»

«أُقسم بقبر أمّي. جاء الأجانب إلى مخيّم عايدة بغرض مساعدة الأطفال. فلمّا رأونا نحبّ أن نلعب كرة القدم قرّروا رعاية فريق. هذا جزء لا يذكر من ميزانيّتهم. وأقسم بالله أنّني أفضل لعب كرة القدم على الأكل. إذن أنت تريد أن تلعب؟ تتدرّب معي؟ يمكننا التدريب كلّ أسبوع، أو حتّى كلّ يوم.»

ارتفع وسيم إلى مرتبة البطل. أضجرني الاثنان بكلامهما الفارغ عن الرياضة. ظللت أنفخ وأتململ لكنّهما كانا في عالم آخر.

أسأل وقد قبلت الهزيمة أخيرًا: «أين ستلعب؟»

يقفز وسيم إلى أعلى وهو يلكم الهواء: «في إيطاليا!»

من الواضح أنّ سامي مكتئب، فهو يقف، ثمّ يجرّ قدمَيه جرًّا، ثمّ يقف ثانية. يمسك بذراع وسيم: «حسنًا، ألا تستطيع... تطلب منهم أن يدعوني ألعب أيضًا؟ أنا ممتاز يا حياة، قولي له كم أنا ممتاز. قولي له. هيّا. قولي له.»

أقول: «هو فظيع.» في جزء من الثانية أدرك أنّني إذا لم أصحّح

كلامي فسيموت سامي. تغيّر لونه ويبدو أنّ الأكسيجين لا يصل إلى رئتَيه.

أصيح: «أنا أهذر فقط!» يتحوّل سامي من لون الفانيليا الفاتح إلى التورّد ثانية.

يقول وسيم بصوت ممتلئ بالشعور بالأهمّية: «سأرى ما يمكن عمله.» يعتدل بظهره في كبرياء: «ربّما يجب أن تتدرّب معي لفترة.»

«ماذا عن المدرّب؟»

«يمكننا أن نلعب سويًّا ثمّ أخبره عنك.»

«كيف يبدو؟»

«أنا لاعبه المفضل، لذا فأنا متأكّد أنّه سيستمع لرأيي. أنا حارس المرمى وأنا ممتاز! هذا ما يقوله المدرّب نفسه.»

يردّ سامي: «أظنّك قلت إنّه إنجليزي؟ كيف يقول ممتاز بينما هو إنجليزي يشرب الشاي؟» يعقد سامي ذراعيه على صدره ويقطّب في شكّ ناظرًا إلى وسيم.

لا يضطرب وسيم. «هم يتعلّمون هذه الكلمات بسرعة يا زلمة. علي، وهو أحد الأعضاء الآخرين في الفريق، علّم المدرّب كلمة حمار.»

أسأل وأنا أعقد ذراعَيّ على صدري أيضًا: «ولماذا يكون معكم حمار في الفريق الذي سيذهب إلى إيطاليا؟» يدقّ وسيم على جبهته وقد نفد صبره. «أوف! أنتما الاثنان سترسلانني إلى قبري مبكرًا بأسئلتكما هذه. لا يمكن أن يكون كلّ واحد منّا «ممتاز» كلّ الوقت. من الطبيعي أن يكون هناك «حمار» من فترة لأخرى. المسألة هي أن لدَيّ بعض النفوذ مع المدرّب لأقنعه بضمّ سامي.»

يفتح سامي ذراعَيه ويقفز في الهواء. «أنا سأذهب إلى إيطاليا!»

يقول وسيم وكأنّه يعيد التفكير: «عندي نفوذ لأنّني ممتاز.»
أقول: «ولكنّك قصير القامة.»
«قد أبدو كذلك. هذا صحيح يا زلمة. لكنّني سريع.»
«أنا لست زلمة.»
«يا ستّي.»
«ولا أنا جدّة.»
«يا أختي.»
«ولا أنا أختك.»
«أنت أختي بالروح، وإذا لم تدعيني أكمل فسأصاب بحصوة في الكلى.»
«إذن أكمل يا زلمة.»
يتوقّف وينظر إليّ في عينَيّ محاولًا أن يقرّر كيف يردّ على تعليقي. ثمّ يضحك. «هذه الأرجل خفيفة ويمكنها الجري في دوائر حول المرمى! أنا أفهمك. تظنين أنّني ضئيل لا أستطيع إيقاف الكرة. هل تظنّين أنّني أبالغ؟» أومئ برأسي فيشير لي أن أسكت ويكمل. «صدّقيني، أنا واحد من أفضل اللاعبين في فريقنا. المدرّب مبهور بمهارتي. سألني إن كان لعائلتي تاريخ في كرة القدم فأخبرته أنّني الأوّل. هو يعتقد أنّني موهوب. لذا سأتحدّث معه وسأخبره عنك يا سامي. لكن علينا أن نلعب بشكل منتظم.»
يضيء وجه سامي.
أقول عندما نمرّ أمام صف من المحلات وتمتلئ أنوفنا بروائح مختلطة للّحوم المتبّلة والدجاج والفلافل: «أنا جائعة.» الوقت الآن حوالي التاسعة صباحًا، وقد مرّت ساعة منذ تركنا البيت ومع ذلك أشعر أنّني قد سرت حتّى الأردن وليس حتّى منتصف بيت لحم.

يقول سامي: «وأنا أيضًا.»

يقول وسيم: «أنا جائع جدًّا. لقد لعبت هذا الصباح قبل أن أذهب إلى العمل.»

أضرب بيدي في الهواء وأحتجّ: «كفى حديثًا عن كرة القدم.»

يضع سامي ذراعه على كتفيّ وسيم ويبتسم. «هي غيورة فقط.»

بحركة خاطفة أقرص سامي في ذراعه فيتأوّه. «أهكذا تخون الصديق الوحيد لك!»

أفتح حقيبة ظهري وأخرج بعض الفاكهة وشطائر الخبز العربي باللبنة. «صنعت مزيدًا من الطعام إذا كنّا سنسلك الطرق الخلفية، ولكن لا يجب أن نأكله كلّه وإلا لن يتبقّى شيء نأكله آخر النهار.»

يقول وسيم: «احتفظا بالشطائر. سأشتري بعضًا من رقائق البطاطس من ذلك المحلّ.»

«من أين لك؟» فجأة أشعر بالخجل وأضع يدي على فمي.

«من النقود التي أعطيتني إيّاها للمناديل الورقية.»

«كلا، احتفظ بها. هذه نقودك.»

يهزّ وسيم رأسه احتجاجًا ويقول في كبرياء: «هذه مجرّد مصروف للجيب وأنا لا أحتاجها.»

لا بدّ أنّه يرى نظرات الشكّ في عيوننا لأنّه يحاول أن يؤكّد لنا أنّه يبيع المناديل فقط حتّى يمكنه أن يدّخر نقودًا لينفقها في إيطاليا.

«أريد أن أعود ومعي هدايا لعائلتي. هل تعرفين أنّ لديهم برجًا مائلًا وهو من الآثار المشهورة؟»

«مائلًا؟ في أوروبا؟» يصعب عليّ تصديق ذلك.

«نعم. مائل. والناس تلتقط له الصور وتظنّه أعجوبة. لماذا لا

يأتون لمخيّم عايدة؟ سيجدون جميع المباني فيه مائلة.»

يجري ناحية المحلّ ليحضر لنا ثلاثة أنواع من أكياس رقائق البطاطس كلّ منها بطعم مختلف لنتشارك فيها. فجأة أشعر بالإثارة بسبب علبة الحمّص الفارغة في حقيبتي.

* * *

وسيم يعرف كيف يدخل إلى القدس لأنّ أباه يعمل بشكل غير قانوني هناك ويحاول الدخول يوميًّا دون أن يُقبض عليه. ولذا يرسم وسيم لنا خريطة للطريق الذي سنسلكه. عندما ينتهي، أشعر بموجة من الشكّ تغمرني. ربّما أنا ساذجة لأظنّ أنّنا يمكن أن نفعل ذلك. هذه ليست رحلة محدّدة المعالم. قد تستغرق ساعتين أو اليوم كلّه. سوف يكون علينا أن نمرّ بنقاط التفتيش وليس لدينا تصريح بدخول القدس. الناس يُلقَون في السجون بسبب ذلك. وإذا قُبض علينا لسبب ما ولم نوضع في السجن فهناك دائمًا غرامة مالية باهظة سوف يكون من الصعب على ماما وبابا دفعها. دع عنك أنّ قرية ستّي زينب تقع في القدس الغربية أي في الجانب الإسرائيلي. كيف سنجد قريتها؟ هل لا تزال هناك؟ هل يمكننا التنقّل بحرّية دون أن يُقبض علينا؟ أشعر بالغثيان في معدتي.

يشرح وسيم: «الطريق المعتاد للذهاب من بيت لحم إلى القدس كما تعلمان هو الذهاب أوّلًا إلى بيت جالا ومنها مباشرة إلى القدس. لا يستغرق هذا الطريق سوى خمس عشرة أو عشرين دقيقة للوصول طبقًا لنوع بطاقة الهوية المسجّلة لكما. إذا كانت للوالدَين بطاقة زرقاء فأنتم من سكّان القدس ويمكنكم أن تسلكوا هذا الطريق. أمّا إذا كانت خضراء فأنتم من سكّان الضفّة الغربية. وأنا مستعدّ أن أراهن بمركزي في فريق كرة القدم أنّكما من الفريق الأخضر مثلي.»

نومئ في رزانة.

يهزّ كتفَيه: «حسنًا، أنتما اثنان من المجانين. لكن هذا ليس عقبة. إذن فطريق بيت جالا ممنوع عليكما. ولذا هناك طريق آخر ولكنّه عامر بالمخاطر وبالطبع أطول بكثير. أوّلًا، يجب أن تذهبا من بيت لحم إلى بيت ساحور ثمّ إلى دير صلاح ثمّ إلى العابودية.»

أصيح: «أوف! كم يستغرق هذا؟»

«من بيت لحم إلى بيت ساحور عشرون دقيقة سيرًا، وخمس، أو ربما ست، بالسيّارة. من بيت ساحور إلى دير صلاح أربعون دقيقة سيرًا وعشر بالسيّارة. من دير صلاح إلى العابودية عشر دقائق سيرًا واثنتان بالسيّارة - واحد منكما يستطيع أن يجمع هذه الأرقام - وبعد ذلك عليكما المرور في وادي...»

يقاطع سامي وهو يشعر بالسرور لمساهمته: «وادي النار.»

أكرّر وقد ملأني الرعب: «وادي النار؟»

يومئ كلاهما برأسه.

أقول: «أنا أكرهه.» فقد قدنا السيارة فيه من شهور مضت عبر الطريق المتعرج المليء بالصخور والرمال عندما ذهبنا إلى رام الله.

يقول سامي وهو يهزّ كتفَيه: «وماذا في ذلك؟ الجميع يمرّون فيه.»

يقول وسيم: «هذا هو الطريق الوحيد فليس هناك مجال للشكوى. إذا أردتِ تجنّبه بسبب نقاط التفتيش فليس أمامك سوى أن تعبري التلال والجبال سيرًا على الأقدام. أبي يعبر فوق جبل الشيخ سعيد ولكن هذا صعب جدًّا. الجبال منحدرة وصخرية وخطيرة.

«أبي ينام أحيانًا في الكهوف مع العمّال الآخرين الذين لا يستطيعون الحصول على تصاريح للعمل في القدس. يقضون الليل

في الجبال حتّى يمكنهم محاولة دخول القدس في الفجر دون أن يُقبض عليهم. عمّو جمال صديق أبي أصيب ذات مرّة بطلق ناري في الفخذ. الجنود لديهم أجهزة رادار خاصّة. يمكنهم اكتشاف أيّ شيء بواسطة التكنولوجيا المتاحة لهم. أيّ شيء.»

سامي يشكّ كالمعتاد. «أيّ شيء؟»

يبدو وسيم مستاء. «أبي وأصدقاؤه يقولون إنّ الرادار يستطيع أن يميّز الفأر عن الإنسان. نعم. أيّ شيء.»

«هل يمكنهم تمييز الإنسان الذي يجلس ساكنًا تمامًا عن صخرة كبيرة؟»

«نعم.»

«بنطلون جينز مطويّ تحت شجرة عن سحلية نائمة؟»

«نعم.»

«هل يمكنهم اكتشاف شخص يرتدي زيًّا أسود في منتصف الليل؟»

«نعم.»

«انتظر. أنا لم أنته بعد. وهذا الشخص متكوّر على شكل كرة وساكن تمامًا... ما عدا أنّه يحرّك أصابع قدميه؟»

يتوقّف وسيم للحظة، وأميل أنا إلى الأمام لأراقبه عن قرب. يقول متفكّرًا: «أعتقد أنّ هذا يعتمد على حجم الأصابع. إذا كان الشخص صغيرًا وأصابعه صغيرة فربّما تسنح له الفرصة. لكن لو كانت كبيرة كأصابع قدمي أبي فقد يمكن اكتشافها بسهولة!»

أضيف وأنا أفكّر في أصابع قدم بابا: «خصوصًا إن كانت كثيرة الشعر.»

يقول وسيم: «وبالمناسبة، هناك حيوانات برّية أيضًا.»

يقول سامي: «وبالطبع أصابع أقدامها كثيرة الشعر.»

«لا. ما أعنيه هو أنّ الجبال فيها حيوانات برّية. أبي وأصدقاؤه يجدونها طول الوقت.»

أصابُ بالرعب: «أي نوع من الحيوانات؟»

«ثعابين، ضباع، كلاب برّية، وسحالي كبيرة.»

ليس أمامي خيار آخر. سنسلك وادي النار.

يواصل وسيم: «على أيّة حال، فبعد عبور الوادي، ستمرّان بثلاث قرى: السواحرة وبعدها أبو ديس وأخيرًا العيزرية. ستجدان نقطة التفتيش قبل أن تدخلا المدينة القديمة وسوف يقوم جنديّ بفحص أوراقكما. ولأنّكما من الضفّة الغربية فلن يسمح لكما بالمرور أبدًا. لكن هذه مجرّد تفاصيل.»

يقول سامي لي وهو يمدّ ذقنه للأمام في شجاعة: «حتّى لو أردتِ أنتِ العودة فسأستكمل أنا المسيرة. هل تتخيّلين ماذا سيقول الجميع في المدرسة عندما نقول لهم إنّنا تسلّلنا إلى القدس؟ هذا سيلقّن خاطر درسًا لأنّه يظنّ نفسه أفضل منّا بكثير.»

«مم.» أغمغم وأنا أفكّر في وجه ستّي زينب بكلّ ما فيه من تجاعيد وعيون لامعة. أنظر إلى التلال وفجأة تقفز في خاطري إحدى ذكريات ستّي زينب عندما حكت لي كيف التقت بجدّي وكيف تمّ زفافها في القدس.

في إحدى الليالي استيقظتُ من كابوس آخر فأخذتْ تشرح لي: «كنت أعيش مع والدَيّ وأختي في قرية على قمّة تلّ في القدس. للوصول إلى البيت كان يجب أن نتسلّق سلّمًا حجريًّا شديد الميل، له ستّ وتسعون درجة. أنا أعرف ذلك لأنّني عددتها مع أختي مرّات عديدة. كانت أختي تكبرني سنًّا ولكنّها لم تكن قد تزوّجت.

جدّك رأى صورة لها فأعجبه ما رأى. لكنّ الصورة كانت قد التُقطت وهي في الثامنة عشرة. بارك الله الصور، فلم تكن عدسة التصوير ذات تركيز حادّ. ولم تكن أختي جميلة مثلي. لا أقولها من باب الغرور، ولكن هذا هو الواقع. كلّما جاءها خاطب يقول لي أبواي أن أبقى في غرفتي لأنّ الخاطب عندما يراني سينسى أختي. لسوء الحظّ كان على خدها شامة كبيرة ينبت منها شعر كثيف حتى ليمكن استخدامه كحبل. أنفها كالبصلة، وشفتاها رفيعتان، وجسدها ممتلئ. لكنّ قلبها كان طيّبًا وكانت دائمًا تُضحكني.

«تسلّق جدّك هذه الدرجات حاملًا جدّته على ظهره، وفي جيبه الصورة.»

«جدّته على ظهره؟»

«نعم. كانت ضئيلة وعجوزًا ولسانها حادّ وساقاها معوجّتان، ولكنّها تريد أن ترى العروس قبل أن توافق عليها. لذلك ربطها على ظهره وصعد بها السلّم الحجري. عندما وصل ودقّ الباب كان يتنفّس بالكاد.»

«لا بدّ أنّه كان على وشك الموت.»

«كلا. أعني أنّه كان منهَكًا. مقطوع الأنفاس. وقال إنّ جدّته لم تكفّ عن الشكوى طوال الصعود.

«عندما وصلا، فتح أبي الباب.» عند هذه النقطة أخذت ستّي زينب تحاول كتم ضحكاتها. «جدّك وأبي تبادلا كلمات المجاملة المعتادة ثمّ أخرج جدّك الصورة. أبي كان مسرورًا أن جاءه خاطب لابنته الكبرى! ناداها لتحضر إلى الغرفة. عندما ظهرت تحيّر جدّك. سأل «أين الفتاة التي في الصورة؟» قالت أختي «ها أنذا.» ازدادت حيرته وغمغم 'ليس لنا قسمة ونصيب في بعضنا'. هزّت أختي

كتفَيها ومضت. لا أحد يستطيع أن يجادل في القسمة والنصيب. عندما قام جدّك لينصرف استدارت جدّته إلى أبي وقالت: «هل لديك بنات أخريات يمكننا أن نراهنّ بعد أن جئنا كلّ هذه المسافة؟»

«لم يشأ أبي أن يجرح شعور أختي بدعوتي إلى الغرفة. لكنّني سمعت كلّ ما حدث، وعلى أيّة حال فقد دخلتُ. عندما رأيت جدّك أصابني الخرس. كان وسيماً وخجولًا. التقت عيوننا فأدار عينَيه بعيدًا من الحرج، لكنّني أحسست بسعادته. لقد كنت فاتنة يا حياة. أيّامها كان ظهري مستقيماً لم ينحن كما هو الآن. كان جلدي ناعماً كالمناديل الورقية. وفي خلال ستّة أشهر تزوّجنا.»

«وماذا عن أختك؟»

«تزوّجت رجلًا أُعجب باستدارتها واستمتع بضحكاتها. كان يرتدي نظّارات سميكة ولذا لا أظنّه لاحظ حجم الشامة. القسمة والنصيب. هذا هو ما نحصل عليه في النهاية. ولقد غنّت لنا كلّ تلال القدس في أيّام زفافنا.»

أنظر إلى الطبيعة من حولي. أريد أن أصعد تلك السلالم الحجرية. وألمس التلال التي رقصت عليها ستّي زينب وأختها في أيّام زفافها. أريد أن أمزّق أوراقنا وبطاقات هويّتنا إلى مليون قطعة صغيرة وأنثرها في الريح حتّى تلمس كلّ قطعة في جسدي وطني بحرّية.

أتجاهل إحساس الخوف الذي يستقرّ في جزء من معدتي. سوف أفعل هذا.

٩

نقف في موقف سيّارات الأجرة والحافلات مع حشد من الناس بجوار محلّ للآيس كريم. الوحيدون داخل المحلّ هم مجموعة من السيّاح يتكلّمون بلهجاتهم العجيبة ويحملون آلات تصوير، يحتشدون عند آلة دفع النقود بينما تضيء بشرة صاحب المحلّ الكالحة وهو ينشط في أخذ طلباتهم.

أقول: «انظر يا سامي، تيشرت هذا السائح. مكتوب عليه «كنت في القدس».» أتذمّر: «إنّه يعيش أقرب إلى القدس منّا.»

«أنا مستعدّ أن أدفع أيّ شيء في سبيل تيشرت كهذا! عندما نعود نستطيع أن ندخل المدرسة ونحن نرتديه! خاطر ستصيبه نوبة.»

«خاطر... خاطر... انسه.»

«هل تعرفين ما قال من قبل؟ قال إنّه من المحتمل أنّ أبي سلّم نفسه للشرطة لأنّه لا يريد أن يعتني بي!»

«بالطبع لم يفعل ذلك! ماذا؟ هكذا دون إنذار مسبق؟»

يبتسم سامي بابتسامة فيها خوف. «حسنًا. لقد أغظته بسبب تسريحة شعره الجديدة. كان يبدو فيها مخنّثا. أوه، لقد رسب في امتحان التاريخ، ولذا فقد أغظته بسبب هذا أيضًا.»

أقول في لهجة مؤنّبة: «سامي! أظنّك رسبت في هذا الامتحان أيضًا.»

يهزّ كتفَيه: «وماذا في ذلك؟ الفرق هو أنّني لا أهتمّ. هو يهتمّ.»

أدفع الهواء بيدَيّ وأتلفّت بعينَيّ.

ننتظر حافلة تقلّنا من تلك الحافلات الصغيرة التي تنقل الركّاب فيما بين المدن والقرى. يلكزني سامي في جانبي ثمّ يشير إلى رجُلَين يقفان أمام سيّارة أجرة ويصيحان في بعضهما البعض، ويلوّحان بأيديهما وأذرعهما كما لو كانت تبحث لها عن مكان في الهواء. يدور جدالهما عن الأجرة. أتعجّب من شدّة غضبهما. يبدو الرجل الذي على اليمين منهمكًا بكلّ جسده في الجدال الدائر بينما الرجل الذي على اليسار يكتفي بالإيماء بقوّة، وهو يبدو، على عكس السائق، وكأنّه قد خرج لتوّه من إحدى المجلات، فهو يرتدي بذلة أنيقة بلون الفحم، ونظّارات سوداء بإطار ذهبي، وحذاء أسود، وربطة عنق رمادية. يصيح: «يا زلمة، أنا أدفع دائما ١٤ شيكل لأذهب إلى رام الله وأنت تريدني أن أدفع الضعف؟ ما الذي جرى لنا؟ الآن أصابتنا لعنة الجشع!»

يستشيط السائق غضبًا: «أتقول إنّني جشع؟ قلت لك إنّ هناك إشاعات عن نقاط تفتيش إضافية اليوم. لذا فهناك مشاكل علاوة

على الأجرة. من حقّ الإنسان أن يحصل على زيادة مقابل جهده. ألا تظنّ ذلك؟»

يهزّ الرجل ذو البذلة رأسه بعنف ويرفع عينَيه إلى السماء. «يا عذراء! يا مريم العذراء! خذ النقود. أوف!» ويلقي بالنقود في يد السائق ويقفز في المقعد الخلفي للسيارة.

يتنهّد السائق ويستدير ليفتح الباب الأمامي. سامي يَجْري ناحيته ويصيح: «انتظر!»

«ماذا تريد؟»

وسيم وأنا نَجْري خلف سامي.

يسأل سامي: «ما نوع المشاكل؟»

ينظر إليه السائق مشدوهًا.

يعيد سامي: «المشاكل! أنت قلت إنّ هناك مشاكل.»

يحدّق فينا السائق. «ماذا حدث لوجهكِ؟»

أرفع يدي وألمس وجهي وأنظر إلى أسفل في خجل.

يتمتم سامي: «أنا الذي أكلّمك.»

«إه. يا لك من وقح. أين أخلاقك؟»

أخطو إلى أمام سامي وأقول بشكل ينمّ عن الأسف: «من فضلك يا عمّو.»

«كفاني ما رأيت اليوم. هل يمكننا الذهاب الآن إلى العيزرية؟»

«أبو عزّام سيعود بسيّارته بعد عشر دقائق تقريبًا. يمكنه أن يأخذكم عندئذٍ. والآن اتركوني حتّى أذهب بهذا الرجل ذي البذلة المكوية قبل أن أفقد الأجرة.» ينظر السائق إلى سامي ويهزّ إصبعه: «يا بو لسان طويل. لو كنت ابني...» يحدّق فيه سامي متحدّيًا فيقذف السائق يديه في الهواء ويركب سيّارته.

نقف وسط الباعة الذين يبيعون الخضر والخبز والقهوة، والعمّال الذين يفرّغون شاحنات البضائع، والمارّة، والمتسوّقين. كلّما مرّت أمامنا سيّارة تهبّ علينا أنغام موسيقى البوب العربية مختلطة بدقّات أجراس الكنائس وتلاوة القرآن المنبعثة من أجهزة الصوت المجسّم الموضوعة أمام أبواب المحلات. كلّما تصل حافلة إلى الموقف نستفسر عن اسم سائقها. أبو عزّام يصل بعد عشرين دقيقة.

هو رجل سمين. حزامه مشدود أسفل كرشه المنتفخ، وفي فمه سيجارة متدلّية، وخلف كلّ أذن من أذنَيه سيجارة أخرى. يبدو المنظر لافتًا، فأرسم في خيالي صورة لي أنصح فيها ماما بأن تضع سيجارة خلف أذنها في البيت أيضًا. ينادي أبو عزّام: «القدس! القدس!» كما ينادي باعة الخضراوات في السوق عمّا لديهم من خضراوات.

نندفع، سامي وأنا، إلى الحافلة قائلَين: «خذنا معك.» ونُخرج ما في حوزتنا من نقود. «يمكنك أن تأخذنا إلى العيزرية؟ أليس كذلك؟ بطاقتك زرقاء!»

«نعم! هيا اركبوا الحافلة!»

نلتفت إلى وسيم الذي يقف معنا عند نهاية باب السيّارة فيقول: «سيقتلني أبي لو ذهبت معكما، ولذا لا أستطيع الذهاب.»

أواسيه قائلة بأنّه لاعب كرة ممتاز.

رغم أنّني أصبحت أميل إلى وسيم هذا منذ أخذت منه المناديل الورقية إلا أنّني لم أكن راغبة في إقناعه بمصاحبتنا، فالاستماع إليه يتحدّث مع سامي عن كرة القدم يجعلني أقشعرّ.

يضيف سامي في انفعال: «وإيطاليا! سوف تصبح نجمًا وسوف نقول إنّنا عرفناك. لا تنسَ الورقة التي أعطيتها لك. بياناتي كلّها

فيها، فمن فضلك تكلّم عنّي مع مدرّبك الإنجليزي. وعندئذٍ يمكننا أن نلعب سويًّا ونصبح أصدقاء.»

يضيء وجه وسيم.

يرتّبان كي يلتقيا في اليوم التالي، ويجعل سامي وسيمًا يعده بإحضار المدرّب الإنجليزي. «لن أدعك تهرب. لقد حفظت عنوانك عن ظهر قلب.» هكذا يقول سامي، فينظر إليه وسيم وفي عينَيه نظرة ملؤها الإعزاز والسرور.

نتبادل كلمات الوداع ونركب الحافلة.

فتاتان في سنّ طالبات الجامعة تجلسان في المقعد الأمامي للحافلة تمسك كلّ منهما بحقيبة مكتظّة بالكتب الدراسية. لكلّ منهما شعر طويل متموّج مربوط على شكل ذيل الحصان، وعلى جانبه شرّابة من الشعر المرشوش. هما منهمكتان في الحديث سويًّا ورأساهما متقاربان لدرجة تجعلني لا أميّز أين يبدأ كلّ ذيل حصان وأين ينتهي.

«لقد قال لي أهلًا وأُقسم بأنّه غمز بعينه.»

«كلا لم يفعل!»

«نعم، غمز لي وقال أهلًا، وأقول لك إنّني وقعت في الحبّ!»

سامي وأنا نتبادل التكشير متقزّزَين. خلف الفتاتَين رجل يرتدي بذلة لونها كحلي وعلى حجره حقيبة مفتوحة لآخرها. على الجانب المفتوح للحقيبة مفكّرة بها كتابة تملأ الصفحة. بجواره بدوي عجوز يحمل قفصًا من الخضراوات (طماطم وخسّ على وجه الدقّة). ليس له أسنان. منظره يثير الخوف. بجواره تجلس امرأة يتدلّى صليب كبير من رقبتها التي تبدو كحفرية. تذكّرني بستّي زينب لأنّنا حينما نمرّ بها ونحن نتّجه إلى المقاعد الخلفية فإنّها تبدأ في الدعاء بصوت أجشّ لنا ولكلّ أطفال فلسطين. تقول منتحبة،

دون أن توجّه كلامها لأحد على وجه الخصوص، إنّها تأمل في زيارة ابنتها وأحفادها في «أبو ديس»، فهي لم تزرهم منذ زمن. أكاد أشعر بالتوتّر المكتوم في جسدها الضئيل وفي عينَيها اللتين ترشقان أرجاء الحافلة بنظرات قلقة.

نجلس في خلف الحافلة ساكنَين قدر الإمكان كي لا نُلاحَظ. يغمرنا القلق لأنّ أبا عزّام يُصرّ على الانتظار حتّى يمتلئ المقعد الأخير في الحافلة قبل التحرّك.

تمرّ عشرون دقيقة ولا حركة. يتململ بعض الركّاب. يصيح الراكب ذو الحقيبة في أبي عزام أن يدير المحرّك ويمضي بالحافلة.

يردّ أبو عزام: «ليس بعد. أنا محتاج لراكب آخر.»

«يا زلمة! لدينا مواعيد نريد أن نلحقها، ولا نحتاج إلى تأخير أكثر بسببك كما لو كنّا لن نجد عقبات أخرى في الطريق.»

اشتكت إحدى الفتاتَين: «سأتأخّر عن محاضرتي.»

يقفز أبو عزّام من مقعده، ويتبعه على الفور كرشه المهول، ليقف بجوار الباب، وينفخ دخان سيجارته التي يمسكها بإحدى يدَيه بينما اليد الأخرى تداعب السيجارة الموجودة خلف أذنه اليمنى.

يقول: «الصبر مفتاح الفرج.»

«الصبر! هذه تجربة تستحقّ المراقبة.»

يهزّ أبو عزّام كتفَيه ويواصل التدخين.

بعد عشر دقائق أخرى ينفجر الرجل ذو الحقيبة غضبًا. يقف ويجمع متعلّقاته ويندفع كالعاصفة خارجًا من الحافلة. «سأسيرها مشيًا وربّما أسبقك!»

يقول أبو عزّام في صوت هادئ ولكنّه مستفِزّ: «الله معك يا أخي.»

يضحك أبو عزّام: «من يريد أن يراهنني أنّنا سنلحق به في طريقنا؟»

تقول المرأة العجوز: «القمار رجس من عمل الشيطان.» ينفجر أبو عزّام في نوبة من الضحك.

«يا ستّي كلّنا خطأة والله غفور.»

في النهاية تقترب امرأة تحمل رضيعًا من مقدّمة الحافلة. تسلّم أبا عزّام الأجرة فيتقبّلها بسعادة. يكوّم نفسه في مقعد السائق ويضبط مسجّل الصوت. يتردّد صوت نانسي عجرم في سمّاعات الحافلة فتتمايل الفتيات الثلاث في طرب ويغنّين مع الموسيقى. ترفع المرأة رضيعها أمام وجهها وتبدأ في الغناء له ووجهها يتورّد بالسعادة عندما يناغيها الرضيع ويبتسم لها.

يصرخ الرجل العجوز قلقًا: «لا تقل لي إنّك ستنتظر راكبًا آخر.»

«لقد فقدت راكبًا، وأحتاج لآخر.»

«يا زلمة، دعنا ننتهي من هذا!»

«دعنا نذهب!»

«لدينا مواعيد نريد أن نلحقها.»

يرفع أبو عزّام يدَيه في الهواء منهزمًا: «كفى! ياللا. حسنًا سنذهب.»



تكاد الحافلة، وهي تمضي في طريقها إلى بيت ساحور عبر أراض وعرة، أن تدهس عجوزًا يمتطي حمارًا ويرتدي جلابية رماديّة اللون وقد شمّر عن ساقَيه.

يصيح أبو عزّام في غبطة: «بالكاد لم نصدمه!» ويرفع يدَيه خارج النافذة يعتذر للرجل الذي يهزّ قبضته في غضب.

أسأل سامي: «هل تظنّها ستكون بخير؟»

«من؟»

أقول وفي صوتي مسحة من الغضب: «ستّي زينب.»

لا يشفي غليلي: «لا أعرف.»

تستدير لنا أمّ الرضيع وهي تتفرّس في وجهينا.

«هم... ألست ابنة أمّ طارق؟» تقولها مسرورة بنفسها وهي تتصنّع القسوة.

ينتفض قلبي وأنظر إلى سامي في هلع، وأجيب بشكل يثير الشفقة: «أمّ...»

«نعم! نعم، أنا أعرف وجهك. لقد شوّهوه!» ملامح وجهها مفعمة بالرضا لأنّها تعرّفت عليّ. «أمّك وأنا تعوّدنا أن نتطوّع في اتّحاد النساء العربيات. هم... منذ... منذ عام تقريبًا. هل تذكرينني؟ أنا عمتو آمال. ماذا تفعلين في هذه الحافلة؟ ومن الولد الذي معك؟ أخوك كان أصغر منك بكثير إن كنت أتذكّر جيّدًا.»

اتّخذ صوتها النغمة المنفعلة العالية النبرة المستعمَلة في النميمة. أعرف هذه النغمة. عندما تلتقي ماما وصديقاتها ويتناولن الشاي والحلويات فإن أصواتهنّ تتصادم فيما بينها وهنّ يتبادلن الحكايات والإشاعات. ذات مرّة عدت من المدرسة وأخبرت ماما أنّني رأيت دنيا ابنة مدرّس الدبكة وهي تشبك يدها في يد ابن مدرّس العلوم. بعد أن تقصّت منّي عن المزيد من التفاصيل، أنّبتني على نميمتي. «يقول النبي من تحدّث منكم من وراء ظهر أخيه كمن أكل لحمه ميتًا. أنت لا تحبّين أن تأكلي لحم طارق، أليس كذلك؟»

قلت لماما بالطبع إنّني لا أريد، ولكن لأنّها لا يصيبها أذى عندما تأكل لحم عمّو شريف دائمًا (وخصوصًا عندما تزورنا جارتنا وتبدأ النميمة حول الجزّار زير النساء بلال)، فمن المحتمل ألا يصيبني الأذى أيضًا. انفجرت العاصفة. وساعتها رأيت بابا في الخلفية جالسًا في هدوء يقهقه في سرّه. كانت نغمة صوت عمتو

آمال كصوت الصفير الذي يصلنا قبل سقوط القنابل. أعرف أنّنا في مشكلة. نظرت إلى حجري في أسى.

تواصل: «أين تذهبان أنتما الاثنان؟»

بغريزتي الغبية أنكرت. «لسنا ذاهبَين.» أردت أن أمسك كلماتي وأعيدها إلى فمي مرّة أخرى.

تصيح بصوت حادّ: «من ليس ذاهبًا إلى مكان لا يركب الحافلة. ولماذا أنتما وحدكما؟»

كلّ الركاب يحدّقون فينا الآن وهم يرون المشهد يتجلّى. أشعر وكأنّني أصرخ فيهم إن كانوا يريدون شراء وسائد أو بذور القرع العسلي.

يتعثّر صوتي: «إم... إر... مم.» عذري لا يخرج من فمي. أشعر بالدموع تكاد تطفر من عينَيّ.

يقول البدوي العجوز في نغمة متعبة: «يا ستّي ستجعلينها تبكي. دعيهما في حالهما.» ينحني ناحيتي ويقدّم لي حبّة طماطم.

تقول المرأة العجوز ذات الصليب: «باه. ماذا ستفعل بالطماطم يا حاج؟ المرأة على حقّ. فماذا يفعل طفلان وحدهما في حافلة تعبر وادي النار؟»

تكرّر عمتو آمال بصرامة: «لماذا أنتما وحدكما؟» توجّه كلامها للآخرين: «أنا أعرف أمّ هذه البنت، ولو أنّ لديها أيّ فكرة لمرضت من شدّة الفزع.»

يغمغم سامي في ياقته: «هذا شأننا.»

«إه؟ ماذا قلت؟ ألم يعلّمك أهلك الأخلاق الحميدة؟»

يتمتم سامي: «علّموني ألا أتدخّل في شؤون غيري.»

تقف عمتو آمال ثمّ تجلس ثانية وفمها مفتوح على اتّساعه

وعيناها تبرزان من شدّة الغضب. «لم أرَ في حياتي ولدًا يتحدّث لي بهذه الطريقة!» تمدّ يدها في حقيبتها وتُخرج هاتفها المحمول. تتصفّح أرقام الهواتف. «لا بدّ أنّه هنا. أنا متأكّدة أنّه هنا.»

سامي وأنا نتبادل نظرات ملؤها الهلع. فجأة تنحرف الحافلة إلى جانب الطريق ويضغط أبو عزام مكابح القدم.

يصيح: «ألم أقل لكم؟ اللعنة. لماذا لم يراهنني أحد بالنقود؟»

تقول المرأة العجوز دون أن توجه كلامها لشخص ما: «الرهان رجس.»

عمتو آمال تصيح وهي تعبث بهاتفها: «هكذا يردّ على الكبار!»

ننظر جميعًا من النوافذ لنرى الرجل ذا البذلة الكحلية يجلس على حقيبته على جانب الطريق. مرفقاه مستندان على فخذَيه ويداه تغطّيان وجهه. يرفع وجهه ناحيتنا ويبتسم في خوف.

سامي وأنا لا نحتاج إلى أن نتبادل الكلمات. علامتنا هي توقّف الحافلة. عندما ينفتح الباب ليركب الرجل أندفع كالبرق وسامي في أثري.

نجري تجاه بستان الزيتون.

تصيح عمتو آمال: «لا تدعوهما يهربان.»

أنظر من خلف كتفي وأراها تحاول جاهدة أن تخرج من الحافلة فتصطدم بالرجل صاحب الحقيبة الذي ينظر إليها وعلى وجهه تعبير عن الحيرة. البدوي يُخرج رأسه من النافذة يراقبنا ويضحك. أنظر للأمام ونواصل جرينا. صدري يكاد ينفجر من شدّة النهجان. نَجري باتّجاه بستان الزيتون بين صفّين من أشجار الفواكه فنصطدم بالنباتات والفروع الواخزة. نتوقّف عندما ندرك أنّنا ابتعدنا عنهم وأنّه لم يعد بالإمكان رؤيتنا من الطريق. نلقي بأنفسنا على الأرض

على ظهورنا. في كلّ ثانية من كلّ يوم أعتبر أن التنفّس أمر عادي. الآن أشعر أنّ الشهيق والزفير المنتظمَين أمر رائع.

في النهاية عندما يعود جسدانا لطبيعتهما ننهض وننفجر في ضحك هستيري ممسكين بجوانب بطنَينا. عندما تنتهي حمّى الضحك تتفقّد عيوننا الأفق: الحقول الخضراء، وبساتين الزيتون التي تحيط بها الوديان الوارفة، والجبال ذات القمم المتدرّجة. على مسافة قريبة يرعى قطيع من الماعز والغنم. فجأة ينتابني شعور قوي بحبّ وطني، بأشجاره ودغلاته التي تتناثر في الأرض بشكل كسول، بجمال جباله الذي صنع دون مجهود، بالأسرار المطوية في هذه الجبال. ولكن غير ذلك، هناك ذلك الجدار العازل الموجود في كلّ مكان! يتلوّى، ويستدير، ويلتهم الأرض، ويعلو فوق الحقول والقرى والمدن.

أسأل سامي ونحن نسير إلى شجرة ثم نستند إلى جذعها: «إذن أين نحن الآن؟» جذوع أشجار الزيتون تشبه المعاصم الغليظة، لكنّ بعضها نحيل وأنثوي أكثر من غيرها. فروعها تداعب الأرض كشخص يربت بأصابعه على مائدة.

نُقدّر أنّنا عبرنا بيت ساحور وأنّنا الآن بينها وبين دير صلاح التي تبعد أربعين دقيقة سيرًا كما قال وسيم. نقرّر أنّ الخطّة المنطقية هي أن نعود إلى الطريق ونظلّ نتبعه حتّى نصل إلى دير صلاح ومن هناك يمكننا أن نركب حافلة. نحن واثقان أنّنا سنصل إلى دير صلاح بالسير على الطريق.

إحساس جدّ غريب أن نمشي على الطريق الرئيسي بدلًا من ركوب سيارة. حينما كنّا في الحافلة نظرت إلى السطح المترّب، مجرّد امتداد مملّ. أمّا أثناء السير على الأقدام فمشهد الطريق مختلف:

أحجار، صخور، أغصان، حفر، آثار لعجلات السيارات. في خلال لحظات اتّسخت أحذيتنا. كلّ سيّارة أو حافلة تمرّ تقذف علينا سحابة من التراب تجعلنا نعطس وندعك عيوننا.

تفتنني الأحجار والصخور، ربّما لأنّنا متعبان وضجران. ألتقط منها ما يثير اهتمامي وأطلق عليها أسماء. تلك التي لها سطح ناعم وشكل مستطيل أسميها «أبو ياسر»، فهي تذكّرني بطريقة ما بالرجل الأصلع صاحب الرأس الطويلة. تلك الخشنة ذات الشكل الغريب والتي تملؤها حفر وشقوق أسمّيها «سامر» على اسم الولد الذي يسبقنا بسنة دراسية في المدرسة والذي يحكّ بثور وجهه الذي يمتلئ بالحفر.

بينما أفحص حجرًا، يقول سامي بشكل غير متوقَّع: «بعد أسبوعَين ستنقضي سبع سنوات كاملة.»

أتردّد: «كم مضى منذ رأيته لآخر مرة؟»

«ثلاث سنوات.»

«ولماذا كلّ هذه الفترة الطويلة؟»

«لم يعد مسموحًا لنا بالزيارة.»

«هل تكتب له؟»

«أحيانًا.»

أنتظره أن يكمل حديثه، وعندما لا يفعل أقول: «يجب أن ترسل صورًا.»

«عمتو كريستينا ترسلها. لكنّني أفضّل ألا يستلمها.»

«لماذا؟ سيكون ذلك طيّبًا بالنسبة له. يمكنه أن يلصقها على الحائط بجوار سريره.»

«هي تُصرّ على تصويري بالبنطلون والقميص وبشعري مصفّفًا

كالمخنّث. أستطيع أن أتخيّل ماذا يقول السجناء الآخرون له.»

«هل يردّ؟»

«أحيانًا. ومع ذلك قد يضايقني الردّ.»

«لماذا؟»

«حسنًا، عادة يأتي الردّ متأخّرًا، ولذا عندما أقرأه أجد أنّ المناسبة فاتت وأنّني أرسلت إليه عدّة خطابات أخرى منذ تلك المناسبة. في العام الماضي أرسل لي خطابًا في عيد الفصح، لكنّه وصلني بعد شهور وبعد أن فات عيد ميلادي. بالطبع تهنئة عيد الميلاد وصلت متأخّرة جدًّا أيضًا.»

«أوه. أنا أفهم ما تقول.»

نواصل السير في صمت لعدّة لحظات ثمّ أقول: «سامي، أبوك بطل. معتقل كلّ تلك السنوات بدون سبب غير تنظيم الاحتجاجات والإضرابات.»

يقاطعني سريعًا: «قايض بي من أجل القضية.»

أقول له شيئًا لا جدوى منه في محاولة منّي لكي أريحه، لكنّه يتجاهلني. ثمّ يقول: «تخيّلي يا حياة إيطاليا... وفريق كرة قدم حقيقي. رأسي يدور من التفكير في ذلك.»



أخيرًا نصل إلى قرية دير صلاح. ننتظر عند موقف الحافلات متّكئين على حائط بيت مجاور، ومستمتعين بظلّ شجرة مشمش. ينتظر معنا حشد صغير من الناس. يبدو سامي ضجرًا ويحكّ يده في خدّه.

يسألني في صوت كلّه أمل: «هل يبدو لك هذا مثل شعر الذقن؟»

«يبدو وكأنّه تراب من الطريق.»

تنقطع الأحاديث الصغيرة للحشد بأصوات تأتي من الجانب الآخر للمنحدر الترابي المؤدّي إلى محطة الحافلات. في البداية تبدو الأصوات

مبهمة، وببطء ومع اقتراب المسافة تُسمع في الهواء لغة أخرى. يتغيّر السلوك الجماعي للحشد. الأجساد تتصلّب، والآذان تنتصب.

أظنّ أنّ الأشخاص الذين يتكلّمون العبرية هم جنود حضروا ببنادقهم وزيّهم العسكري لإقامة نقطة تفتيش مؤقّتة. النوع الوحيد من الإسرائيليين الذين نعرفهم هم أولئك الذين يعطوننا الأوامر، ويرسمون خريطة حياتنا كلّ يوم، ويتحكّمون في أين نذهب، ومن نرى، ومتى نتحرّك.

الناس الأكبر سنًّا بدأوا يبحثون في جيوبهم وحقائبهم ومحافظهم استعدادًا لتقديم بطاقات هويّتهم. نظرات الإذعان في عيونهم ترعبني. الشباب من المراهقين ومن هم في العشرينيات يقفون ثابتين وعلى وجوههم نظرات التحدّي. يتظاهرون بأنّهم يبدون على راحتهم لكنّني أرى التوتّر في فكوكهم وفي تصلّب ظهورهم.

أنظر إلى سامي، وللحظة يبدو وكأنّني لا أعرفه. في عينَيه نظرة جامدة وفي رقبته عضلات نافرة. أدرك في هذه اللحظة ما معنى أن يكون أبوك حيًّا ومع ذلك تشعر باليتم. لأنّه بينما كان موت أمّ سامي أمرًا لا يمكن دفعه، إلا أنّ حياة أبيه معلّقة في أيدي الجيش الإسرائيلي.

يظهر من على التلّ رجل في منتصف العمر ومعه امرأة لها خصل كثيفة من شعر بنّي تتمايل لأعلى وأسفل مع مشيها. شعر الرجل مرجّل إلى الخلف ومربوط بشريط مطّاطي على هيئة ذيل حصان قصير ذي خصل سوداء. هما لا يرتديان زيًّا عسكريًّا، بل بنطلونات جينز وتيشرتات. بدلًا من البنادق يمسكان زجاجات مياه. أصواتهما عالية وممتلئة حيوية. يتحدّثان العبرية ولكنّ كوفيّاتهما الموضوعة على أكتافهما لها ألوان العلمَين الفلسطيني والإسرائيلي. سامي وأنا نقف في رعب نراقبهما وننتظر أن نرى منهما ماذا سيفعلان.

يقتربان منّا ويبتسمان كأنّما ما يحدث هو المشهد الأكثر طبيعية في العالم. ثمّ يلقيان علينا التحية بلغة عربية صحيحة مقدمين أنفسهما كدافيد وموللي. عينا موللي منكسرتان وطيّبتان، وهي تبتسم بسهولة. ثقتها بنفسها واضحة في الطريقة التي تجعل بها ظهرها مستقيماً ورقبتها كالبجعة. دافيد على العكس يبدو متوتّرًا قليلًا. طويل وضامر ووجهه يكاد يكون رماديًّا. عيناه كبيرتان لهما زرقة منتصف الليل وفيهما بريق اليأس. يبتسم في قلق كأنّما يحنّ إلى أن يُفهم وأن يوثق به. ضعفه يجعلني أشعر بالقوّة. وأنا لا أريد أن يتركني هذا الشعور. للحظة أراها قبيحة، أودّ أن يتذلّل دافيد.

من وسط الشباب في الحشد، ينظر شاب وزوجته إلى دافيد وموللي بفضول. بعض من الآخرين ينظرون لهما بشكّ وقلق.

أحدهم يسأل: «ماذا تعني بارتدائك هذه الكوفيّة؟ أنتم إسرائيليون.»

يضحك دافيد بعصبية ويقول: «نعم، ولكنّنا ضدّ الاحتلال.»

آه. الرؤوس تومئ علامة الفهم. من المعتاد لنا أن نقابل ناشطي السلام الدوليين وكذا اليهود الذين يزورون الضفّة الغربية ليُبدوا تضامنهم بزراعة أشجار الزيتون، أو بالسهر عند نقاط التفتيش أو الجدار العازل، أو بالتفاوض مع المستوطنين بالنيابة عن الناس الذين مُنعوا من الاقتراب من أراضيهم.

تقول موللي: «نحن من ناشطي السلام، وفي طريقنا إلى القدس.»

أستفهم: «ولماذا لا تأخذون الطريق الجانبي المخصّص للإسرائيليين فقط؟ فهو طريق أسرع ومباشر!» أشعر وكأنّني قد

أبنت لهما حقيقة رائعة. ربّما لا يعرفان أنّهما كيهود يمكنهما السفر بسهولة إلى القدس.

تقول موللي: «لدينا مناوبة عند نقطة تفتيش.»

سامي وأنا ننظر لبعضنا ثمّ إليهما، لنبدي لهما بوضوح أنّنا نظنّهما مجنونَين.

بعد لحظات تصل الحافلة الصغيرة المتّجهة إلى القدس عبر وادي النار. نبتهج أنا وسامي.

يغنّي سامي وهو يدور ويرقص في مكانه: «أهلًا بالحافلة، الله يبارك الحافلة.»

يُمسك بيدي ونرقص الدبكة وندير منديلًا ورقيًّا في الهواء ونحن نرفس ونخطو حول مشاهدينا. يضحك بعض من الناس.

ندفع التذاكر ونركب متّخذَين مقعدَينا في الخلف. في هذه الحافلة مثل غيرها من الحافلات لم يتبقَّ من المقاعد إلا الزنبركات الناتئة، وكانت مرآة الجانب الأيسر مفقودة، ومنفضة سجائر السائق تفيض بأعقاب السجائر من جوانبها. في مكان الإطار الفارغ الذي كان في السابق مرآة المنظر الخلفي، وُضعت مرآة عادية، كتلك التي تنتف أمامها ماما حواجبها، مثبّتة بشريط لاصق. لصقت على لوحة القيادة صور لثلاثة أطفال يضحكون ولرجل عجوز يبدو متجهّمًا ويرتدي زيًّا فلسطينيًّا.

موللي ودافيد يصعدان إلى الحافلة ويجلسان في المقعدَين الموجودَين أمامنا. دافيد طويل القامة لدرجة أنّه يحني جسده حتّى لا يرتطم بالباب المنخفض أثناء صعوده. الركّاب يملأون الحافلة في بطء حتّى يكتمل العدد ثمانية. يقدّم الجميع أنفسهم للتعارف. ترنّ في الهواء كلمة السلام عليكم.

يخبرنا سائق الحافلة: «يجب أن أختبر أوّلًا مياه التبريد وأترك المحرّك يدور قليلًا. هيّا استمعوا إلى بعض الموسيقى بينما تنتظرون.»

يدير مفتاح جهاز الصوت المجسّم فيعلو صوت كاظم الساهر في السمّاعات. سامي وأنا نرفع أنفَينا إلى أعلى في خيبة أمل.

أتنهّد: «يغنّي شعرًا فصيحًا.»

يصيح سامي: «ضع بعض أغاني البوب.»

يرفع السائق صوت الجهاز ويقول ضاحكًا: «موسيقى البوب. هه!»

من خلال النافذة المفتوحة يمكنني سماع صوت السائق يغني في نشاز وهو يعمل في المحرّك، غير واع بما يسبّبه لنا من ألم.

أهمس لسامي بصوت شديد الانخفاض بقدر ما أستطيع: «معنا إسرائيليون في الحافلة. ربّما يعني هذا أنّنا نستطيع عبور نقاط التفتيش.»

يهمس في أذني: «من المحتمل أنّهم عملاء. مثل الذين أخذوا أبي.»

أضع مرفقي على فخذي وأسند ذقني على يدي وأدرس وجه دافيد: أعني وجهه الإسرائيلي. الجفون، الأنف، الفم: كلّها عادية جدًّا. الشعر الخشن حول الذقن المدبّبة: مثل الشعر الذي ينمو لبابا بين الإفطار والغداء. ضع دافيد في حقول الزيتون، أو على مقعد من المقاعد الخشبية الطويلة في كنيسة المهد، أو في أحد بازارات ميدان المهد، أو ألبسه كوفية أو جلابية، فلن يعرف أحد الفرق بينه وبين المسيحي أو المسلم.

قال لنا المعلّم: «اليهود والعرب أولاد عمومة. كلّنا من نسل

النبي إبراهيم.» لكنّني لم أكن متأكّدة أبدًا ماذا أستطيع أن أفعل بهذه المعلومة.

تسألهما امرأة تقدّم نفسها باسم جريس: «من أين أتيتما؟»

تجيب موللي بالعربية: «نحن الاثنان من مواليد تل أبيب. ولكنّنا حصلنا منذ عشر سنوات على الجنسية الأميركية، وقد عدنا الآن في زيارة. ونحن نعمل مع جماعة لمراقبة حقوق الإنسان.»

امرأة شابّة تدعى نيرفين تبدي ملاحظة: «ولكنّكما تتكلّمان العربية بطلاقة.»

يقول دافيد: «نحن درسنا اللغة العربية.»

بينما يشرح دافيد أين درسا والدول العربية التي زاراها، يهمس سامي في أذني: «لهما لهجة تلفزيونية. نحن عرب نعرف برود أعصاب الشخص عندما نسمعه يتكلّم. من المحتمل أنّه جزء من التدريب. اللهجة الأميركية هي مجرّد غطاء.»

أردّ عليه همسًا: «لا يبدو أنّهما عملاء. فهي تضع طلاء أحمر على أظافر قدمَيها أمّا هو فحاجبه مثقوب.» أنقر بإصبعي على جبهتي: «هل تظنّ هذا مؤلمًا؟»

«حتّى لو كان مؤلمًا، فمن المحتمل أنّهما تعوّدا على الألم. هذا جزء من التدريب. الخاتم في ثقب الحاجب ليس شيئًا بالنسبة له.»

أحد الركّاب يقدّم نفسه باسم راغب. يرتدي نظّارات سميكة وعيناه عبارة عن نقطتَين صغيرتَين لونهما بنّي. الخصلات القليلة المتبقّية في شعره مرجلة على جانب واحد من رأسه الأصلع مثل جوزيف عمّ سامي، ولكن باقي الجزء المكشوف من رأسه يلمع. شكله يبدو غريبًا، لكنّه عندما يتكلّم فإنّ صوته يكون لطيفًا.

يسأل: «وكيف يحدث أن يستطيع الإسرائيليون أن يجلسوا هنا

معنا ملفوفين في علمَي الشعبَين؟»

تشرح موللي: «نحن من نشطاء السلام.»

تقول نيرفين من خلال قهقهاتها: «آه. هيبيز.»

يرفع دافيد حاجبَيه ويبتسم: «ليس تمامًا.»

تسأل جريس: «فما هي حكايتكما إذن؟ آسفة للتطفّل، لكنّ معظم الإسرائيليين الذين نقابلهم معهم بنادق في أيديهم.»

يقول دافيد وهو يمرّر أصابعه في شعره: «حسنًا، نحن هنا لأنّنا نكتب تقارير عن انتهاكات حقوق الإنسان. لسنا جميعًا نؤيّد ما يحدث.»

نيرفين تتمتم بينما بعض الآخرينِ يتنحنحون: «نعم، نحن نعرف هذا.»

يلكزني سامي في جانبي: «هل تظنّينه يكذب؟»

أهزّ كتفَيّ وأنا لا أزال أحاول أن أستقرّ على رأي.

يقول دافيد: «نحن نريد السلام العادل.»

تقاطع موللي: «نحن هنا لأنّنا مهتمّان بالعدالة للجميع.»

تقول جريس: «لا تقل هذا لنا. اذهب وقل لحكومتك.»

يقول دافيد بقليل من النزق: «هل تريدون أن أثبت صدقي؟ لقد دفعت ثمن معتقداتي. لهذا السبب أعيش في أميركا. فقد أُجبرت على ترك مسقط رأسي. أنا من الروافض. لقد كنت في جيش الدفاع الإسرائيلي.»

أُصدم: «كنتَ في الجيش؟»

كل العيون تحدّق في دافيد حتى تكاد تثقبه.

«كنتَ في الجيش؟»

«جيش الدفاع الإسرائيلي؟»

«كنتَ من ضمن قوات الاحتلال؟»

يعتدل دافيد في جلسته. «نعم. التجنيد إجباري. كنت في الثامنة عشرة عندما جنِّدتُ.»

«دافيد، هل كنت في الجيش؟»

«دافيد، هل نحن إرهابيون؟»

يزأر فينا راغب أن نسكت. «دعوه يكمل كلامه! دعوه يحكي الحكاية.»

«نعم. دعوه يكمل.»

«كانت هذه وقاحة منّا.»

«دعوه يتكلّم.»

«فلنسكت ولندع دافيد يتكلّم.»

يتململ دافيد في مقعده ويقول بدماثة: «كنت أظنّ أنّ اليهود هم الشعب الوحيد الذي يقاطع فيه الناس بعضهم البعض.»

للحظة يسود صمت تامّ، خلاله يتبادل الركاب النظرات ثم ينفجر الجميع ضاحكين. يتغيّر شيء ما في الجوّ.

يكمل في ارتياح: «نعم، كنت في جيش الدفاع الإسرائيلي. نشأت مؤمنًا بأرض بلا ناس لناس بلا أرض. لا تخطئوا فهمي. أنا أؤمن بإسرائيل. قد يغضبكم هذا، لكن هكذا أنا. ولكنّني ضدّ ما يحدث. وأنا أريد أن أفعل ما أستطيع بطريقتي.»

تسأله جريس: «أنت تؤمن بأن يأخذ شعب أرض شعب آخر؟»

يمرّر دافيد أصابعه في شعره: «انظري، أنا أعرف أنّ الموضوع معقّد. وأعرف أنّني لا أستطيع أن أجيب عن جميع الأسئلة. أنا أريد فقط أن ينتهي الاحتلال ثم نتناقش بعد ذلك كيف نحلّ هذه الفوضى.»

تبتسم له نيرفين: «حسنًا. أمر طيّب أن يكون هناك أناس مثلك يؤيّدوننا.»

سامي يهمس لي: «لقد سقطوا في شراكه، الأغبياء السذَّج.» قلت له أن يسكت فأنا أريد أن أسمع ما يريد دافيد أن يقوله.

«عندما كنت في غزّة استولينا على بيت فلسطيني في موقع استراتيجي. لم يكن للعائلة خيار في أمرها. وصلنا ودخلنا البيت عنوة. أمرنا العائلة أن تعيش في الدور الأرضي. عائلة من تسعة أشخاص في غرفة واحدة. أخذنا نحن الدور الثاني والسطوح. بعض الجنود حوّلوا الغرف إلى مقلب زبالة. ظنّوا أنّ الكتابة على الحوائط والمرايا أمر مسلٍّ. نهبوا ممتلكات العائلة. لقد أسقمني أنّهم كتبوا على الحوائط: اعدموا العرب بالغاز.»

تقول نيرفين في هدوء: «لقد رأيت هذا على حائط في الخليل.»

يكمل دافيد: «عندما يريد أحد أفراد العائلة الذهاب إلى الحمام فعليه الاستئذان منّا لأنّ الحمّام في الدور الثاني. في يوم احتاج الأب لاستخدام الحمّام. بعض الجنود الآخرين عذّبوه بالتهكّم منه وجعلوه ينتظر. كان يأخذ نفسًا عميقًا ويهزّ رأسه حتّى حدث المحتوم. انهار الرجل وابتلت ثيابه أمام أعين أولاده. لكنّ عينَيه ستظلان تطارداني إلى الأبد. في تلك الليلة رفضت أن أخدم في الجيش لدقيقة بعد ذلك. اعتُقلت ثمّ حوكمت وحُكم عليّ بالسجن سبعة شهور.»

يقف شعر جلدي. أتخيّل رجالًا غرباء في بيتي يحملون المدافع الرشاشة وينامون في سريري ويدخّنون على سطوح بيتي ويخبرونني متى أستطيع أن أذهب إلى الحمّام. أحاول في خيالي أن أتصوّر دافيد في الزيّ العسكري. لكنّني لا أستطيع. للحظة تغمرني مشاعر

متضاربة. الأمر يصبح أقلّ تعقيدًا عندما أفكّر في الإسرائيليين جميعًا باعتبارهم يقهرونني. الأمر يصبح أقلّ تعقيدًا عندما أفكّر في الإسرائيليين باعتباري أكرههم جميعًا.

أمام دافيد وموللي يجلس رجل متوسّط العمر يقدّم نفسه باسم مروان. على صدره تتدلّى سمّاعات أذن يصدر منها صوت خفيض لموسيقى راقصة. هو يرتدي الجينز وقميصًا مخطّطًا بلون أزرق فاتح ويضع قلادة تنس ذهبية. حذاؤه يلفت نظري، فهو من جلد حرشفي رمادي اللون، ومدبّب جدًّا في المقدّمة لدرجة أنّني أظنّه قادرًا على الوصول إلى لوحة العدّادات بأقلّ حركة من قدمه. إلى جواره يستند على النافذة عود كبير في غطائه. يقول: «لست أحسد جنودكم للحظة واحدة على ما يمارسونه من سُلطة. هل تعرف شيئًا؟ أنا أخشى على مستقبل أولادكم بقدر ما أخشى على مستقبل أولادنا.»

جريس تتحرّك في مقعدها وتستخدم حقيبة يدها كمروحة وتقول: «أنا لا أشفق عليهم. أنا أرى كيف ينظرون لنا في نقاط التفتيش وعند متاريس الطرق. مثل قطعان الحيوانات. فلماذا أشفق عليهم يا مروان؟ أنا آسفة يا دافيد ويا موللي، فلم يعد في قلبي مكان لهؤلاء الذين يجلسون على قمم جبالنا التي سرقوها ويراقبوننا كما لو أنّنا صراصير عديمة الأهمّية.»

يقول مروان: «ولهذا فإنّ الاحتلال يسرق آدمية من يَحتلّ ومن يُحتلّ. كلّنا خاسرون.»

تضمّ جريس شفتَيها ثمّ تقول في صوت متوتّر: «ربّما. لكنّني لم أطلب أن تُحتلّ أرضي، وللأمانة فإنّني لا أعبأ بسلوكي عندما أجد أنّه من الصعب أن أطعم أطفالي أو أعطيهم مستقبلًا آمنًا. أقول

لك، هذا لن ينتهي أبدًا. في بعض الأحيان أشعر أنّني قد تخلّيت عن الأمل.»

يتمتم سامي: «الجنون أصاب الكبار.»

يقول راغب بابتسامة رقيقة: «هل سنتوصّل هنا لحلّ لعملية السلام في الشرق الأوسط؟»

تنظر جريس إلى أسفل ناحية يدَيها وتتنهّد: «آسفة يا دافيد ويا موللي. أنا لم أقصد أيّ شيء ضدّكما شخصيًّا.»

ترفع موللي يدها لتوقف جريس عن الاعتذار. «نحن نفهم كيف تشعرين.»

أهمس لسامي: «هما مهذّبان.»

«يا غبية، لقد درّبوهما على الكذب.»

أحوّل عينَيّ إليه.

يقاطع راغب: «حسنًا. أستطيع أن أقول لكما إنّ صراع الشرق الأوسط سينفجر إذا لم يسرع هذا السائق. ما الذي يحدث يا زلمة؟» يطل من النافذة: «لقد مرّت حتّى الآن خمس عشرة دقيقة.»

يقف السائق وينفض التراب عن بنطلونه ثم يقفز في مقعده ويصفق الباب خلفه. «لو كنت أستطيع أن أضع يدَيّ على هذا الميكانيكي الغبي في بيت ساحور! أنا آسف يا أصدقائي. أوف. ياللا. لا إله إلا الله!» يتلوّى في مقعده محاولًا اتّخاذ وضع مريح. يشعل سيجارة ثمّ يستدير ليواجهنا. الدخان الخارج من فمه ينعقد كثيفًا في الهواء الراكد الساخن. «لدينا ضيوف اليوم. اسمي كريم، وأنا أرحّب بأصدقائنا دافيد وموللي ترحيبًا حارًّا. وأنا أتجاهل هؤلاء الناس الذين يستجوبونكما. لا يهمّني إن كنتما تصلّيان في معبد يهودي أو تحلقان الرأس من أجل بوذا. أيّ شخص يريد

السلام ويدفع الأجرة فمرحبًا به في حافلتي. نأسف لعدم وجود مكيّف للهواء، فقد تعطّل منذ السبعينيات. هه. الله وحده يعلم لماذا تريدون السفر عبر وادي النار. ربّما تجدون حافلتي جذّابة بحيث لا تستطيعون مقاومة إغراء مقاعدها المنزوعة. أليس كذلك؟»

الدعابة الطيّبة للسائق مُعدية ولذا يبتسم دافيد وموللي.

«أنتما مجنونان، هه؟ حسنًا. نحن نريد المزيد من المجانين في هذا البلد. هذا هو الشيء الوحيد الذي ينقصنا! هه! إذا انقلبت الحافلة من على جانب الجبل وتحطّمت، فسوف تهرش السلطات رؤوسها. جثث يهودية ومسلمة ومسيحية! هه! كم ستكون رؤية وجوه السلطات مسلّية!»

١٢

ترتجّ الحافلة في سيرها على طول الطريق الذي يعبر بجوار قرية العُبادية باتّجاه وادي النار. للحظة أشعر بأنّنا سنموت بالتأكيد عندما أرى كريم وهو يستخدم ركبتَيه في إدارة عجلة القيادة بينما يداه مشغولتان في صبّ الشاي من الترموس المهترئ الأحمر اللون في كوب من البلاستيك. يقول وهو يرفع الترموس في الهواء: «هل يحبّ أحدكم بعض الشاي؟»

تصرخ نيرفين: «ضع يدَيك على عجلة القيادة.»

يقول: «حاضر، حاضر، يا مدام. لا تخافي. هذه الطرق هي بيتي. أستطيع القيادة وعيناي معصوبتان. في الحقيقة لقد فعلتها. دعيني أحكي لك الحكاية...»

أتجاهل صوته وأسند رأسي على إطار النافذة الساخن المصنوع من الألمونيوم، وكلّي أمل أن تهبّ على وجهي نفحة من ريح باردة. أشعر بطعم معدني في فمي وبمعدتي وهي تتخضخض بينما الحافلة تتعرّج على الطريق خلال الوادي الواسع سالكة حارات ضيّقة غير ممهّدة شُقّت أكيدًا من أجل سير العربات التي تجرّها الحمير وليس من أجل السيّارات والحافلات الصغيرة. في بعض أجزاء الطريق لا توجد حواجز أو قضبان بين الطريق وبين حواف الجبال. لا شيء يحمينا من الموت سقوطًا وخصوصًا مع سائق يبدو أنّه لا يرى بأسًا في شرب الشاي وتدخين السجائر وإدارة عجلة القيادة جميعا في وقت واحد. مع كلّ انزلاقة أو رجّة أنظر إلى جريس وهي ترسم الصليب بحماسة على قلبها وتتمتم بصلاة. دافيد وموللي منحنيان على لوحات الكتابة يدوّنان ملاحظاتهما. مروان يمسك بعوده ويسند رأسه على النافذة. نيرفين تجلس في المقعد الأمامي تستمع إلى حكاية كريم، وتقحم نفسها قائلة: «خذ بالك!»، أو «هدّئ السرعة!» رأس راغب متّكئ على ظهر مقعده وتفّاحة آدم تعلو وتهبط بينما يشخر.

بدلًا من النسيم البارد، يهبّ على وجهي قذى من التراب بينما تمضي الحافلة على الطريق الثعباني المترب. أحكّ عينَيّ وأشعر بعدم الراحة. هذا وقت الظهيرة وموعد عودتي للبيت بعد المدرسة هو الرابعة. أتساءل في نفسي إن كان بابا وماما إلى جانب سرير ستّي زينب.

أحدّق من النافذة. بعض أجزاء من الأرض وعرة وصخرية. ألوان التلال تمتزج ببعضها، الذهبي في البنّي في الأصفر ثمّ في الأصفر الفاتح، فلا أستطيع أن أحدّد أين يبدأ تلّ وأين ينتهي الآخر.

نهبط منحدرًا شديد الميل فأتمسّك بمقعدي بقوّة وآخذ أنفاسًا عميقة، وأركّز تفكيري على رئتَيّ وعلى دفع الهواء إلى الداخل والخارج حتى بعد أن أشعر باستواء عجلات الحافلة على الطريق المترّب. يتفصد العرق من ساقَيّ وأشعر بقطرتَين تنزلان في جوربي الأبيض السميك. أذكر أنّ مايسة وأنا، في أوّل تمرين لنا على رقص الدبكة، تنافسنا في لفت انتباه المدرّس. كرهتها في هذه المرّة الأولى بسبب قدرتها على تنسيق حركاتها وبسبب قدمَيها الرشيقتَين، إلا أنّنا بعد ذلك أصبحنا أفضل صديقتَين... أتحسّس وجهي، وأتتبّع ندوبه. تغمرني الذكريات، فأنقر بمفاصل أصابعي على جبهتي لكي أطردها. أستند برأسي على ظهر المقعد الموجود أمامي وأغلق عينَيّ، وأحاول أن أشغل انتباهي بذكريات سعيدة. أفكّر في ستّي زينب. كلّما ذكرتها شعرت بالدفء في قلبي.

مضى ما يقارب الشهرين منذ أن جلست بجوارها مرتدية فستانًا بلون القرنفل الفاتح، له حواف من التُّل، ومزيّن بالترتر من حول ياقته. كنت أجلس في غرفة المعيشة كدمية منزعجة، بينما يتحدّث والدا خطيب جيهان مع والدَيّ عن خطط الزفاف ويأكلان الكنافة ذات الشراب السكري ويدخّنان سجائر الونستون بلو. تجلس ستّي زينب في صمت إلى جانبي تستمع إلى الكبار وهم يتحدّثون ولكن دون أن تحاول المشاركة في الحديث. يجلس أحمد كالقميص المنشّى متجنّبًا النظر إلى جيهان من باب الاحترام بينما ترفع هي فنجان الشاي إلى شفتَيها دون أن تحسو منه شيئًا خشية أن تُتلف أحمر الشفاه. يبدأ الكبار في الجدل حول أفضل قاعة زفاف.

تقول أمّ أحمد: «لكنّ قاعة «أبو سفيان» فيها آلة دخان.»

يسأل بابا: «ماذا تعنين بآلة الدخان؟»

تقول ماما: «ليست آلة سجائر وإنّما هي الآلة التي تستخدم عندما يرقص العروسان الرقصة البطيئة.»

«لها تأثير طيّب.»

«لا تعجبني الرائحة.»

«ماذا عن قصر جو؟ يوجد فيه دجاج ولحم وجنبري.»

«لا أحبّ ألوانه. اللون القرنفلي هو الغالب.»

تقترب ستّي زينب منّي وتهمس: «في الأيّام الماضية كان كلّ ما تحتاجينه لزفاف جيّد هو الموسيقى والطعام وليلة مليئة بالنجوم. دعينا نرسل الجميع إلى سطوح البيت ونقيم فيه حفل الزفاف. هذا أقلّ صداعًا.»

أبتسم. التل القرنفلي يحكّ ساقَيّ. أبدأ في الشعور بأنّني مثقلة ومقيّدة لأنّ شعري مرفوع لأعلى.

قلت لستّي زينب: «أريد أن أخفض شعري، فهو يضايقني.»

«أخفضيه يا حبيبتي. على أيّة حال لن يلاحظ أحد، فهم مشغولون جدًّا في مناقشة ما إذا كانت آلة الدخان تعمل بالغاز أو الكهرباء.»

لا يفلت شيء من عينَي ماما الحادّتَين. همستْ وهي تَصرّ على أسنانها: «ماذا سيظنّ والدا أحمد؟» وهكذا جلست في الغرفة البائسة أهرش ساقَيّ وأضع أصابعي في شعري كي لا يظنّ والدا أحمد شيئًا.

تتمتم ستّي زينب وهي تدير عينَيها إلى ماما: «باه.»

ثمّ تغمز لي: «في خلال دقيقة سأعطيهم بعض الريح ليفكّروا فيه.» فأقهقه.

«اللعنة!» يقطع صوت كريم انثيال خواطري. تبطئ الحافلة.

«لقد وضعوا اليوم نقطة تفتيش مؤقّتة على الطريق.»

عربة جيب عسكرية تغلق الطريق. علم إسرائيلي هائل مرفوع في الهواء بأعلى ساريته. على جانبي الجيب يقف جنود مسلّحون برشّاشات عوزي وببنادق آلية. يضعون نظّارات شمسية سوداء وفي أيديهم أجهزة اللاسلكي المتنقّلة. ينتابني إحساس مفاجئ بالحاجة إلى التبوّل فأضغط ساقًا على ساق.

عدد كبير من السيّارات والحافلات تقف في طابور واحد على حافّة الطريق الضيّق المارّ في الوادي. معظم العربات خالية، والركّاب والسائقون يقفون خارجها يفتّشون حقائبهم ومحافظهم استعدادًا لإبراز بطاقات هويّتهم. أحاول أن أُبعد عينَيّ عن بنادق الجنود بينما مثانتي تفقد صبرها وتنتفخ لتحوز انتباهي. أصرخ فيها في ذهني أن تخرس فليس لدي وقت لها الآن!

يقول كريم متنهّدًا: «ما أعنيه في الحقيقة أنّهم يؤدّون لنا خدمة، فبفضل نقاط التفتيش لا يستطيع السائقون حتّى أن يتجاوزوا السرعة الرابعة للسيّارة وهذا يوفّر البنزين كما تعرفون. دعنا نأمل أن يكون دافيد وموللي هما نعمة إنقاذنا.»

يقول دافيد: «كريم، نحن يهود ضدّ الاحتلال، ولذا لا نتوقّع أيّ تعاطف من الجنود.»

تقول موللي: «ولكن لدينا آلات التصوير.» عندما تلاحظ أفواهنا المفتوحة تواصل: «سلاحكم الأقوى هو الإنترنت.»

تقول نيرفين بضحكة خافتة: «عظيم. سنكون مشهورين عبر العالم كلّه. هل أضع مزيدًا من أحمر الشفاه؟»

يقترب أحد الجنود من الحافلة ويقف ببابها وعلى وجهه تعبير صارم ويقول بعربية مكسرة: «انزل من العربة. استعدّ

بالتصريح.»

أسمع أحد الركّاب، لعلّه راغب، يتمتم: «حمار! فليتعلّم على الأقلّ فعل الأمر في صيغة الجمع.»

أختلس نظرة متسائلة إلى سامي ولكنّه يهزّ كتفَيه. يقول وهو ينظر لي في رصانة: «مجنون.»

ننزل جميعًا من الحافلة ونستند عليها ونحن نراقب ما يجري بين الجنود وبين الواقفين أمامنا في الطابور. عائلات، رجال ونساء في ملابس العمال، أناس كبار السن في ملابسهم التقليدية، أطفال من عمرنا وأصغر. أشعر أن الجميع قلقون.

أمامنا مباشرة تقف امرأة أمام أحد الجنود ومعها طفلان يتعلّقان بثوبها الرمادي الطويل. تجادل ويعلو صوتها في خيبة أمل. لو نظرتْ إلى الأسفل لرأت ابنتها، وهي في حوالي السابعة، تضرب ذراع أخيها، وهو في حوالي السادسة، فيردّ الضربة بمثلها. تضربه ثانية فيعبس ويقرصها وهو يلوي يدها، كمثل تلك القرصات التي تستخدمها ماما مع طارق ومعي إيذاءً لنا إذا ما كسرنا شيئًا، أو أحرجناها أمام الضيوف. تصيح البنت فتنظر أمّها لهما أخيرًا وتصيح فيهما أن يسكتا بينما تسوّي حقيبتها على كتفها محاولةً أن تستعيد رباطة جأشها. تحاول البنت أن تشرح أنّ أخاها كسر القواعد وردّ على الضربة بقرصة، لكنّ أمّها، مثل ماما، لا تهتمّ بالأسباب ولكن بالنتائج فقط. تجذب الأمّ ذراعَي طفليها إلى جانبها وتنظر إليهما تلك النظرة التهديدية التي تقول لي جيهان عنها إنّ الأمّهات يتعلّمنها في فصول الاستعداد للولادة. تنظر الأمّ مرّة أخرى للجنديّ الذي يبدو للحظة، وأُقسم بالله أنّ هذا حدث حقًّا، وكأنّه يحاول إخفاء ابتسامته. يعطس الجنديّ وأتساءل عمّا إذا كنت قد قرأت اختلاجة وجهه خطأً.

يقف سامي بجانبي وهو يحفر حفرة في الأرض بكعبه.

أهمس له: «فيمَ تفكر؟»

«كرة القدم. هل تظنّين أنّ عمّو جوزيف سيتركني أذهب إلى إيطاليا إذا قبلني المدرّب في الفريق؟ تعرفين بالطبع أنّه سيقبلني. وسيم أصغر منّي حجمًا. لا أرى سببًا لعدم قبولي خصوصًا مع مهاراتي في مركز الدفاع. لو أقنعت المدرّب أن يخبر عمّو جوزيف أنّني سوف أزور الفاتيكان فسوف يتركني ألعب. لن أغفر له أبدًا إذا منعني من الاشتراك مع الفريق! عليه اللعنة، وليذهب وسواس عمتو كريستينا إلى الجحيم! هما مهتمّان أشدّ الاهتمام بإنقاذي من جحيم الله لدرجة أنّهما لا يريان أنّني أريد أن أُنقذ من هذا الجحيم. أنا أكرههما!»

«سامي!»

تتّقد عيناه غضبًا.

أواصل: «لا تقل هذا. لقد اعتنيا بك منذ...»

«لا أحتاج لشفقتك! لا تسأليني أن أغلق فمي لأنّ بابا في السجن! فبسبب غلطته فأنا الآن وحدي أسمع الجمل المملّة: «يسوع قال هذا»، «يسوع قال ذلك».

«سامي! إنّه كان يعمل ضدّ الاحتلال. إنّه بطل!»

«العمل ضدّ الاحتلال غباء. لا جدوى من ذلك. فالمكافأة هي إمّا الموت أو السجن. هو لم يهتمَّ بي. لم يهتمَّ كيف سأتأثّر لو فقدته. هو مثل غيره.»

لا أعرف كيف أجيبه. أنا أعرف طبع سامي جيّدًا. الشجار الدائم في المدرسة، الردّ على الكبار، نوبات الغضب في مباريات كرة القدم، أحداث الاختفاء التي يمثّلها علينا كلّما تجادل مع عمّه

وزوجة عمّه. ذات مرّة عنّفه الأستاذ إيهاب: «طبعك أكبر بكثير من سنّك، مثلما ترتدي ملابس من هم أكبر منك. غيّر موقفك يا سامي!»

يهزّ الجنديّ رأسه وتستدير المرأة على عقبَيها وتجذب طفلَيها ناحية سيّارة أجرة بينما يتبادل الطفلان كلمات غاضبة مع بعضهما. تمدّ يدها من خلال نافذة السيارة المفتوحة وتسحب حقيبتَين وإصيصًا به نبات صغير. تلقي بنظرة ثانية على النبات وتبدو على وجهها نظرة امتعاض، ثمّ تلقي به على الأرض. تبدو الحيرة في وجهَي الطفلَين، وتمدّ البنت يدها لتمسكه.

تأمر الأمّ: «دعيه، ياللا، سنمشي.»

يبكي الولد: «لا أريد أن أمشي.» تدير الأمّ عينَيها وتتنهّد. يبدأون في العودة سيرًا على الأقدام عبر الطريق المتعرّج.

الطابور طويل. يفتّش الجنود السيّارات والحقائب ويتفحصون بعيونهم بطاقات الهويّة. بعض الناس يُسمح لهم بمواصلة القيادة، والبعض يُؤمرون بالمشي. بعض السيّارات تُردّ على أعقابها. بعض الحقائب يتمّ إفراغها بالكامل. البعض يُنظَر إليهم نظرات خاطفة. لا يبدو أنّ هناك نظامًا مطبقًا. الإجراءات متضاربة. القواعد لا يمكن التنبّؤ بها مثلما لا يمكن التنبّؤ بمزاج الجنود.

تُكلّلنا سحابة من الشعور بالإهانة عندما يؤنّب الجنود النساء وهنّ يفرغن حقائبهنّ بأقصى ما يستطعن من سرعة، وعندما يأمرون الرجال بخلع قمصانهم ورفع أيديهم في الهواء.

يلكزني سامي في جانبي ويقول: «انظري إلى كرش هذا الرجل. كم كمّية المنسف التي يـأكلها كلّ أسبوع في رأيك؟ ربّما لم يرَ ركبتَيه منذ سنين.»

«أعتقد أنّ للجنود الحقّ في تفتيشه فربّما يخفي بعض الديناميت في طيّات الشحم.»

يضحك، وفجأة يلتفت الرجل الذي أمامنا ليواجهنا ويقول: «هذه ليست نكتة.»

أنظر إلى قدمَيّ وقد علاني الخجل. ينظر سامي بجسارة للرجل ويقول بصوت فيه من الميلودراما بقدر ما يستطيع: «نحن لم نضحك منذ أسابيع.»

تنبسط تكشيرة الرجل. «حسنًا، وأنا لم أضحك منذ سنين.»

«البيت دُمِّر؟ فرد من العائلة سُجن؟ أو قُتل؟»

يقول في لهجة التسليم بالأمر الواقع: «بعض من هذا وبعض من ذلك. ولكن أساسًا بسبب حماتي.»

نتبادل سامي وأنا نظرات جوفاء. «هي ضمن جيش الدفاع الإسرائيلي؟»

«كلا، بل لها منظمة إرهابية من صنعها هي. أنا لا يمكنني أن أشرب فنجان قهوة في سلام.»

عندما يأتي دورنا أخيرًا فإنّ مثانتي قد تحوّلت من خيانتي إلى الخفقان الخفيف. لا بد أنّها تعلّمت معنى الولاء ولهذا تسلك سلوكًا طيّبًا، فلها الشكر.

أسأل سامي في ذعر: «ماذا سنفعل؟ وأين سنقول إنّنا ذاهبان؟»

يقترح سامي بصوت خفيض: «أبو ديس؟»

«نعم. وإذا سأل نقول لزيارة العائلة.»

يطلب واحد من الجنود بعربية مكسرة: «التصريح؟» زيّه العسكري ذو لون أخضر متموّج. في حزامه عُلّقت بندقية ضخمة لامعة. الزيّ ضيّق عند الفخذين وينتفخ حول السمانتين ثمّ يصبح

مستقيماً قرب الكعبَين. أتخيّله عندما يستعدّ للذهاب للعمل صباحًا. يكوي زيّه، ويلمّع حذاءه الكبير، وينظّف إطار نظّارته بقماش مخصوص. فجأة أصبح مهتمّة به. ماذا يفعل بعد يوم عمل شاقّ في الأراضي المحتلّة؟ أتخيّله في البيت مع أسرته وكلّهم متجمّعون للعشاء حول المائدة المستطيلة. ستكون له زوجة اسمها إستر واثنان، لا بل ثلاثة، من الأولاد: ساره، وآرون، وإيهود. سيتناولون الطعام وهم يشاهدون في التلفزيون حلقة من المسابقة اليهودية للمواهب الموسيقية، إن كان هناك شيء بهذا الاسم، حتّى يأمر الأب بإطفاء التلفزيون عند وقت العشاء.

أنظر إلى الجنديّ وهو يتفحّص شهادة ميلاد سامي. سمين وبداية شعره متراجعة للخلف ووجهه جامد مثل الجلد.

عندما يستدير لي ويسألني عن أوراقي يحلّ الخوف محلّ الفضول. أستطيع أن أحسّ به وهو يتفرّس في ندوبي. غريزتي تدفعني لأن ألمس وجهي. يداي تهتزّان وأنا أتحسّس الندبة، وتنزلق شهادة ميلادي من يدَيّ المبتلّتَين بالعرق لتسقط على الأرض. يهتزّ كعب بندقيته مع تململه في مكانه.

أنا في خطر السقوط في بحيرة ذكرياتي السوداء. يبدو صوت الرصاصات وهي تصفر عند عبورها بجوار أذنَيّ صوتًا حقيقيًا. يدوس سامي على قدمي بقوة. أقفز ويتفحّصني الجنديّ وعلى وجهه نظرة متحيّرة.

يقول بالعربية بلهجة فاترة: «عصبية جدًّا. ما لك تتصرّفين هكذا وكأنّك تُخفين شيئًا؟» كلّ ما أستطيع أن أفعله لكي لا تبتلّ ملابسي الداخلية هو أن أقول: «لا شيء... لا شيء أخفيه.»

أنحني وألتقط شهادة ميلادي وأعطيها له. ينظر إليها ويعيدها

إليّ ثمّ يصوّب كعب بندقيته نحوي ليشير لي أن أخطو جانبًا.

يتقدّم دافيد وموللي خطوة للأمام. يتحدّثان بالعبرية بصوت يعلو ويهبط. يقطب الجنديّ ثمّ بعد لحظة صمت موجعة يعود للخلف إلى رفاقه وينشغل بالحديث في الهاتف. تنقضي خمس دقائق، ثمّ عشر، ثمّ خمس عشرة حتّى يعود الجنديّ. ظللت أقضم أظافري حتّى قشرتُ البشرة حولها بأسناني. يجلس سامي على جانب الطريق ووجهه متجهّم ومتوتّر وهو يراقب كلّ حركة من حركات الجنود. يقف كريم وجريس ونيرفين ومروان وراغب في صبر وتبدو وجوههم هادئة. الشمس تلفحنا بلظاها فأتمنّى كما تمنّيت من قبل في هذا اليوم لو أنّني جلست في حمّام بارد كالثلج. يعود الجنديّ ويقول شيئًا لدافيد وموللي. يصيح دافيد ردًّا عليه فيهزّ الجنديّ رأسه. تنظر موللي للجندي بنظرة مليئة بالتقزّز. يهزّ الجنديّ كتفَيه ويمشي عائدًا للطابور ليفحص سيّارة أخرى.

يقول دافيد وموللي في اعتذار: «علينا أن نمشي.»

يصيح سامي: «إلى أين؟»

«إلى نقطة تفتيش الكونتينر.»

تقول جريس: «ليس في هذا أيّ منطق!»

يئنّ راغب: «وما علاقة المنطق بهذا؟»

تقول موللي: «نحن آسفان. لقد حاولنا.»

تقول جريس بهدوء: «ليس خطأكما.»

تكرّر نيرفين: «لا، ليس خطأكما.»

تقول موللي: «كريم، أنا آسفة يا صديقي. ولكن عليك أن تعود إلى بيت لحم. ليس مسموحًا لك بالمرور.»

يتمتم كريم في سرّه بلعنة ثمّ يهزّ كتفَيه ويُخرج سيجارة من جيبه

ويشعلها بعود كبريت قبل أن يتكلّم. يُلقي بالعود على الأرض.
يسأل مروان: «ما هي المشكلة؟»
يقول دافيد: «اللعنة إذا كنت أعلم. أراد الجندي أن يتركنا نمرّ لكنّ قائده قال لا. لا بدّ أنّهم بحثوا عن اسمي في الحاسوب. من الواضح أنّ الروافض ليسوا أبطالًا يُرحَّب بهم. لحسن الحظ أنّ معي جواز السفر الأميركي وإلا لكانت هناك متاعب جسيمة.»
أهمس لسامي: «ها هي الكلمة تتكرّر ثانية. ما معنى الروافض؟»
يهزّ كتفَيه كأنّما يقول وكيف لي أن أعرف؟
أسأل: «لماذا سُمح لبعض السيّارات بالعبور بينما أُعيدت سيّارات أخرى؟»
يقول دافيد مهمومًا: «من يعرف؟ ربّما لا يعجبهم وجه كريم هنا.» يضحك كريم ضحكة مفتعلة ولكنّه يلعب على نفس الوتر: «نظراتي الفتّانة هي مصدر التهديد الأمني. أقول هذا لزوجتي طول الوقت ولكنّها لا تصدّقني.»
تصيح نيرفين: «أنمشي إذن؟ كم أستطيع أن أتحمل من هذا؟» تضرب صدرها بيدها وتبتهل إلى السماء: «يا ربّ أعطني الصبر!»
يقول كريم برقّة: «حسنًا، سيروا والحقوا بإحدى الحافلات المسموح لها بالعبور.»
أسأل: «وماذا بعد ذلك؟ علينا أن نمرّ بنقطة تفتيش الكونتينر.»
يشير كريم بإصبعه إلى السماء: «ثقي في الله يا أختي. ليس هناك طريق آخر.»
تهزّ نيرفين رأسها. «ليس لديّ القدرة على المشي بالحذاء ذي الكعب العالي. سأحاول أن أشير لحافلة أخرى وأن أهدّئ أعصابي وأنتظر لأرى ما إذا كانوا يتركونني أعبر من خلال الكونتينر.

هل سيتركونني أنتظر كما ينتظر الكلب المدرّب على الطاعة حتى يمنحوني تصريحًا لمغادرة إحدى مدننا للدخول لمدينة أخرى؟ ليس اليوم. لا. سأعود معك. ولتنتظر أختي. يمكنها أن ترسل لي صور رضيعها بالبريد الإلكتروني.»

وهكذا تعود نيرفين مع كريم بينما يمشي الباقون عبر نقطة التفتيش المؤقّتة على طريق الوادي. عندما نبدأ، نمُرّ بعائلة تقف عند حقيبة سيّارة أجرة مفتوحة، بينما يراقبهم جنديّ وهم يخرجون صناديق الهدايا الملفوفة، وثلاث حقائب، ودرّاجة كهربائية زرقاء ثلاثية العجلات. مقود الدرّاجة أصفر اللون ملفوف حوله شريط فضّي وعجلاتها حمراء.

يصيح الجنديّ في السائق ليعود أدراجه.

معهم امرأة عجوز تسيل دموعها على وجهها وعيناها مثبّتتان على بندقيّة الجنديّ. يدا السائق تمسكان عجلة القيادة بإحكام شديد.

ينحني مروان ويهمس في أذني: «لا تخافي.»

لكنّني لا أستطيع. أراقب الرجل وهو يتجادل مع زوجته بشأن التخلّص من الهدايا لأنّها أكثر من أن تُحمل. تُصرّ المرأة فيوزّعان الهدايا بينهما وبين أولادهما الثلاثة المتعلّقين بالمرأة العجوز. يحمل الرجل اثنتين من الحقائب الكبيرة موازنًا الدرّاجة الثلاثية على إحداهما. الأطفال يحملون صناديق الهدايا على صدورهم. المرأة تمسك العجوز بذراعها الخالي، وتحت إبط ذراعها الآخر تقبض على الحقيبة الثالثة. يراقب الجنديّ بينما العائلة تسير. يتوقّف الجميع بعد بضع خطوات لالتقاط الأنفاس. بعد عدّة أمتار يتوقّفون مرّة أخرى دون أن ينبسوا ببنت شفّة. وجوههم ملتوية من الغضب والإجهاد.

عندما نتجاوزهم أحاول أن أبعدهم عن تفكيري. نضرب بأقدامنا في التراب، ونشقّ طريقنا في الحرارة المزعجة، ونزيل الأحجار التي تسللت إلى أحذيتنا، وبعد بضعة كيلومترات نلوّح لحافلة سُمح لها بالعبور. نحشر أنفسنا بطول الممرّ فيما بين مقاعد الحافلة التي ازدحمت بالركّاب حتى نكمل رحلتنا إلى نقطة تفتيش الكونتينر. أتعجّب وأنا محشورة كحبّة حمّص في داخل إناء الحمّص كم ساعة ستستغرقها هذه العائلة لتكافح الطريق وهي تحمل حقائبها، وهداياها الملطّخة، وهذه الدرّاجة الثلاثية الحزينة.

١٣

تتباطأ الحافلة. نقترب إلى نهاية الطابور الطويل من السيّارات وسيّارات الأجرة وعربات النقل الصغيرة والكبيرة. ألحظ ثلاثة رجال فلسطينيين جاثمين على ركبهم بجانب الطريق، عيونهم معصوبة وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم. يقف أربعة جنود على بعد عشرة أمتار يثرثرون بشكل عفوي مع بعضهم البعض.

أسأل راغب: «لماذا تُسمّى نقطة تفتيش الكونتينر؟» أشعر بأنّني منسحقة في النافذة بينما يجلس راغب في مقابلتي مباشرة. «لأنّ المكان يأخذ شكل الكونتينر.»

يقاطعنا رجل يجلس منسحقًا بيننا قائلًا: «لا يا زلمة، أنت مخطئ، هذا الاسم بسبب أنّ رجلًا كان يملك حاوية تمتلئ بالبضائع فاستخدمها كمحلّ لبيع السجائر والعلكة والمشروبات الخفيفة، يعني أشياء من هذا القبيل للمسافرين المارّين خلال وادي النار.»

يرتفع صوت امرأة أجشّ وهي تقول: «لا، لا، أنتما الاثنان مخطئان. السبب هو أنّنا جميعًا مثل السردين محشورون داخل علبة!» تقهقه على النكتة التي أطلقتْها وينضمّ إليها بعض الآخرين في الضحك.

أحملق في الفضاء خارج النافذة. المنطقة تعج بأبراج مراقبة عملاقة تقف بمفردها. كتل خرسانية وصخور تنتشر في كلّ مكان، والأسلاك الشائكة تحيط بمنطقة الاحتواء. بوّابة فولاذية تشير إلى المدخل وبعدها أرض فضاء مقفرة يقف فيها حفنة من الجنود. يقف طابور العربات على بعد عشرة إلى خمسة عشر مترًا. تنفتح البوابة الفولاذية أوتوماتيكيًا بعد أن يشغلها الجنديّ المسؤول. يسمح بمرور سيّارة واحدة في المرّة.

شخص ينادي السائق ويسأله: «ألا يمكننا أن نخرج؟»

الحرّ خانق يشجّع على انبعاث بعض الروائح الكريهة من الأجساد البشرية. على الرغم من التباين في أعمارنا ولكنّنا جميعًا نشعر بنفس الضيق. وجه سامي يتطلّع إلى أعلى في اشمئزاز. تباغتني رائحة ضراط. حتى في ظلّ الاحتلال ما زال الإنسان يتمتّع بحقّ إخراج الغازات في الزحام. ربّما كان السبب أنّه في زحام سيّارات الأجرة يستمتع الإنسان بهويّة مجهولة تشجّعه على ذلك. بعض الركّاب يسعلون ويغمغمون عندما تهاجم أنوفهم الرائحة الكريهة. تصرخ امرأة: «بالله عليكم اسألوه إذا كان بإمكاننا الخروج! سيغمى عليّ هنا!»

يقول دافيد: «سأكلّمه»، ولكنّ السائق قد أخذ المبادرة وأخرج رأسه من النافذة وهو يشير إلى الجنديّ الواقف على مقربة من السيارة: «هل يمكننا أن نفرد سيقاننا؟»

ينظر الجنديّ إلى السائق والسأم يغطّي وجهه، وبدون أن يكلّف نفسه مشقّة الإجابة يدير رأسه بعيدًا. يسألنا السائق مستشيرًا رأينا: «هل كان ذلك نعم أم لا؟ إذا كانت الإجابة نعم سيهزّ رأسه على الأقلّ، أليس كذلك؟ وإذا كانت لا ثمّ خرجنا من السيّارة سنقع في ورطة، الأفضل لنا أن ننتظر داخل السيّارة.»

تتمتم امرأة خلفي: «طبعًا لأنّه يجلس في أفضل مقعد في السيّارة.»

يجيب آخر: «هذا ليس عدلًا. لا يمكنك أن تتوقّعي منه أن يشارك أحدًا في مقعد السائق.»

تقول موللي في حنق: «ما الذي يعتقده هذا الجندي ليتجاهلنا بهذا الشكل!»

الحرارة والزنقة لا تُحتملان. حقيبة شخص ما توخز ظهري وشمس الصيف الحارقة تشوي ظهورنا مثل دجاج في شوّاية الفرن. جميعنا نشعر بالاضطراب وفجأة يصرخ رجل: «شدّ عضلي! أشعر بشدّ عضلي في قدمي!»

يقترح عليه شخص في شيء من الاستهتار: «ادفع بقدمك في هذا الاتجاه.»

يردّ عليه الرجل في غضب: «أنت تحلم إذا كنت تعتقد أنّ هناك مكانًا! تحرّك! من فضلك! لا بدّ أن أخرج! هذا غير محتمل!»

أشعر بنفسي منسحقة في النافذة. يحاول الرجل أن يشقّ طريقه خلال الركاب وفوقهم. يزداد الالتحام فيتأوّه الناس ويصرخون،

ينادون لفتح الباب بينما يتأوّه الرجل: «قدمي! قدمي!»

يضطرّ السائق إلى تشغيل المقبض ليفتح الباب وهو يصرخ في يأس محذِّرًا: «ولكنّه لم يومئ برأسه!»

ننسكب جميعًا خارج الحافلة، نحاول يائسين الإمساك كلّ منّا بالآخر بينما نجاهد لكي ننزل درجة الحافلة لنصل بأقدامنا إلى الأرض. الرجل بالشدّ العضلي يسقط فوق الأرض ويقذف بحذائه ويرفع قدمَيه في جنون إلى أعلى.

جلبة الصراخ والصيحات تدفع بجنديَّين نحو السيّارة. يركضان إلى الأمام وهما يرفعان أسلحتهما. يصرخان ويأمراننا أن نعود أدراجنا داخل السيارة. أحدهما يشهر سلاحه في اتّجاهنا فأصرخ صرخة خافتة. يقبض راغب على يدي ويلقيني تقريبًا مرّة أخرى داخل السيّارة وهو يصيح: «ادخلي» ويقفز الركّاب فوق بعضهم البعض في محاولتهم حشر أنفسهم من خلال الباب. يرفع دافيد وموللي صوتهما للجميع بالهدوء ويصرخان في أوجه الجنود باللغة العبرية.

نظرت حولي بحثًا عن سامي. باستثناء الرجل ذي الشدّ العضلي ودافيد وموللي كان الأخير في الدخول. حركاته بطيئة وحذرة، يرتقي الدرجة وينظر مرة أخرى إلى الجنود. لم أرَ في حياتي وجهًا يتّسم بالسكينة مثل وجهه. أشعر بالرعب.

يبدو أنّ الرجل ذا الشدّ العضلي على وشك الانهيار في البكاء وهو يحاول أن يعود إلى الباب. تحاول موللي مساعدته وتقدّم له ذراعها ليستند إليها. يقف السائق في مواجهة الجنديّ الذي أشهر سلاحه في اتّجاهنا.

«شدّ عضلي» يحاول شرح الموقف في شيء من الهستيريا ويداه

تشقّان الفضاء وهو يتكلّم: «الرجل عنده شدّ عضلي واضطرّ إلى الخروج.»

يسرع دافيد وهو يقول شيئًا بالعبرية. يصرخ الجنديّ شيئًا فيعود دافيد فجأة قابضًا على ذراع موللي ويقودها مرّة أخرى داخل السيّارة.

يصرخ شخص: «لماذا تعود هنا؟ تكلّم معهم!»

يردّ دافيد: «يقول إنّنا خونة ويهدّد بحبس السائق وهذا الرجل إذا لم نعد داخل السيّارة.»

يقول الجنديّ: «هويّتك!»

يُخرج السائق محفظته من بنطلونه ويقدّم بطاقته.

ينظر الجنديّ إلى البطاقة ثمّ يقذفها مرّة أخرى في وجه السائق. ثمّ يسير في اتّجاه الرجل ذي الشدّ العضلي.

يصرخ فيه وهو ينظر إليه من عليائه: «ما المشكلة؟»

يتلعثم الرجل: «شدّ عضلي! عندي شدّ عضلي: لم يكن هناك مكان...»

يصفع الجنديّ الرجل على وجهه: «لا تخرج من السيارة.» دفعت الصفعة بالرجل خطوة إلى الخلف. يصرخ الرجل وهو يرفع يده إلى وجنته.

يصرخ الجندي: «تريد مشاكل؟»

يقف الرجل صامتًا وعيناه مثبّتتَين على الأرض. أشعر برغبة في القيء. يقترب جندي آخر. يتحدّث الجنديّان بسرعة بالعبرية ويقول الجنديّ الثاني: «لا بأس: عالج الشدّ العضلي وبعدها إلى السيّارة.» صوته صارم ولكن به لينًا أيضًا.

شخص يهلّل وآخر يصفّق. شخص آخر يقول في دهشة: «هذا

رجل طيّب، عنده إنسانية مقارنة بالآخر.»

أقول لراغب بعد أن هدأ الجميع وسادت السكينة في السيّارة: «هذا الجنديّ لطيف، أليس كذلك؟»

يقول لي راغب في صوت خفيض: «يذكّرني هذا الموقف بقصّة قرأتها في طفولتي. هل تريدين أن أحكيها يا حياة؟» عندما رآني أومئ استمرّ في حكايته: «كان يا ما كان، كان هناك صيّاد خرج إلى الغابة ليصطاد. وفي الغابة رأى شجرة تمتلئ بالطيور فصوب بندقيّته ناحيتها فأصاب الكثيرين، بعض الطيور مات وبعضها أصيب. بدأ الصيّاد في التقاط الطيور الميتة وقتل الطيور المصابة بسكّينه.

وأثناء انهماكه في هذا العمل ترقرقت بضع قطرات من الدموع في عينيه بسبب برودة الجو. فقال طائر لآخر: «هذا الصيّاد طيّب القلب. انظر إلى عينَيه، فهو يبكي علينا». فقال له الطائر الآخر «انس عينَيه. انظر إلى يدَيه.»

١٤

تمرّ خمس عشرة دقيقة. يعلن الرجل بارتياح أنّ الشدّ العضلي قد زال، فيحمد الله الكثيرون لذلك، ويلعن آخرون صيف الشرق الأوسط، وينصحه البعض أن يرفع معدّل المغنيزيوم في دمه.

ننتظر جميعًا منسحقين داخل سيّارة الأجرة كما لو كنّا داخل فقاعات غازية داخل علبة من مشروبات الصودا بعد هزّها.

خمس وعشرون دقيقة. شخص يقول إنّه من الغريب أن يحدث الشدّ العضلي في هذا الجوّ الحارّ حيث إنّه يحدث دائمًا في الجوّ البارد، أليس كذلك؟

نصف ساعة. تظهر حقيقة التراث الثقافي لدافيد ومولي. كم هذا مثير! نشطاء في حركة السلام! نشطاء إسرائيليون في حركة السلام! أيّ شجاعة وأيّ نزاهة. طلبات للاستماع لحكايات دافيد ومولي. يعرض أبو جفار بعض التفّاح والكمَّثرى لدافيد ومولي من الصناديق التي حشرها تحت مقعده وفوق حجره. يقول لهم «اتفضلوا» ويحثّهم على الأكل. يقضم كلّ منهما تفّاحة وحبّة من الكمَّثرى ونصغي إلى حكاياتهما عن الوقت الذي ساعدا فيه أسرة تجني ثمار حدائقها في مواجهة المستوطنين الذين حاولوا منعهم من الوصول إلى أرضهم. سُمّمتْ بعض الأشجار وأطلقت بعض العيارات النارية. ثمّ أيضًا الوقت الذي هُدم فيه بيت أمّ مازن لأنّها لم تحصل على ترخيص. لم يستطيعا إيقاف الهدم. ثمّ يقولان ربّما لم تكن تلك قصّة مثيرة. وماذا عن المعسكر الصيفي للأطفال الإسرائيليين والفلسطينيين في يافا؟

ما أجمل هذه الفكرة!

هذا ما تحتاج إليه أكثر من أيّ وقت آخر!

نعم، الأطفال يقضون أسبوعًا على الشاطئ وفي الأماكن التاريخية وفي الأسواق، يمارسون الرياضة ويقومون بالأعمال الفنّية والأشغال اليدوية.

رائع! رائع! رائع جدًّا!

أحاول ألا أشعر بالغيرة.

ساعة. هل يمكننا أن نفتح النوافذ أكثر؟ لا، فهي لا تفتح أكثر من ذلك.

اللعنة إذن على الذباب ومحادثات السلام.

ساعة وعشر دقائق. إشارة. يقرقع الجنديّ إصبعه فيضحك

سائقنا ويدير المحرّك. تتحرّك السيّارة عدّة أمتار إلى الأمام ولكنّ السائق يُؤمَر بالتوقّف. يُطفئ المحرّك

* * *

اعزف لنا على العود!

يتهلّل وجه مروان. ولكنّنا ندرك أنّه لا يوجد مكان، فكلّنا منسحقون، منسحقون، منسحقون.

أحملق في الرجال الجاثمين على الأرض بعيون معصوبة. هذا مشهد يبدو عاديًّا لدرجة أنّه لا يثير أيّ تساؤل لدى ركّاب الحافلة الصغيرة.

أتساءل عمّا فعل هؤلاء الرجال. لا يمكن أن يكون جرمهم شديدًا حيث لا يوجد سوى جنديّ واحد لحراستهم ولا يبدو أنّه مهتمّ كثيرًا. هل قُبض عليهم بأوراق مزوّرة؟ هذا الاحتمال يبعث بقشعريرة في جسمي حيث إنّ أمامنا نفس المهمّة لمحاولة دخول القدس.

ساعتان. الساعة الآن الثالثة.

نعس مروان فأخذ رأسه في التأرجح إلى الجانب وإلى الأمام. تنتفخ أوداج الشمس. لا توجد وجوه بيضاء أو سمراء. كلّ الوجوه حمراء. يحاول سامي تحريك نفسه على قدر المستطاع. أحاول أنا أن أعدّ عدد الخطوط في قميص راغب.

نرغم أنفسنا على الصبر. أتعجّب كيف أنّ الكثيرين من الناس يفوّضون أمرهم لله في الوقت الذي لا أستطيع أنا سوى أن أفكّر في طعن الجنود في عيونهم بنظاراتهم السوداء وإطفاء ظمئي بواحدة من كمَّثرى أبو جفار. تتعجّب موللي أيضًا ولكن لأسباب أخرى. أثناء حديث حول احتفال البارميتسفاه لابن أخيها تكشف أنّها لا

تؤمن بالدين. تجتاح الركّاب حالة من التوتّر فجأة.

«ولكنّك يهودية!»

«يا مولي اشكري الله الذي خلقك وسواك داخل رحم أمّك.»

«ماذا تقولين إذن عندما تؤذين إصبعك؟» يسألها سامي الذي يكره الكنيسة ولكنّه يؤمن بالله، مثلما أكره أنا المدرسة ولكنّني أؤمن بالتعليم.

تعترف مولي بأنّها تقول «يا رب» أثناء الأزمات أو عندما تؤذي إصبعها. يظهر الانتصار على وجه سامي «أنت إذن تؤمنين بالله!»

تصيح جريس: «نعم! نعم! نقطة جيّدة يا سامي!»

يتعجّب شخص في سعادة: «لقد قفشك!»

تلمع عينا مولي المجعّدتان بينما تقهقه وتقول: «كلامكم جميعًا يبدو كما لو كنتم يهودًا متشدّدين. ربّما كان بينكم وبينهم روابط أكثر منّي! إذا كان الله موجودًا فإنّ لديه أفضل محامين بالتأكيد يجلسون في هذه الحافلة.»

يقول سامي في حيرة: «ولكن لا يوجد محامون هنا. هل يوجد أيّ محام بيننا؟»

«مدرّس!»

«صانع زجاج!»

«مهندس!»

«طالب!»

تقول امرأة: «زوجة تشعر بالملل» فينفجر الركّاب ضحكًا.

أحملق في مولي وكلّي فضول لأنّني ألتقي لأوّل مرّة في حياتي بشخص غير مؤمن. تلاحظ حملقتي فتبتسم. لا أريد أن أبدو وقحة فأشرح لها أنّني كنت أحملق لأنها غير مؤمنة بدين وليس لأنّني أودّ

أن أُشعرها بالحرج. هناك شيء يعجبني في موللي، لها ضحكة واسعة كبيرة تبدو كما لو كانت تحاول الهروب من فمها الوردي المعوجّ. ولكن قبل أن تتمكّن من الإجابة يقطع سامي الحديث.

يقول سامي: «نعم ولكنّنا أثبتنا عكس ذلك يا حياة! لقد وقعت بلسانها ولا تستطيع التراجع الآن. كلّهم موجودونَ ومستعدّون للشهادة بأنّها تدعو الله عندما تؤذي إصبعها.»

تصيح موللي: «يا إلهي يا سامي! فعلًا معنا محام في الحافلة.»

ما زال سامي يعتقد أنّها عميلة للشاباك. هذا هو السبب الذي يجعله يحاول إخفاء التألّق المفاجئ الذي يعتري وجنتَيه.

طابور السيّارات الطويل يتزايد ويتحرّك في بطء. أحيانًا لا تحدث أيّة حركة. لا تُفحص أيّة أوراق، ولا تمرّ أيّة سيّارات إلى الداخل. الجنود واقفون حول المكان مثل موظّفين يشعرون بالسأم وربّما كانوا يتذمّرون لبعضهم البعض حول انخفاض رواتبهم أو إزعاج رؤسائهم.

نحن تحت رحمة مزاجهم. الانتظار ليس أسوأ من الشعور بالتجاهل.

رجل عجوز في حافلة أجرة تقف أمامنا مباشرة ينزل فجأة. يتّكئ بقامته الطويلة النحيلة على عصا.

يزمجر دافيد: «هذا يكفي. تعالي يا موللي وهاتي الكاميرا، لن يستطيعوا أن يلمسونا.»

بعض الناس يهلّلون بينما ينزل دافيد وموللي ويسيران صوب الجنود وكاميراتهما تتدلّى واضحة للعيان من عنقَيهما. أنظرُ إلى سامي الذي يتبع كلّ خطوة من خطوات دافيد وموللي. يعلو وجهه الارتباك والحيرة.

يسير الرجل العجوز في أناة نحو مجموعة الجنود الواقفين على مبعدة من الرجال معصوبي العيون. يتبعه دافيد وموللي. نراقب جميعنا المشهد في ترقّب وعصبية. الركّاب القليلون القادرون يُخرجون رؤوسهم من النوافذ المفتوحة للإصغاء.

يستدير جنديّ شابّ نحو الرجل ويأمره بالعودة مرة أخرى إلى الحافلة. يتوقّف الرجل ويرمق الجنديّ بنظرة طويلة ولدهشتنا يرفض الانصياع.

«هل هو عجوز مخرّف؟»

«فليتحدث إليه أيّ شخص!»

«انتظروا! انظروا!»

تبدو على الجنديّ المفاجأة. الجنديّان الآخران يبدو عليهما الارتباك. الرجل العجوز يطالب بأن يسمح للركاب بالنزول من الحافلة. مرّة أخرى يأمر الجنديّ الرجل العجوز بالعودة إلى الحافلة ولكن هذه المرة بنبرة ليّنة. يقف الرجل العجوز في تحدٍّ ويرفض. التوتّر واضح وملموس. يخطو دافيد وموللي إلى الأمام وهما يرفعان كاميراتهما نحو الجنود. يبدو على الجنود عدم الارتياح ويطلبان منهما إبعاد الكاميرات. يقف دافيد وموللي في ثبات. المشهد يبدو كما لو كان مسرحية صامتة.

بعد عدّة لحظات عصيبة يستجيب الجنديّ. يلوّح للرجل العجوز للابتعاد بحركة كلّها استخفاف. يبدو الرجل العجوز غير مستاء لهذه المعاملة المهينة. أنظرُ غير مصدّقة للطريقة التي يعود بها إلى الحافلة ويشير لجميع الركاب بالنزول. يفتح الباب فينهمر منه الركاب. يركض ثلاثة جنود وهم يصيحون: «النساء والأطفال فقط!» يبقى الرجال جالسين في أماكنهم وتلتقط عدسات دافيد

وموللي المشاهد. يتجاهل الرجل العجوز الأوامر ويقف مستندًا على الحافلة. الجنود لا يقتربون منه. واحد منهم يحملق في دافيد وموللي ويقول في صوت كلّه فحيح: «عودا إلى الانتحاريين أصدقائكما. خونة!»

يفتح سائقنا باب الحافلة ويشير إلى راغب بالخروج. أتبع جريس وموللي وأربع نساء أخريات وأنا أشعر بالذنب أن الرجال مرغمون على البقاء داخل الحافلة. سامي متردّد في البقاء مع الرجال أم النزول مع النساء. ولكنّ إغراء الهواء الطلق أقوى من مقاومته فينضمّ إليّ نازلًا.

يسألني: «هل الزجاجة لا تزال سليمة؟»

أفتح حقيبتي وأُخرج الزجاجة وأعرضها عليه. أقول له متباهية: «ولا خدش واحد! لو كانت معك ربّما كانت انكسرت. الأولاد دائمًا أشقياء.»

ينظر إليّ سامي مفتعلًا الغضب ويقبض على الزجاجة ويجلس القرفصاء على الأرض ويملأها بالتراب من الأرض بيديه العاريتَين. يقول لي وهو يملأ الزجاجة وأنا جالسة القرفصاء بجانبه: «عندي فكرة! دعينا نملأ زجاجة من كلّ مكان نقف فيه في هذه الرحلة. هذه زجاجة تحوي تراب نقطة تفتيش الكونتينر. وهذه تحوي تراب نقطة تفتيش القدس. ثمّ هذه بها تراب قرية جدّتك. يمكنها أن تضعها جميعًا فوق الرفّ في منزلها.»

يُحكِم سامي غطاء الزجاجة الممتلئة وبينما نهمّ بالنهوض يقترب منّا الجندي الذي أعطي أوامره للرجل العجوز ويطلب منّا رؤية جميع أوراقنا.

يتفحّص الجنديّ البطاقات والأوراق بهمّة مستخدمًا جهاز

الاتّصال لمراجعة بعض الأسماء مع شرطة الحدود. تتركّز عيناه أخيرًا عليّ عندما أقدّم له شهادة ميلادي. أنظر إلى عينَيه. أقول لنفسي: إذا سعلت سوف يصاب بطفح جلدي مفاجئ أو يقوم بحركات بهلوانية حول النقطة.

أسعل. لكنّه لا يقوم بأيّة حركات بهلوانية. ولا يصاب بطفح جلدي مفاجئ. أسعل مرة أخرى فيسألني عن السبب أنّني أسافر بمفردي. أشرح له أنّني أزور أسرتي في «أبو ديس» ثمّ أسعل ثانية. يعيد إليّ أوراقي ثمّ يتوجّه إلى سامي.

هذا هو الحال دائمًا مع سامي. يثير حنق الناضجين حتّى بدون أن ينبس بكلمة. مجرّد وجوده يبدو كما لو كان وقاحة متعمّدة. الطريقة التي يُميل بها برأسه والنظرة اللامبالية التي تحمل أحيانًا الاحتقار التي ينظر بها عبرهم وليس نحوهم. يقف سامي بصدره البارز يرمق الجنديّ أثناء تفحّصه لأوراقه. يقرأ الجنديّ شهادة ميلاد سامي ثمّ يكتشف أنّ نظرة الازدراء التي تعلو وجه سامي لم تتلاش. يبلغ اسم سامي عبر جهاز الاتّصال وسامي لا يزال يرمقه بعينَيه.

يسأله الجنديّ أثناء انتظاره للاستجابة من الناحية الأخرى من جهاز الاتّصال: «لماذا تسافر بمفردك بدون أبويك؟» يبدو على وجه سامي الضيق. نفس الضيق الذي كان يعاني منه المعلّمون في تعاملهم مع سامي.

يجيب سامي: «لأنّكم قتلتم واحدًا وسجنتم الآخر.»

تطرف عينا الجنديّ بشدّة. أسعل ولكن بلا جدوى. يحملق سامي في عينَي الجنديّ. يختفي الضباب من عينَي سامي ولا يتبقّى بها سوى لا مبالاة واضحة.

ينساب صوت من جهاز الاتّصال فيرفع الجنديّ حاجبه ويسأل سامي بنبرة تنمّ على أنّه لا ينتظر إجابة: «أنت إذن ابن سجين؟ وأين أنت ذاهب؟»

يقول سامي بعد فترة صمت طويلة: «أبو ديس.» ليس بإمكانه التظاهر بالذلة والهوان. صوته يفيض ازدراء.

«أرجو ألا تكون تفكر في أن تصبح إرهابيًّا مثل والدك!»

يردّ سامي بقوة: «هو بطل.»

فجأة يُمسك الجنديّ بالزجاجة من يد سامي ويرفعها إلى وجهه ليتفحّصها.

«وما هذا؟»

«أرضي.»

ينزل الجندي ليصل إلى مستوى وجه سامي. عينا سامي لا يمكن سبر أغوارهما وهو يسلّط نظراته الحجرية نحو الجنديّ. ولكنّني ألاحظ يدَيه بجانبه. كانتا ترتعشان.

يرفع الجنديّ قامته وينظر إلى سامي ثمّ يلقي بالزجاجة إلى الأرض فتتهشّم. يدا سامي المرتعشتان تتحوّلان إلى قبضتَين.

يقول له الجنديّ بهدوء: «إذا كنت رجلًا فمرحبًا بك مع الرجال داخل السيّارة. أمّا إذا لم تكن فانتظر هنا في الخارج مع النساء والأطفال. أترك لك حرّية الاختيار.»

يبتسم في زهو وخيلاء وهو يدير ظهره إلى سامي متوجّهًا ناحية الشخص التالي. ينظر سامي إلى القطع المتناثرة من الزجاج فوق الأرض أمامه وينظر إلى درجات الحافلة ثمّ النساء والأطفال المحتشدين خارجها.

تتهاوى كتفه كما تتلاشى نظرة الصلابة والتحدّي في عينَيه ليظهر

بدلًا منها تعبير بالهزيمة والخزي.

أسيرُ بجانبه. أقول له وأنا أحاول التظاهر بالمرح: «يا سامي نحن في فلسطين! هناك زجاجات الحمّص في كلّ مكان!»

يزمجر وهو يستدير بعيدًا عنّي.

١٥

يُسمح لبعضنا أخيرًا بالمرور ومنهم سامي وأنا، ويُمنع آخرون.

الذين سُمح لهم بالمرور يأخذون أماكنهم في الحافلة. وحيث إنّ بعض الركاب قد مُنعوا فإنّ الأماكن تصبح أكثر رحابة. يدير سائقنا المحرك ويتململ في مقعده نافد الصبر. نقترب ببطء من البوّابة الفولاذية. تحرّك جندية البوابة ثمّ تحرّك إصبعها للإشارة بالتصريح لنا بالمرور.

انتظرنا في نقطة تفتيش الكونتينر لمدّة تزيد على ساعتَين ونصف.

تبدأ مثانتي في النبض. تستصرخني، تهدّدني بالإهانة، تستعطفني

بأنّ الاحتلال ليس من شأنها. أناشدها أن تتفهّم موقفي وتتوقّف عن النبض.

يقلقني أنّني لن أتمكّن من الوصول إلى المرحاض. هذا إلى جانب التأخير بشكل عام. وصولنا من المدرسة متوقّع خلال فترة قصيرة وغيابنا سوف يثير الذعر. وحيث إنّ آخر نقطة توقّف للحافلة هي بلدة «أبو ديس» أقرّر أنّنا عندما نصل هناك سوف أجد مرحاضًا ثمّ أطلب المنزل بالهاتف. أنا قلقة لأعرف أحوال ستّي زينب.

الغريب في الأمر أنّنا في الواقع أقلّ من ستّة أميال من البيت. بالنسبة للذين يحملون البطاقات الزرقاء فإنّ السيّارة لا تستغرق سوى دقائق قليلة لتقطع هذه المسافة. ومع ذلك أشعر كأنّني سافرت إلى دولة أخرى.

تمرّ السيّارة بنا عبر قرية السواحرة. المثانة تُصدر لي تحذيرات أخيرة فأصرخ للسائق بإيقاف السيّارة والسماح لي بالنزول. نظرة واحدة نحو وجهي الذي تعلوه حبيبات العرق ويلتوي من الألم تقنع السائق بالموافقة. أقفز إلى أقرب متجر للخردوات. أدخل راكضة نحو المكتب. أستعطف مالكة المتجر لتسمح لي باستخدام المرحاض. توافق. الراحة التي أشعر بها طاغية.

أعود إلى الحافلة ونواصل رحلتنا إلى بلدة «أبو ديس» القابعة تحت جبل الزيتون. يستدير السائق في الطريق ويكاد يصطدم بعربة أجرة وبصبي يبيع المشابك وببقال يبدو كما لو كان غافيًا. لا تهتزّ لي شعرة حيث إنّني عبرت خلال وادي النار من قبل.

أهمس بصوت خافت «القدس» وأنا أضغط أنفي على النافذة. تنقبض معدتي بينما أنظر حول مدينة القدس المقدّسة والتلال الخضراء التي تتناثر فوقها أشجار الزيتون المحيطة بها. أُدرك فجأة

أنّ هناك نبلًا وشرفًا في الحفاظ على تراثنا وفي قدرتنا على استلهام هويتنا من التلال الصخرية والطرق الجبلية الملتفة. لم تتوقّف قرية ستّي زينب في ندائها ومناشدتها بالعودة إلى بيتها. روحها تحمل ختم هذه التلال. شعرتُ بوجود ستّي زينب بقوّة كما لو كانت واقفة فوق قمّة أحد هذه الجبال.

أخبرتني ستّي زينب ذات مرّة: «حضرت عرسًا في «أبو ديس» مرّة عندما لم يكن السفر بهذه الصعوبة. ستغضب أمّك منّي عندما تعرف أنّني حكيت لك تلك القصة ولكن هذه هي وظيفة الجدّة. كان اسم العريس حسني ولكن بعد الزفاف بعدّة أسابيع أصبح اسمه أبا عدس ولم يطلق عليه أحد اسم حسني بعد ذلك.

«قرّر أبو عدس أن يتزوّج امرأة ثانية لأنّه كان يشعر بالملل من زوجته الأولى. كان حمارًا يا حياة، يستغلّ الدين أبشع استغلال، ولكن هذه هي الحياة والرجال بلا عقل.

«كانت زوجته الأولى لارا في التاسعة والثلاثين من العمر وكان شعرها طويلًا ينساب حتّى خصرها ولها عينان بنّيتان رائعتان. العروس الجديدة فاطمة كانت من نابلس وكانت عيناها زرقاوين وشعرها أصفر وكانت في الثامنة عشرة من العمر. كانت يتيمة ربّتها عمّة والدها. لم تشعر لارا بأيّ تعاطف معها، فلقد كانت غاضبة وأخذت عهدًا على الانتقام. أصرّت لارا على حضور الزفاف ولم تترك حلبة الرقص مطلقًا ورقصت حول العروسَين وهي تصفّق بحرارة وتزغرد. كانت تضحك وتهلّل واعتقدنا جميعنا بأنّها أُصيبت بلوثة. هذا الحمار نجح في أن يجعل منها مجنونة في النهاية.

«أذكر جيّدًا أنّها كانت تمضغ علكة بقوّة خلال الأمسية كلّها. كلّما ارتفع تصفيقها زادت حركة شدقها كما لو كان غضبها يتوجّه

إلى قطعة العلكة التي تمضغها بين أسنانها. ولكنّ عقلها كان يدبّر خطّة كما عرفنا فيما بعد.

«بعد حوالي أسبوع من الزفاف ذهبت لارا إلى المطبخ في منتصف الليل وقامت بطهي حساء العدس. أنا أعرف أنّك لا تحبّين العدس ولكن تلك مشكلة أخرى. لساعات طوال أخذت تغلي العدس حتّى انسكب أخيرًا من حافّة الإناء وصدرت عنه رائحة نتنة فظيعة. هل تعرفين تلك الرائحة؟»

أومأت برأسي وأنا أتشمّم بأنفي.

«بينما غطّ العروسان في النوم تسلّلت لارا إلى غرفتهما وسكبت السائل البني الغليظ تحت مؤخرة العروس مباشرة فاتّسخ قميص النوم الأبيض الساتان الذي ترتديه العروس، وهنا توقّفت لارا لتبتسم لنفسها.»

«كيف عرفتِ أنّها ابتسمت لنفسها؟»

تجهّمت ستّي زينب وقالت: «حكت لارا هذه القصّة كثيرًا لدرجة جعلتنا نشعر أنّنا كنّا معها في تلك الحجرة. على أيّ حال ألم تكوني تقفين وتبتسمين لنفسك إذا كنت تنتقمين من الحمار زوجك؟»

«أعتقد ذلك. ولكنّني أشعر بالأسف نحو فاطمة. لم تكن غلطتها.»

هزّت ستّي زينب كتفَيها. «هذه هي الحياة والآن دعيني أكمل. تركت لارا العروسين وعادت إلى فراشها. استيقظت بعد ذلك بعدّة ساعات على صوت زوجها وعروسه يصرخان في رعب وهلع. اندفعت نحو الغرفة وشعرت بقمّة السعادة وهي تنظر إلى المشهد. وقف زوجها وهو يشير في اشمئزاز إلى عروسه.

أخذ يردّد مرّات ومرّات مستنكرًا: «العروس أوسخت نفسها!» نظرت العروس المسكينة خلفها في ذعر، ولكنّها كانت غبية في رأيي، فلم يسمح لها خوفها أن تتّهم لارا بهذه الفعلة، فغطّت وجهها من الخزي والعار.

«الحمار طلّق فاطمة فعادت إلى نابلس مرّة أخرى امرأة مطلّقة لديها عينان زرقاوان وشعر أصفر. منذ تلك اللحظة كانت لارا فقط تأمره أن يقفز فيسألها من أيّ ارتفاع؟ تلك هي قصّة أبي عدس ويجب أن تقسمي بأنّك لن تخبري أمّك أنّني حكيتها لك.»

يضغط السائق فجأة على الفرامل حيث قطع طريقنا مهر يبدو عليه السأم ويتمشّى في كسل على الطريق ثمّ متّجهًا نحو ساحة خلفية منحدرة لمنزل.

يستدير دافيد وموللي في مقعدَيهما ليجلسا في مواجهة سامي وأنا.

يقول دافيد: «المنظر جميل هنا، أليس كذلك؟»

أومئ برأسي فى خجل. ينظر سامي إلى دافيد ثمّ يبعد نظره عنه بشيء من الوقاحة.

تسأل موللي: «أين أنتما ذاهبان؟»

أجيبها: «القدس. إلى قرية جدّتي.» يريدان سماع المزيد فأقول لهما عن خططنا بدون أن نذكر لهما الحقيقة المقلقة أنّ أسرتنا لا تعرف أين نحن.

يقرّر سامي أن يُجمّل القصّة بإضافة أنّ أسرتنا «أرسلتنا.»

سأل دافيد: «ولكن هل معكما الأوراق اللازمة للدخول؟»

يردّ بهدوء: «سوف ندخل بغضّ النظر عن الأوراق الملعونة.»

أخرج صورة لستّي زينب: «هذه الصورة التقطت يوم وُلدتُ

أنا»، أشرح لهما وأنا أعطيهما الصورة. «الرضيعة بالوجه الشقي هي أنا». أبتسم.

تعلّق موللي أنّ ستّي زينب تبدو لطيفة على الرغم أنّ جدّتي تحملق بوجه جامد مثل الحجر في الكاميرا كما لو كان غياب الابتسامة سوف يضفي مكانة ورزانة لصورتها.

قلت لهما وأنا أضحك: «لو كانت قابلتكما كانت ستلعنكما وأسلافكما».

يرفعان حاجبَيهما: «كم هذا مشجّع!»

«ولكنّها لا تعني ذلك. قالت ذلك بنفسها. قالت إنّنا جميعًا نضحك بنفس الطريقة... هل تريدان أن تأتيا معنا؟ قلتما أنّكما ذاهبان إلى القدس.»

يخبطني سامي في جانبي ويطلب من دافيد وموللي أن يضعا إصبعيهما في أذنيهما حيث إنه يريد التحدث عنهما ولكنه لا يستطيع ذلك بسبب تمكنهما من اللغة العربية.

تسأله موللي وفمها يرتجف: «أنت لا تثق بنا إذن أليس كذلك؟»

يهزّ سامي كتفه ولا يجيب. اندفاعه لا يفتأ يدهشني. الأكثر إدهاشًا لي هو أنّ موللي ودافيد يرفعان إصبعَيهما في تسامح إلى أذنَيهما. ينظران إلينا والسبابة تدخل في جانب الرأس وابتسامة معوجّة على وجهيهما.

أسأله بهدوء: «ما المشكلة؟»

«لقد أتينا حتّى هذا المكان بمفردنا. لسنا بحاجة إلى أشخاص ناضجين معنا، فما بال بأشخاص يُحتمل أن يكونوا عملاء.»

«ليسوا عملاء يا سامي. أنا أُعجب بهما ويستطيعان مساعدتنا.»

نتجادل في نبرات خفيضة لعدّة لحظات. يوضّح سامي فكرته بأنّه يعتبرهما جاسوسَين متخفّيَين وأنا أنعته بصفات عديدة كلّها تعني أنّه مصاب بجنون الارتياب.

ينفخ في استياء. أشبك ذراعي على صدري وينظر دافيد ومولّلي صوبنا من أماكنهما الحصينة. أكسب النقاش لأنّ سامي قد يكون عنيدًا مع الجميع إلا معي. أكّدت له مرّة أنّني سوف أبلغه عن أيّ نشاط جاسوسي أعرفه. نتّفق أن ندعوهما فأشير إلى دافيد ومولّلي برفع إصبعَيهما.

يسألنا دافيد في طيبة: «ما المشكلة إذن؟»

«إذا أردتما... إذا لم تكونا مشغولَين... نرحّب بكما للذهاب معنا إلى القدس.»

يرحّبان بالاقتراح. أتهلّل أنا ويزمجر سامي. تتوقّف الحافلة عند موقف سيّارات أجرة وننزل جميعًا. يومئ مروان برأسه وداعًا لراغب وجريس ويصافح دافيد ومولّلي.

ثمّ يستدير ناحية سامي وناحيتي وسمّاعات الأذن ما زالت متدلّية فوق صدره والعود تحت إبطه.

يقول برقّة: «لا توجد حرب في الموسيقي، تذكّرا ذلك.» يغمز لنا ويبتعد عنّا. يخبط بحذائه الأسود المدبّب الطريق المترّب.

ننتظر حافلة تأخذنا إلى العيزرية. نقف أعلى منحدر ترابي تصطفّ على جانبَيه منازل من الحجر الجيري الأبيض وعمارات سكنية تزيّن أسطحها هوائيات التلفزيون وخزّانات المياه. تعرض مولّلي علينا استخدام هاتفها النقّال ونحن ننتظر. نقف سامي وأنا على جانب الطريق وأطلب أنا البيت أوّلًا.

تردّ چيهان فتنقلب بطني من الرعب خشية أن يُقبض عليّ أو أن

أُومر بالعودة، ومن الحنين للعودة مرّة أخرى إلى أمان البيت.

«چيهان؟ هذه أنا. كيف حال ستّي؟»

«أين أنت؟ إذا كنت تلعبين مع سامي سوف أخنقك عندما تعودين! بابا وماما يتركانني مسؤولة عنك فتقرّرين العودة متأخّرة من المدرسة!»

بعد أن أهدّئ من غضبها بقصة عن تمرين الدبكة تخبرني أنّ ستّي زينب قد وصلت لتوّها إلى المنزل.

«هل هي على ما يرام؟»

«نعم، ولكنّها فقط ضعيفة ومنهكة.»

أطلب من چيهان أن تطمئن ستّي زينب أن معي مفاجأة لها ولكنّ چيهان تقطع الخطّ بسرعة لأنّ أحمد يحاول الاتّصال بها على هاتفها النقّال.

مكالمة سامي مع عمتو كريستينا أسرع، فهو يطمئنها فقط أنّ تمرين الدبكة سوف يسمح له بأن يعود في الوقت المناسب للعمل التطوّعي في الكنيسة، ثمّ يغلق الخط.

«أشكّ في أنّك ستعود في الوقت المناسب.»

يبتسم: «نعم، أعرف.»

«نحن مجانين. أنظر إلى الوقت. لقد تخطّى الرابعة ولم ندخل القدس بعد.» أرفع رأسي للسماء وأتنهّد قائلة: «حتّى إذا نجحنا في الوصول إلى قرية ستّي زينب وبطريقة أو بأخرى نستطيع العودة فلن نصل إلى المنزل قبل الليل.» أرتعد وأنا أقول: «هل تعرف شيئًا؟ أعتقد أنّني أكثر رعبًا من ردّة فعل ماما من أن يُقبض عليّ.»

يقول سامي بتفكّر: «عندك حقّ. والدتك مخيفة. ولكن لا يهم، لا تقولي لي إنّك تريدين العودة الآن؟»

«طبعًا لا.»

«ماذا تقولين إذن؟»

«ماذا تعني؟»

«عن والدتك؟ ماذا تعنين؟»

«أقول لك فقط كيف أشعر.»

تبدو على سامي الحيرة: «لماذا؟»

أقول له وأنا أتوجّه مرّة أخرى إلى دافيد ومولي: «بالله عليك! أحيانًا تكون أبله.»

يصيح: «ولكنّ رأسي على الأقلّ مربوط في مكانه الصحيح.»

١٦

نستقلّ حافلة أخرى. يسرع السائق عبر الشوارع ثمّ يأخذ طريق العيزرية. كان وسيم قد أوضح لنا أنّ الطريق الرئيسي للعيزرية يوصل إلى طريق القدس - أريحا، وأنّه خلال دقائق قليلة يمكننا أن نصل إلى المدينة القديمة. يقفز قلبي عندما أدرك مدى قربنا. ما كان يبدو مستحيلًا منذ بضع ساعات فقط أصبح الآن قريبًا بالدرجة التي أشعر فيها بالتربة فعلياً تنساب من خلال أصابعي.

أتساءل كيف يبدو منزل ستّي زينب بعد كلّ تلك السنوات. هل ستعاني القرية من الإهمال وتشعر بالحنين إلى أصحابها؟ لا

أستطيع حتّى أن أتخيّل أنّ أسرة يهودية من بولندا تعيش في بيت ستّي زينب.

تواصل الحافلة سيرها. دافيد لا يعجبه الصمت ولكن يبدو أنّ الصمت لا يضايق موللي. أمّا سامي وأنا فلا نشعر بالحاجة إلى الحديث إلا إذا كنّا نريد أن نقول شيئًا. يستدير دافيد ليواجهنا. يسألنا أن نحكي له عن حياتنا. أتساءل من أين أبدأ. ماما تقول إنّها شعرت بي أخبطها في بطنها عندما كانت في شهرها الخامس من الحمل، على الرغم أنّ بابا يُرجع هذا الحدث المزعوم إلى طبق من الفلافل تناولته ماما في ساعة متأخّرة من الليل. يمكن أن أخبرهم عن الوقت الذي سقطت فيه على الأرض أثناء عرض للدبكة في المدرسة وركضت إلى خارج المسرح وأنا أبكي. أخذني بابا مع أصدقائي لنأكل الآيس كريم بعد الحفل وأخبرهم عن مدى فخره واعتزازه بي. ويمكن أن أقول لهم عن الوقت الذي تجشّأت فيه ماما بصوت مرتفع عندما جاء أحمد ووالداه لطلب يد چيهان ثمّ ألقت عليّ اللوم لهذا الحدث المسيء. ولكن بدلًا من كلّ ذلك سوف أخبرهم عن خطط زفاف چيهان وكيف بدأت ماما في إعطائها العقاقير.

يسألني دافيد في دهشة: «ماذا تعنين بالعقاقير؟»

تحملق موللي في وفمها فاغر. أشرح لهما أنّني رأيت چيهان تبتلع حبّة صغيرة كلّ مساء وأنّ ماما كانت تحاول كثيرًا أن تذكّر چيهان لتأخذ الحبّة في نفس الوقت كلّ يوم. أضيف: «ولكنّ ستّي زينب غير موافقة، وتقول إنّه من السخف الانتظار وإنّه من الأسهل أن يكون الإنسان صغير السنّ، ولكنّني لا أعرف على أيّ حال. أعتقد أنّ ذلك يعتمد على نوع المرض. هم يرفضون التحدّث معي عن

هذا الموضوع ويصرّون أن أظلّ بعيدة عن أمور الكبار، ولكن هذا سخيف لأنّه على الرغم من أنّ چيهان كثيرًا ما تضايقني فهي لا تزال أختي. أعني أنّه عندي الحق أن أعرف لماذا يجعلها الزواج من أحمد تمرض.»

يتبادل دافيد وموللي نظرة تجعلني أشكّ أنّ الضحك يتراقص في عيونهما. يدلي سامي بدلوه فيقول إنّه إذا كانت چيهان مريضة وتحتاج إلى دواء يومي فربّما كان من الأجدر بها ألا تحاول أن تنقّص وزنها فيقول: «يجب أن تحافظ على طاقتها».

يتوجّه دافيد بعد ذلك إلى سامي غير مدرك أنّه من الأسهل له أن يحصل على معلومات من تمثال. ولكنّ سامي لا يتحدّث مع أحد سواي. ومع ذلك فإنّنا نادرًا ما نناقش أيّ موضوع شخصي. يقابل سامي تودّد دافيد بشيء من الترفّع. يقول له دافيد: «أنا مُغرم بكرة القدم.»

من المؤلم مشاهدة دافيد وهو يحاول التودّد إلى سامي. أنا أعرف بالطبع أنّ سامي لن يفصح عن الكثير لأشخاص يعتقد أنّهم من عملاء الشاباك. ما لا أعرفه هو أنّ دافيد يدرك المشكلة أيضًا.

يقول في نبرة رقيقة: «لسنا عملاء يا سامي.»

تصرخ موللي: «عملاء؟ هاه!» وتخبط يدها على ساقها وتضحك بصوت مرتفع.

يغضب سامي ويحمرّ وجهه فيأخذ لون الكرز.

«كان من المفترض أن تغلق أذنَيك! هذا غشّ!»

«آسف ولكنّني أنظّف أذنَيّ باستمرار يا سامي.» هذا ما يقوله دافيد وهو يبتسم. «لم يكن بهما صمغ ليمنع صوتك.»

يشبك سامي ذراعَيه فوق صدره ويزمّ شفتَيه في غضب ويقول:

«حسنًا! من حقّي أن أفكّر كما أحبّ.»

تقول له موللي في طيبة: «تستطيع أن تثق بنا يا سامي.»

يُخرج دافيد مظروفًا به صور من حقيبته ويقول: «انظر إلى هذه الصور.»

يأخذ سامي المظروف ويقلّب الصور ببطء. أميل ناحيته حتّى أرى الصور أيضًا. في الصورة الأولى جرّافة تقف أمام منزل. دافيد مستلّق على الأرض أمامها مع أربعة أشخاص آخرين. في صورة أخرى دافيد يجرّه جنديّ. الصورة التالية: موللي ودافيد يأكلان على مائدة أسرة فلسطينية والجميع يبتسمون للكاميرا. وبعدها: صورة جماعية لأطفال ورجال ونساء فلسطينيين ودافيد وموللي أذرعهم متشابكة وهم واقفون أمام مركز الرواد للتدريب الثقافي والمسرح في مخيّم عايدة.

وأخيرًا: موللي واقفة بين جنديّ ورجل يرتدي الغطرة. من الواضح أنّ موللي تجادل الجنديّ ويداها مرتفعتان إلى أعلى، وخصلات شعرها متطايرة بجنون في الهواء.

يعيد سامي الصورة إليهما ويقول «إنها... لطيفة» في صوت خفيض متجنّبًا التقاء الأعين.

ليست لطيفة فقط. إنّها رائعة.

أسأل موللي: «أخبرينا إذن عن حياتك.»

تميل برأسها إلى الجانب وتبتسم: «أو... حسنًا! أنا مغرمة بالشوكولاتة. كلّ صباح أكتب قائمة بما ينبغي لي عمله وعادة لا أنفّذ أيًّا منها. عندي كلبة رائعة اسمها ميسي.»

يسأل سامي: «أين تعيشان؟»

«نيويورك.»

«هل أنت ودافيد زوجان؟»

«نعم.»

«أين التقيتما؟»

«هل كان حبًّا من أوّل نظرة؟»

«هل دافيد ملحد؟»

«ماذا يفعل اليهود أيّام السبت؟»

تضحك موللي ودافيد.

موللي تقولي: «على مهلكما.»

سامي يقول: «طيّب! سؤالي أنا أوّلًا!»

«تَقابلنا في حفل عيدِ ميلاد صديق.»

«أعجبني شعر موللي المتموّج. كان مجنونًا. كان إعجابًا من أوّل نظرة.»

«لا يا سيّدي!» تصرخ موللي وتضربه مداعبة في ذراعه: «لن تخرج منها بكلّ هذه السهولة. اعترفت لي أنّك جننت بي أوّل مرّة وقعت عيناك عليّ.»

«هناك قانون حول تكرار هذا النوع من المعلومات، أنت تعرفين.»

أسأل: «أين كان الحفل؟»

«كان حفلًا شاطئيًّا في كاليفورنيا. كان دافيد يرتدي ثيابًا مضحكة. قميص به ورود من نوع الهاواي مع شورت وجوارب وأحذية رياضية باللون الأصفر الفاقع! كان يربط شعره كذيل الحصان مثلما يفعل الآن ولكنّه كان يرتدي أيضًا رباط رأس.»

يسأله سامي غير مصدّق هذه الصورة: «لماذا كنت ترتدي ثياب البنات؟»

«هيه! كلّ الناس قالوا إنّني كنت آخر موضة.»

موللي تبتسم لنا. «حسنًا، كان شكله في الواقع لطيفًا جدًّا. غريب ولكن على الموضة.»

«هل لديكما أطفال؟»

«لا.»

يقول سامي بدون رتوش: «الأفضل أن تسرعا لأنّكما كبار في السنّ بالفعل.»

يضحك دافيد: «نحن في الأربعينيات من العمر فقط.»

يقول سامي بجدّية: «هذا ما أقوله بالضبط.»

فجأة تصيح موللي: «أوه، لا!»

ينحرف السائق إلى جانب الطريق ويغلق المحرّك. ألوي عنقي وأنظر إلى الأمام. الطريق أمامنا وصل إلى مانع مفاجئ. جدار خرساني ارتفاعه متران تعلوه أسلاك شائكة، يمتدّ على مرمى البصر من اليمين إلى اليسار ويقف عبر الطريق شكل سدّ هائل من الإسمنت. يقف حوالي نصف دستة من سيّارات الأجرة وعربات النقل الجماعي بشكل عشوائي أمام الجدار ويستند السائقون على عرباتهم يدخّنون ويتكلّمون.

يغمغم دافيد وهو يهزّ رأسه في يأس: «يا الله...»

يتأوّه سامي: «والآن ماذا نفعل؟»

يفتح السائق الباب وينزل باقي الركّاب. عندما نظلّ نحن الأربعة جالسين في أماكننا يستدير لنا ويقول: «هيّا. آخر محطّة.»

أسأل وأنا أقف بسرعة: «ولكن ماذا نفعل؟ نريد الذهاب إلى القدس.»

يطلق السائق ضحكة خشنة ويشير إلى خارج النافذة: «كما ترون.»

يقول سامي: «ولكنّ المفروض أن يأخذنا هذا الطريق إلى طريق القدس - أريحا.»

يرتفع حاجبا السائق الكثيفان فوق وجهه المستدير الذي لفعته حرقة الشمس في دهشة: «عمّ تتحدّثان؟ هذا الوقت انتهى منذ زمن طويل.»

يقول سامي: «ولكنّنا اعتقدنا أنّ هذه الحافلة ستأخذنا إلى هناك.»

يصيح السائق وقد نفد صبره: «ماذا قلت لكم؟ الجدار موجود الآن! والآن ياللا! لدي موعد أريد أن أصل لألحقه.»

نسير نحو مجموعة سيّارات الأجرة وحافلات النقل. أنظر إلى طول الجدار الممتدّ إلى جانبنا. من الواضح أنّه لم يُستكمل بعد حيث إنّ الكتل الرأسية ليست متساوية الطول. الصخور والكتل الخرسانية والأحجار المنقوشة بالكتابة متناثرة وملقاة بشكل عشوائيّ أمام الجدار. الأرض متربّة ورمادية اللون، النفايات وبقايا البناء تنتشر في كلّ مكان. كلمات حي العيزرية مكتوبة بطلاء أحمر فوق قطعة حجر خرساني.

بينما نقترب من مجموعة سيّارات الأجرة وحافلات النقل الجماعي تهجم علينا أسراب السائقين بصيحات تملأ الفضاء.

«عندي تكييف هواء!»

«سيّارتي نظيفة.»

«تخفيض! أعطيكم تخفيضًا!»

يحيطون بنا وعيونهم تستجدي أن نختارهم، كانوا مثل طيور النورس الجائعة وهي تصيح.

يرفع دافيد يده إلى أعلى ويشير لهم بالسكوت ويقول: «نريد

الذهاب إلى القدس. كيف نستطيع ذلك؟»

«هذا يعتمد على نوع تصريح المرور معكم!»

«نحن نسافر بجوازات أجنبية ولكن معنا صديقَين هنا.»

يعجب السائقون بقدرة دافيد على التحدّث بالعربية بطلاقة فيبتسمون له ابتسامة اعتزاز.

«حسنًا! سوف تمرّان من خلال نقطة التفتيش بسهولة ولكن هل هما من الضفّة الغربية؟»

«نعم ولكنّنا نريد السفر معهما.»

يقول سائق: «سآخذك يا صديقي.»

يُصرّ آخر: «سآخذه أنا.»

تقول موللي: «يا زلمة قل لنا فقط كيف يمكننا الذهاب هناك أوّلًا.» استخدام موللي للغة العامية يجعل جميع السائقين يتهلّلون في سعادة. فتقول لهم: «أخبرونا بالضبط كيف نذهب. لا نريد مفاجآت.»

يقول لها رجل بعد أن يمطرها بوابل من المديح لقدراتها في العربية: «تذهبون بالسيّارة أوّلًا إلى نقطة تفتيش مستوطنة معاليه آدوميم. وبعدها تستديرون وتتّجهون إلى نقطة تفتيش عازيم. ومنها إلى التلّ الفرنسي ثمّ إلى القدس الشرقية. ولكن هذَين الصبيَّين لن يستطيعا المرور.»

يصيح سامي وهو يقذف بيدَيه في الهواء: «أووف! أشعر بالغثيان من كلّ هذا السفر!»

يسأل دافيد: «القدس الشرقية على بعد دقائق، أليس كذلك؟»

يردّ السائق بنبرة واقعية: «نعم، إنّها على الجانب الآخر من هذا الجدار.»

تسأل موللي بنبرة محبَطة: «ولكن كم من الوقت نحتاج بسيّارة الأجرة؟»

عدّة أطر زمنية تقدَّم وينفجر جدل حول أيّ الاحتمالات المتعدّدة ستستغرق وقتًا أقلّ. وفي النهاية هناك اتّفاق حول تقدير يصل إلى خمس وأربعين دقيقة إلى ساعة.

سامي وأنا نشعر بالغثيان ونحن نصغي إلى الكبار الجالسين القرفصاء بجانب دافيد وموللي. عيون السائقين تنظر إلينا وتحدّق في سامي وفيّ.

يسأل رجل وهو يحكّ ذقنه: «ولماذا تسافران مع هذَين الصبيَّين؟ هل تريدان تهريبهما إلى الداخل؟ إلى مستشفى أو شيء من هذا القبيل؟ سمعت بأشياء مثل هذه تحدث. ربّما - لوجه الفتاة؟»

أدفن ملاحظاته في داخلي ثمّ أطرد أصوات موللي ودافيد وهما يتناقشان في أفضل طريق نسلكه مع السائقين. أدير رأسي إلى جزء الجدار المختبئ وراء السيارات. ألاحظ امرأة بدينة ترتدي قميصًا أخضر وبنطلونًا أسود وحجابًا أخضر وتقف مستندة على الكتل الخرسانية أمام مجموعة من الصخور والكتل الحجرية التي وضعت فوق بعضها لتشكل درجات سلّم صغيرة. ذراعا المرأة متشابكتان بشكل عفوي فوق صدرها. تضحك وتداعب امرأة أخرى ترتدي عباية سوداء وحجابًا أحمر قانيًا وصندلًا صيفيًّا مفتوحًا بنّي اللون. الأخيرة تضع راحة يدها على الجدار بينما تحاول المناورة بجسدها الضخم فوق الدرجات واليد الأخرى ممتدّة إلى الهواء من أجل الاتّزان. يتبعني سامي خلفي مباشرة.

تطلق المرأة بالعباية السوداء ضحكة عالية وتقول لصديقتها إنّها

شقية لأنّها تشاهدها وهي تحاول أن تخطو فوق الصخور مثل طفل في الملعب.

«أرينا ساقَيك، ياللا، أرينا» تقول المرأة بينما ترفع صديقتها العباية إلى ركبتها وتحاول الصعود. من تحت العباية ترتدي جوارب طويلة سوداء وتضحك لصديقتها وهي ترمق الرجال من الخلف متجمعين حول عربات النقل الجماعي.

أشاهد منظر السيّدة متوسّطة العمر وهي تحاول صعود الجدار ولا أكاد أصدّق عينَيّ. وعندما نجحت في الوصول إلى أعلاه تبدو مثل شخصية كاريكاتورية وتصرخ: «أنا خائفة! لا توجد درجات أنزل عليها.»

«نادي أحدًا يساعدك.»

تنادي المرأة من الجانب الآخر: «يا بنات! الله يرضى عليكم، ساعدوني!»

تتشبّث المرأة بموقعها في أعلى الجدار ثمّ بعدها تقفز من فوقه وتصدر عنها صرخة وهي تهوي. تبحث صديقتها عن هاتفها النقّال وتطلبها صائحة فيه: «نجوى! هل كسرت عنقك؟ لا؟ كلّه تمام. الحمد لله. نعم! سوف أراك الساعة السابعة. ياللا السلام عليكم!»

تستدير المرأة وتعلّق حقيبتها على إحدى كتفَيها وتبدأ في السير مبتعدة.

أقطع سيرها وأقول: «من فضلك! أين ذهبت صديقتك؟»

تبدو عيون المرأة الخضراء كما لو كانت غارقة في وجهها الممتلئ.

تتفرّس وجهي ثمّ تبتسم: «إلى رأس العمود.»

سألها سامي: «هل تعنين القدس الشرقية؟»

تومئ برأسها وتوضح لنا أنّ صديقتها نجوى لديها موعد ولن تتمكّن من الذهاب إليه في الوقت المناسب إذا ذهبت بالنقل الجماعي. وحيث إنّ الجدار بشكله الحالي المؤقّت لا يزيد على مترين فقط فالناس يتسلّقونه ليتجنّبوا الطريق الملتفّ الطويل. ويبدو أنّ الجنود يتغاضون أحيانًا عن هذه الأفعال. المسألة ترجع إلى الحظّ.

أنا وسامي نقرّر أنّنا نفضل أن نجرّب حظّنا وندخل القدس الشرقية في دقيقتَين بدلًا من الخيار الأكثر أمانًا بالذهاب بسيّارة أجرة فتحتاج رحلتنا لساعة أو أكثر.

يتفكّر سامي: «وعلى أيّة حال، حتّى إذا ذهبنا من الطريق فليس لدينا بطاقة المرور الزرقاء لندخل نقطة التفتيش. من الآن فصاعدًا علينا أن نتحرّك بطريقة غير شرعية.»

نادي دافيد ومولّي إلى جانبنا. يناشدوننا أن نأخذ عربة النقل الجماعي ولكنّهما ما إن يدركا أنّ سامي وأنا لن نغيّر رأينا يقرّران القفز معنا من فوق الجدار.

نقف أمام الجدار وتباغتني فكرة. إذا عبرنا الآن سوف ندخل القدس بطريقة غير شرعية. أفكّر في ستّي زينب وفي ماما وبابا وأشعر فورًا بالذنب فأنا أعلم مدى غضبهم وخوفهم إذا عرفوا ما أنوي عمله. أُبعد مثلِ تلك الأفكار من رأسي.

يُصرّ دافيد أن يبدأ أوّلًا، ويقول: «لأتأكّد أنّه لا يوجد جنود على الجانب الآخر.»

يتجمّع بعض سائقي سيّارات الأجرة في حشد ليشاهدوننا في تعجّب بينما يدخّنون ويصرخون بتعليمات متناقضة حول تسلّق الجدار والهبوط منه.

يقول شخص: «صبي كسر ظهره من عدّة أيّام. توخّوا الحذر.»

يتمتم سامي: «هذا ما كنّا نحتاج إلى سماعه.»

يعرض عليّ دافيد أن يحمل حقيبة ظهري، ويضعها فوق ظهره، ويوجه ابتسامة عريضة تشبه ابتسامة الوحش الكرتوني الكوميدي «شريك» إلى السائقين. لا يواجه دافيد مشكلة في القفز من فوق الجدار بساقيه النحيلتين وينتهي الأمر في لحظات. يدقّ هاتف موللي النقّال فتردّ. يمكننا القفز فالمكان آمن. يأتي دوري بعده، أصعد وأنا أحاول الحفاظ على اتّزاني وأحمد الله أنّني أرتدي حذائي الرياضي والبنطلون الجينز. أخطو بحذر مدركة أنّ أقلّ تردّد قد يؤدّي إلى التواء كاحلي. أرفع جسمي وأمدّ ذراعَيّ إلى أعلى لأتشبّث بأعلى الجدار. أجذب جسمي إلى أعلى مستخدمة كلّ طاقتي لكي أرفع ساقي فوقه. أتردّد للحظة ثمّ أميل إلى الأمام فوق السطح المستوي الضيّق، وأضغط ببطني فوق قمّته وأضع ساقَيّ الاثنين عبره. سامي ينظر إلى أعلى ناحيتي والقلق بادٍ في عينَيه. قطرات عرق تنهمر من جبهتي وترتعش ذراعاي.

أسمع موللي وسامي يصيحان بكلمات تشجّعني. أركّز كلّ انتباهي على الاحتفاظ بتوازني وأنظر إلى الجانب الآخر حيث ينتظرني دافيد.

يقول لي في هدوء. «سأمسك بك. لا تخافي.»

يقف بساقيه منفرجتين مستعدًّا لاستقبالي.

أعضّ على شفتي وأرفع ساقي على الناحية الأخرى وأتشبث بحافة الجدار بكل قوة لدي.

إنّني معلّقة الآن وأنظر إلى أسفل أحاول أن أتحقّق من مكان دافيد. يعلو صوته بتعليمات فأعدّ إلى ثلاثة ثم أترك نفسي، فتحتكّ يداي بالسطح الإسمنتي الخشن. يلتقطني فنقع كلانا على الأرض.

تلتقي عينانا فننفجر في الضحك.

أفحص يدي الملتهبتين، فلقد خُدشتا وسال منهما الدم ولكنّني لا آبه بذلك.

تظهر رأس موللي من فوق الجدار. أناديها وأطلب منها أن تثق بالله، وأستمتع بسماع ضحكتها وهي تتفاوض مع قمّة الجدار.

يتبعنا سامي بعد بضع دقائق. يرفض مساعدة دافيد ويقفز فيقع على الأرض ثمّ يهبّ واقفًا وهو ينفض التراب من ثيابه. يُقبّل الصليب ثمّ يخطو نحوي. وجهانا ينفجران في الوقت ذاته في ابتسامات عريضة.

أهمس له: «نجحنا» وأنا أرفع يدَيّ المرتعشتَين لأمسح العرق المتّسخ عن وجهي.

يقول لي بضحكة ملتوية وهو يمسك بيدي: «كنت أعرف أنّنا سننجح». نرقص الدبكة في دائرة صغيرة بينما ينظر إلينا دافيد وموللي وهما يضحكان.

يتوقّف سامي، ويُمسك بيد دافيد ويأمره بأخذ يد موللي.

«ياللا» يصرخ سامي بضحكة جريئة. «كلّ عملاء الشاباك يعرفون كيف يرقصون الدبكة!»

١٧

نحن في القدس الشرقية. راس العمود لا يبتعد سوى كيلومترَين من المدينة القديمة حيث يمكننا أن نستقلّ عربة نقل جماعي من محطّة حافلات أمام بوّابة دمشق إلى قرية ستّي زينب في القدس الغربية.

من المهمّ أن نتجنّب أنا وسامي جذب انتباه أيّ شرطي متجوّل من شرطة الحدود. نقرّر أن نختفي أنا وسامي وأن يتوجّه دافيد وموللي إلى أقرب محطّة نقل جماعي للاستفسار عن وسيلة الانتقال إلى المدينة القديمة وإذا ما كانت هناك احتياطات أمن زائدة اليوم.

نختبئ أنا وسامي في طريق يفضي إلى عدد من المتاجر. نقرفص إلى جانب بعض الصناديق عند مدخل الطريق حتّى نستطيع رؤية الشارع.

«سوف أعترف لك بشيء يا حياة.»

«ستكون هذه أوّل مرّة تفعلها.»

«استمتعي بها إذن... أنا لم أعد أشكّ في دافيد وموللي. في الحقيقة هما من ألطف الناس الذين قابلتهم في حياتي.»

«أعتقد أنا ذلك أيضًا.» أقول ذلك وأنا أضع ذقني في راحتي وأميل بكوعي على ساقي لأتفحّص وجوه الفلسطينيين السائرين في الشارع. يضعون سيجارة في أفواههم أو يهزّون أذرعهم في حركة سريعة. لم أشعر بمدى سخافة الفرق بين الأزرق والأخضر حتى الآن.

نشعر بالملل فنلعب لعبة التخمين «أنا شايف بعيني...»

«شيء يبدأ بحرف S» أقولها بالإنجليزية.

«هل نلعبها بالإنجليزية؟»

«نعم. لا بد لنا من التمرين.»

«طيّب سهلة. Soldier – جنديّ؟»

أهزّ رأسي: «لا يوجد أيّ جنديّ هنا.»

«Sun – شمس؟»

«لا.»

«Sea – بحر؟»

«أين هو البحر يا سامي؟»

يهز سامي كتفه ويعود إلى العربية «نفدت منّي الكلمات بحرف S. هذه كلّ ما أعرف.»

أبتسم: «الأستاذة مريم ستكون فخورة بك.»

«طيّب؟»

«Star – نجمة» أقول في فخر.

«ولكن الوقت نهار.»
«الشمس نجم.»
«ولكنّني قلت Sun.»
أهزّ كتفي: «لا بدّ أن تخمّن الكلمة بالضبط.»
«هذا سخيف.»

نستطلع الشارع. من مخبئنا نرى فيلا مهيبة من الأحجار الرملية تقع بشكل عرضي. الساحة الأمامية تظلّلها الأشجار وتمتدّ بعض الفروع وتنساب بخمول على بوابة خضراء أمامية من الحديد المشغول. الواجهة طويلة ويبرز من منتصفها برج مربّع بسطح مستو. وتحته يقف باب مزدوج أبيض ضخم وعلى جانبي الباب توجد نوافذ منقوشة من الحجر الرملي وتغطيها بوابات من الحديد المشغول.

أقول: «بيت لطيف، أليس كذلك؟»

«عندما أُصبح لاعب كرة قدم مشهور وتكونين أنت معاونتي وتديرين حساباتي العشرة في البنوك - أري أنّك تديرين عينَيك عجبًا - سوف يكون عندي بيت أكبر من هذا بخمس مرّات وبه تلفزيون في كلّ غرفة ولن أضع أيّ تمثال ليسوع المسيح على الجدران. ماذا تعتقدين أنّ عمّي وعمّتي سيقولان عن ذلك؟»

«أستطيع أن أقول أشياء كثيرة عن ذلك.»

أمام المنزل أرى ثلاثة أطفال. صبيان وفتاة يقفون محتشدين معًا. الصبيان يرتديان ثيابًا وقبّعات وبدلًا سوداء. أحدهما شعره كستنائي طويل يتدلّى من جانبَي رأسه. الآخر شعره أسود مجعّد وأقصر. ترتدي الفتاة تنورة طويلة وقميصًا بأكمام طويلة مقفلًا بأزرار حتّى العنق. شعرها معقوص إلى الخلف في ذيل حصان.

تتشبّث بالبوّابة الأمامية الخضراء وهي تميل إلى الخلف وتضحك مع الصبيَّين.

«لا بدّ أنّهم من المستوطنة الجديدة.» أقول ذلك في صوت خفيض والغضب يرتفع داخلي وأنا أفكّر في المستوطنة المخصّصة لليهود فقط التي بنيت بشكل غير شرعي على الأراضي الفلسطينية.

يحملق سامي فيهم بعيون تمتلئ فضولًا. «أتعجّب لماذا يترك الصبية شعورهم طويلة من الأمام!»

نراقبهم، موزّعَين بين الدهشة والخوف. أتطلّع إلى هؤلاء الأطفال وأشعر كما لو كنتُ إناءً به ماء يغلي وضعت فيه ماما مزيجًا من بعض التوابل. ورشة من الحنق. وحفنة من الفضول. وقليلًا من الغيرة.

يزداد توتّرنا ونحن في انتظار عودة موللي ودافيد. نتجادل في ترك مخبئنا والمغامرة بأنفسنا.

أنتظر بينما يحاول سامي الحصول على معلومات حول الخيارات المتاحة لنا من الناس في المتاجر القريبة: يعود بإناء بديل للحمّص (أفرغه وأنظفه بمنديل ورقي) وببعض المعلومات. كل شيء يعتمد على الحظّ. قد نُستوقف، وقد لا يحدث ذلك. تظهر سيّارة رباعية الدفع عبر الشارع وتقف أمام الأطفال فيقفزون داخلها، والآن لن تتاح لي فرصة التحدّث معهم، لأقول لهم اسمي. إذا كانت الفرصة سنحت كنت سأطلب منهم أن يتذكّروني عندما يفحصون بطاقة هويّتي خلال خمسة أعوام، ربّما كنت سأكتب لهم رقم هاتفي وأدعوهم للغداء في منزلي حتى أسألهم عن خصلات الشعر الجانبية وإذا كان هناك برنامج يهودي للمواهب الموسيقية.

يعود دافيد وموللي وقد تحوّلا فجأة إلى وجهة النظر المحافظة.

تقول موللي وهي تقضم أظافرها وتخطو عبر الطريق: «هذا التصرف يبدو طائشًا. لا أتخيّل أنّ أهاليكما سوف يوافقون على ذلك ولن ألومهم.»

يضيف دافيد: «وماذا يحدث إذا تمّ إلقاء القبض عليكما؟ كلّما اقتربتما من القدس الغربية زاد الخطر. نحن آسفون بالفعل ولكنّكما يجب أن تواجها الحقيقة بأنّ هذا التصرّف خطير جدًّا.»

لا أهتمّ بمناقشتهما، فليس لديّ وقت للكبار أو لمشاعرهم بوخز الضمير أو الخوف. في الواقع تراجعهما يزيد من تصميمي. أنظر إلى عيونهما، مليئة بالطيبة والتعاطف.

يقول دافيد: «سوف نعود معكما إلى الجدار ونساعدكما على تسلّقه.»

أسمع نفسي وأنا أقول: «شكرًا. ولكنّنا سنكون على ما يرام من هنا.»

تقول موللي: «لا نريد أن نترككما. لدينا مسؤولية إزاء...»

يندفع سامي راكضًا، ويصيح بي: «اركضي يا حياة!» بينما تخبط ساقاه الأرض فيتجمّع التراب خلفه.

تلتقي عيناي بعيون دافيد وبعدها موللي. وجهاهما ينطقان فجأة بإدراك أنّني سوف أتبعه حتّى قبل أن أفعل أنا ذلك. أندفع خلال السائرين فوق الرصيف وأركّز نظري على خصلة شعر سامي السوداء وأنا أقفز جريًا وراءه. إذا كان دافيد وموللي قد صاحا استجابة لهذا إلا أنّني لم أسمع شيئًا. لا أسمع سوى وقع قدمَيّ وهدير دقّات قلبي. ألحق بسامي في ميدان مزدحم به سوق. نذوب في الزحام ونصبح بمفردنا مرّة أخرى.

* * *

أنا مجنونة. الوقت قد تأخّر كثيرًا ولم نصل بعد إلى قرية ستّي زينب فما بال طريق العودة والمدّة التي سنستغرقها لكي نعود. أرى ماما وبابا يجلسان في غرفة المعيشة وصوت ماما الأجشّ يخبط الجدران وهي تُخرج كلّ إحباطاتها وقلقها لترميه فوق بابا بينما يظلّ هو صامتًا مما يُغضبها أكثر. چيهان تنتحب كيف أنّني أفسدت خطط عرسها. أفيض إحساسًا بالذنب. آخر شيء أريده هو أن أثير قلق عائلتي، ولكنّهم إذا عرفوا إلى أيّ حدّ ستّي زينب تحتاج أن تلمس تربة قريتها مرّة أخيرة فسوف يفهمون.

نقرّر أنّه من الخطر أن نستمرّ سيرًا على الأقدام ولذلك نتوقّف في متجر للأقمشة ونتحدّث مع مالكته.

أسألها: «معذرة ولكن هل يمكن أن تَدلّيني على طريقة أصل بها إلى القدس الغربية؟»

«هل لديكما الهويّة اللازمة للمرور؟»

نهزّ رأسَينا.

ترفع المرأة رأسها من الخزينة وحاجباها النحيلان يرتفعان عاليًا. تشير إلى رجل واقف خلف المكتب يطبّق مفرشًا للمائدة.

تقول له: «يا بسّام هذان الصبيان يريدان الذهاب إلى القدس الغربية وليس معهما تصريح. هل نتأكّد أنّ الليموزين جاهزة للذهاب بهما إلى هناك؟» ينفجران في الضحك.

نركض بكلّ قوّتنا. يقلب سامي عمدًا كومة من المفارش المرتّبة في طريقه.

يصرخ سامي: «أوه... كم أنا أخرق» ونركض كلانا تطاردنا لعنات المرأة.

يتمتم سامي عندما نتوقّف في ركن قصي: «حمير!»

أقترح أنا: «دعنا نتكلّم مع سائق سيّارة أجرة فهم يعرفون الطريق.»

نقترب من رجل جسمه نحيل كما لو كان دبّوسًا وله شارب. أهدابه الطويلة تجعل منظره أنثويًّا غريبًا.

يقول سامي وهو يخطو أمامي: «اتركي لي هذا الشأن هذه المرّة.»

أقول وأنا أشبك ذراعَيّ فوق صدري وأنظر أمامي: «حسنًا.»

يقول سامي: «معذرة، أختي وأنا نحاول أن نذهب إلى مستشفى خاصّ في القدس الغربية. عمّتنا هناك ونودّ أن نراها قبل أن تنتقل إلى رحمة الله، هذا ما يتنبّأ به الأطبّاء، وإذا لم تتح لنا فرصة الوداع ربّما أفسد ذلك كلّ حياتنا إلى الأبد. هل من الممكن التسلّل بدون تصريح؟ هل يمكن أن تخبرنا عن الطريقة؟»

يقول سائق سيّارة الأجرة بلمعة في عينيه: «لا بدّ أنّها عمّة قريبة جدًّا، أليس كذلك؟»

يقول سامي بجدّية: نعم، بالفعل. هي قريبة منّا جدًّا. أليس كذلك يا حياة؟»

أومئ برأسي: «نعم قريبة جدًّا. سامي هنا يعاني وهو يحاول النوم بالليل لأنّ عمتي فيفي كانت تقرأ له قصّة ما قبل النوم.»

سامي يحدجني بنظراته بينما أبتسم أنا ببراءة.

يقهقه سائق سيّارة الأجرة: «ليس لديّ الوقت لمثل هذا الكلام، أنا أنتظر هنا للعمل. اذهبا بعيدًا.»

أتوسّل إليه: «من فضلك. نعم لقد كذبنا. ولكنّنا نحتاج بالفعل للوصول إلى هناك... هل ترى وجهي؟ لا أحبّ أن أتكلّم عن هذا الموضوع ولكن يجب أن أجد متخصّصًا.» أتطلّع إليه وأحاول أن

أبدو حزينة على قدر المستطاع.

يسعل ويشعر فجأة بالتوتّر: «أوه... سلامتك. هل معك نقود؟»

نُخرج كمّية النقود المُجمّعة التي معنا.

«يوجد شخص إسرائيلي اسمه يوسي. هو يساعدنا. يهرّب الناس إلى داخل القدس الغربية في سيارته. سوف يعتني بكما. انتظرا هنا. سأطلبه على الهاتف.»

يتوجّه إلى الجانب ليقوم بإجراء المكالمة.

أهتف: «ما أسعد حظّنا!»

«أيوه، كانت الأمور تسير معي على ما يرام حتّى ذكرت حكايات ما قبل النوم.»

يعود سائق سيّارة الأجرة ويقول: «يوسي سيكون هنا خلال عشر دقائق.»

يصل الرجل فيميل سامي ناحيتي ويسألني: «هل يمكن أن نثق في هذا الشخص يوسي؟»

أقول بكلّ ثبات «نعم» لأنّ البديل مرعب حقًّا.

يوسي رجل نحيف وقصير ووجهه حادّ مدبّب. يرتدي قميصًا أبيض وربطة عنق وعندما يرفع ذراعَيه ليهرش شعره ألاحظ بقعًا صفراء من العرق.

يقول لنا بابتسامة عريضة: «شالوم.»

نجيبه: «سلام.»

يطمئننا بنبرة وديعة تبعث فينا الثقة: «لا تقلقا على أيّ شيء. أنا وأصدقائي نقوم بهذا العمل طوال الوقت.»

يسأل سامي: «هل سبق أن قُبض عليك؟»

يقول: «ليس بعد! ربّنا يستر. لديّ لوحة سيّارة صفراء. فهذا جيّد. أنتما صغيران فأستطيع إخفاءكما بسهولة.»

يقترح علينا إدخال أوراقنا في جيوبنا. يضع حقيبة ظهري فوق الأرضية أمام مقعد الراكب الأمامي. ثمّ يفتح الباب الخلفي لسيّارته البيضاء. توجد كومة من البطاطين الرمادية مكدّسة في جانب من المقعد الخلفي وكومة من العرائس في الجانب الآخر.

يقول عندما يلاحظ أنّني أنظر إليها: «عرائس ابنتي. هي فوضوية مثل أبيها.»

يرشدنا كيف نجلس القرفصاء في وضع الجنين على الأرض ونظل ساكنين بلا حراك إذا تم إيقافنا: المكان متّسع حيث إن المقاعد الأمامية قد دُفعت إلى الأمام. أتكوّر مثل كرة ورأسي يواجه الباب. يقوم سامي بنفس الشيء ويعطينا يوسي تحذيرًا قبل أن يغطّينا بالبطاطين.

يسألنا: «هل أنتما على ما يرام؟»

نجيبه إجابة مخنوقة: «نعم.»

يتوقّف قليلًا: «سوف أرمي فوقكما ببعض العرائس والثياب والأحذية وأشياء أخرى حتّى تبدو السيّارة في حالة فوضى: حسنًا يا سادتي!»

لا أعرف ما الذي قذفه فوقي ولكنها كانت أشياء خفيفة بلا وزن ولا تزيد من عدم ارتياحي.

يقول وهو يقود السيارة: «سيساعدنا هبوط الظلام.»

ثمّ يخبرنا بأنّه في الازدحام المروري يضطر إلى التوقّف عن الكلام حتّى لا يثير الشبهات. «وإلا سوف أبدو مثل رجل مجنون.»

يتركنا لأفكارنا. تنقبض معدتي انقباضًا شديدًا. في وضعي

المتكوّر كنت أشعر بكلّ حفرة ومطبّ في الطريق وفي النهاية بدأ الشعور بالذنب والندم في وخز ضميري فتبدو ثقتي السابقة ساذجة ومثيرة للإشفاق. حتّى تلك اللحظة لقد اخترت أن أتجنّب التفكير في الحكايات عن الأشخاص الذين يُضربون ويُحتجزون ويُسجنون لتسلّلهم إلى القدس بدون تصريح. سامي متكوّر إلى جانبي في صمت. لعلّه هو أيضًا يدرك هول المخاطرة التي نقوم بها. أتساءل إذا ما كان هذا الإدراك قد جاء متأخّرًا.

تسير السيّارة في صمت لمدّة عشر دقائق. أشعر بخدر يشيع في جسمي، وأطرافي تصرخ لكي تتحرّك.

يقول يوسي: «لقد مررنا لتوّنا عبر بوّابة دمشق.»

أشعر برغبة يائسة للنظر من النافذة لأرى جدار القرون الوسطى للمدينة القديمة الذي كثيرًا ما تحدّثت عنه ستّي زينب. ولكن في هذه اللحظة أسمع صفافير سيّارات الشرطة.

تقف سيّارتنا بشكل مفاجئ حيث يضغط يوسي بقوة على الفرامل.

يصرخ يوسي: «أوه لا! لا! أي حظّ تعس هذا!»

«ماذا يحدث؟»

«هل أمسكوا بنا؟»

نصرخ أنا وسامي من تحت البطاطين ويصبّ يوسي السباب وهو يخبط يده على عجلة القيادة في إحباط.

يقول: «مظاهرة. من دون كلّ الأيّام. مجموعة كبيرة تسدّ الطرق. لا أستطيع السير خلال المظاهرة أو العودة مرّة أخرى.» ينحرف ثم يقف فجأة. «سيّارات الجيب تمنعني ويبدو أنّ هناك مصادمات. الأمل الوحيد أمامكما هو أن تنطلقا فتضيعان وسط الزحام. أسرعا!

اذهبا الآن قبل أن تضطرّا إلى البقاء هنا! بسرعة! الله معكما!»

أقذفُ بالبطاطين من فوق ظهري ويفعل سامي ذلك أيضًا. ينظر إليّ وعيناه تتّقدان رعبًا ويقول: «لا تبتعدي عنّي حتّى لا نتوه عن بعض.»

عند عدّ ثلاثة نفتح الأبواب فنجد أنفسنا ضمن حشد من المتظاهرين تحيط بنا سيارات الجيب العسكرية وعربات الشرطة والجنود. تغنّي الحشود وتنشد عبر الميكروفونات وتحمل لوحات وأعلام فلسطين. ندفع بأجسادنا نحو المتظاهرين راكضين بين جنديَّين وسيّارة جيب وعربة شرطة. أنظر إلى أعلى فألمح جدار المدينة القديمة خلفي والشمس تتهاوى في الأفق. منظر يخلب العقول.

أصوات المتظاهرين تُصمّ الآذان. نشبك سامي وأنا أيدينا ونحاول أن نشقّ طريقنا عبر الجموع ولكنّ الحشود تتحوّل إلى مجموعة من الغوغائيين ويدوس الناس على بعضهم البعض بينما تزداد حالة الهياج والذعر. مع كلّ خطوة نخطوها إلى الأمام تدفعنا موجة من الرجال والنساء الحانقين الغاضبين خطوتَين إلى الخلف. نسمع صوت انفجار قنبلة صوتية وأشعر بأنّ أذنَيّ قد خُلعتا من جانبَي رأسي. صوت فحيح يأتي من أعلى وغيمة من الدخان تحجب رؤيتي. أشعر بألم في عينَيّ فأفركهما بقوّة وأترك يد سامي. أسمع أصوات نساء ورجال يصرخون وأشعر بارتطام وخبط بينما أحاول الاستمرار في السير إلى الأمام. الجوّ ثقيل من أثر القنبلة المسيلة للدموع وعيناي تحترقان. لا أستطيع فتحهما. أتعثّر في سيري وأنادي اسم سامي فلا تردّ عليّ سوى الصرخات المذعورة.

أسقط على الأرض فوق ركبتَيّ. أجد صعوبة وألمًا في استنشاق

الهواء. وجهي كلّه يحترق الآن. أحاول فتح عينَيّ. أرى رجلًا يهوي إلى جانبي. أغلق عيني وأجلس على الأرض. أسمع صيحات الناس محذّرة: «اركضوا! إنّهم يأتون الآن!» لا أستطيع التوقّف عن السعال. أحاول أن أتحسّس طريقي إلى الأمام وأنا ألمس شوارع القدس الحجرية.

أصرخ وأقع على ظهري: «سامي!»

تلك هي اللحظة التي تزورني فيها مايسة، لقد ظهرت من بين ظلال غرفتي بالليل لتطاردني. مايسة. التي كانت درجاتها «عشرة على عشرة» في جميع اختبارات مادّة الرياضيات وكانت سعيدة الحظّ بالحصول على لقب ثاني أفضل راقصة دبكة في فصلنا. مايسة كانت دائمًا تجعلني أضحك من محاكاتها للمدرّسين والآباء. أصيبت بعيار ناري في جبهتها وتُوفيت وهي تغوص في بركة من الدماء الذي امتزج بالقيء مني.

تزورني وأنا مستلقية في شوارع القدس وأشعر بأنّ القيامة قد قامت.

نحن في طريقنا من المدرسة إلى البيت نسمع أنّ الجنود أطلقوا النار على رجل كعقاب له لعلاقته بشخص انتحاري. والآن سوف يهدم منزل أسرته كعقاب وتحذير للجميع.

مايسة تسألني: «هل نذهب لنتفرّج؟» تقول لي إنّنا نريد أن يعرف الجنود أنّنا لن نصمت. كلّما زادت الأصوات كان أفضل، هذا ما تقوله وأوافقها.

عندي فضول. رأيت عملية الهدم مرّة ولكن بابا أرغمني على المغادرة في منتصف العملية. قال إنّها تذكّره بما حدث لبيتنا. ولكنّني لم أكن هناك لأرى الجرّافات فوق أرضنا.

تتراوح أعمار المتظاهرين بين حوالي الثانية عشرة والخمسة والعشرين. يقفون مع العائلة الممتدّة للرجل المتوفى على بعد خمسين مترًا من الجرّافة يغنّون بصوت مرتفع احتجاجًا.

تهجم الجرافة. التراب الناجم عن الهدم سميك جدًّا ويرتفع من الأرض مثل ضباب في يوم شتوي بارد. الصوت مفزع. يتهشم الزجاج وتهوي الكتل الخرسانية لتدكّ الأرض. الناس يصرخون في يأس والجنود يصيحون بأوامرهم لنا بالابتعاد. تقبض مايسة على ذراعي وتدفن وجهها في كتفي.

تقول وهي تنتحب: «لا أحتمل مجرّد النظر.»

ولكن عينيّ مسمرّتان على المشهد أمامي وأنا أمسك بها. كلّ ما أراه هو منزلي وفجأة أدرك مدى عمق الألم الذي يشعر به بابا وماما.

تولول نساء الأسرة وتنهار واحدة منهنّ على الطريق وتنتحب. يجلس رجل عجوز على ناصية الطريق وغطرته تهتزّ مع النسيم فوق ظهره المنحني. يسند يديه المجعّدتين فوق ركبتيه وهو يحاول استيعاب المشهد أمامه. حتّى من هذا البعد أشعر بمدى قنوطه ويأسه.

الأطر الخشبية، والجدران، والأنابيب الصلبة، ودواليب المطبخ، والحمّامات، وقطع الأثاث، والكتل الإسمنتية تتناثر حول المنزل المتهاوي. تستمرّ الجرّافة في العمل ونصرخ جميعنا لأنّنا لا نستطيع عمل شيء. لا نستطيع عمل أيّ شيء، فنكره ضعفنا واستسلامنا.

تسألني مايسة: «هل انتهى كلّ شيء؟»

أهمس لها: «لا.»

«دعينا نغادر المكان فقط.»

أومئ لها ونبدأ في سيرنا بعيدًا. تقف سيّارتا جيب عسكريتان

على حافة الطريق ويقف الجنود أمامهما لحماية عملية الهدم. خلفنا يرتفع صوت الحشود منشدين فيجتذبون مزيدًا من المعارضين. يبدأ بعض الشباب في إلقاء الحجارة على الجنود.

أقول لمايسة: «يجب أن نبتعد عن هذا المكان.»

تصرخ: «بسرعة!»

يُطلق الجنود أعْيرة نارية حية ليفرقوننا. الأعيرة المنفردة تصفر في مرورها وتستقرّ في داخل جدران المنازل خلفنا وتهشّم نوافذ السيّارات الواقفة. تنفجر أعيرة كثيرة في الجو. يصرخ الناس ويلتقط آخرون المزيد من الأحجار من قارعة الطريق ويلقونها نحو الجنود. رشّات من الرصاص تأتي ردًّا على ذلك.

نسمع الناس يصرخون: «اركضوا!» نقفز أنا ومايسة مبتعدتَين عن الجموع المتفرّقة؛ ونحاول أن نجد طريقًا للاختباء به أو بناية تحمينا. ولكن عربة من عربات الجيب تطارد الجموع بعد انسحابها وتطلق الأعيرة النارية في كلّ صوب. نحن على بُعد خمسين أو ستّين مترًا من مدخل شارع جانبي، ونركض إلى جانب عشرة أو اثني عشر طفلًا ومراهقًا. عربة الجيب التي لا تزال تطاردنا تتوقّف. نصل إلى مدخل الشارع ولكن في ذعرنا أقع فوق مايسة. شخص يصيح: «ياللا! بسرعة!»

بينما نحاول القيام من الأرض أنظر خلفي. الجندي الجالس جوار السائق يخرج رأس بندقيته من خلال فتحة في الزجاج الأمامي ويصوّب ناحيتنا ويطلق النار. تصيب بعض الطلقات الجدار الخرساني خلفنا فتنزلق العربة الجيب فجأة وتبتعد. وبعدها: أشعر بآلام مبرحة. تسيطر عليّ فكرة واحدة واضحة: أريد ماما. أستدير لأمسك بيد مايسة. ولكنّها مكوّمة على الأرض. رصاصة

هشمت جبهتها. أجثو على ركبتي بجانبها وأنا أُدرك أنّ الدم يسيل من وجهي. دخلت شظية إلى وجنتي وجبهتي، وجهي أصبح مشوّهًا إلى الأبد من عار تصرّفاتي الخرقاء. أرفع يديّ إلى وجهي الدامي وأنظر ناحية مايسة وأتقيأ.

ماتت مايسة.

أشعر فجأة بأنّ أشخاصًا يرفعونني عن الأرض.

أفتح عينَيّ غصبًا عنّي ومن خلال رؤية مهتزّة أرى وجه يوسي مكتئبًا ومعقوفًا من تركيزه وهو يحملني بعيدًا. أُدير رأسي فأرى سامي يمشي بجانبه.

الشوارع هادئة الآن بعد أن تفرّقت جموع المتظاهرين واختفى الجنود. يحملني يوسي إلى سيّارته ويُدخلني فيها برفق ويُجلسني على المقعد الخلفي. يحشر سامي نفسه فوق الأرضية في المكان خلف مقعد الراكب الأمامي.

يحذّرنا يوسي: «ما زالت أمامنا مهمّة الخروج من هنا بدون أن يشعر أحد حيث إنّكما لا تحملان تصريحًا. سوف تكون الأمور أكثر توتّرًا بعد المظاهرات. فاستمرّا في الاختباء.»

أشعر بالتشتّت والدوار والإعياء والعطش. أرفع نفسي قليلًا فأشعر بدوار في رأسي. أسأل وأنا أستلقي: «ماذا حدث؟»

يشعل يوسي سيجارة. يتصبّب منه العرق فيستخدم أعلى ذراعه ليمسح جبهته.

يشرح لنا: «لم أستطع السير بعيدًا فالمكان كان محاصرًا. كانت الشرطة والجيش في كلّ مكان. انتظرت في متجر قريب لأنّني لم أودّ أن أكون جزءًا من المشهد خشية أن تتطوّر الأمور إلى الأسوأ. وعندما تفرّقت الحشود وألقت الشرطة القبض على البعض

واستعدت لمغادرة المكان عدت إلى سيّارتي. في تلك اللحظة لاحظت سامي، كان يسير حول المكان ينادي اسمك.»

يقول سامي: «في لحظة كنتِ إلى جانبي وفي اللحظة التالية اختفيتِ.»

«كانت القنبلة المسيلة للدموع هي السبب. لم أستطع الرؤية أمامي، وبعدها لا أدري ماذا حدث. انتابني الذعر فأُغميَ عليّ. أنا... كلّ شيء عاد إليّ مرّة أخرى ففقدت سيطرتي...»

أشعر بالإعياء. أبدأ في البكاء وأغطّي وجهي بيدَيّ المرتعشتَين.

يقول سامي في ارتباك: «كفى يا حياة! توقّفي عن البكاء فكلّ شيء على ما يرام! أنت في أمان الآن.»

أقول وأنا ألتقط أنفاسي: «مايسة... ستّي زينب...»

يوسي يقدّم لي منديلًا ورقيًا ويقول: «خذي هذا! امسحي وجهك! سوف تعودين إلى منزلك بسرعة وسيكون كلّ شيء على ما يرام.»

أومئ وأمسح أنفي.

يقول يوسي برفق: «سوف أحاول أن أهربكما خارج القدس. سآخذكما إلى «أبو ديس». تستطيعان أخذ عربة نقل جماعي من هناك، فهذا أكثر أمانًا من محاولة تهريبكما من خلال نقطة تفتيش ضريح راشيل في بيت لحم.»

يقول سامي في هدوء: «شكرًا.»

أسأل يوسي عندما أستجمع شجاعتي للكلام بدون أن أنهار مرّة أخرى: «هل يمكن أن أطلب والدَيّ؟»

يخبط رأسه بيده: «طبعًا! كم أنا سخيف!» يقدّم لي الهاتف.

أسأله أثناء انتظاري لأيّ أحد أن يردّ من الناحية الأخرى للخط: «ما الوقت الآن؟»

«حوالي الثامنة.»

تردّ چيهان.

«حياة؟ يا إلهي! أين أنت؟ هل تدركين مدى قلقنا عليك؟ اتصلنا بالمدرسة ولم يكن هناك تمرين دبكة اليوم. ماما وبابا في حالة ذعر هنا. ماما تعتقد أنّك اختُطفت! هل تمّ اختطافك؟ هل هناك فدية؟ أين أنت؟»

«أنا في... القدس.»

«ماذا؟»

أشرح لها الموقف. عندما أنتهي تصرخ فجأة: «يا ماما ليست مخطوفة! بل أسوأ! هربت إلى القدس. وسامي معها وهما مع شخص إسرائيلي.»

أستطيع أن أسمع ماما كما لو كانت جالسة إلى جواري. «القدس؟! القدس؟ ولكن كيف؟ ماذا يحدث؟ أعطيني الهاتف! تحرّكي! ماذا تعنين بأنّها تسلّلت؟ تسلّقت الجدار؟ يا فؤاد ألم أقل لك إنّ هذا الولد سامي يثير المشاكل؟ أيّ بنت تفكّر في تسلّق الجدار؟ والآن هل تسمعين...»

«حياة، هل أنت بخير؟ هل أنت وسامي في أمان؟»

تطلق ماما مجموعة من الأسئلة وأحاول أن أقول ولو كلمة واحدة.

«يوسي؟ من هو هذا اليوسي؟ إسرائيلي؟»

فجأة يأخذ بابا الهاتف. «هل يستطيع هذا الرجل يوسي أن يرتّب لكما سيّارة أجرة تنقلكما إلى هنا؟ أخبريه أنّنا سندفع له كلّ ما يريد. دعيني أتحدّث معه.»

أعطي الهاتف ليوسي: «هل يمكن أن تتحدّث مع والدي؟»

يأخذ منّي الهاتف ويشرح خطّته لبابا. لا بدّ أنّ البابا يوافق لأنّني أسمع يوسي وهو يقول: «لا مشكلة. يُسعدني أن أفعل هذا.»

أستلقي مرّة أخرى وأُغلق عينَيّ وأنا أشعر بإنهاك شديد.

يتمتم سامي: «عمّتي كريستينا سوف تأكلني حيًّا. ربّما تعاقبني بعدم الخروج لمدّة عام. سوف تجعلني أذهب إلى جميع اجتماعات الكنيسة عقابًا لي.»

«لقد أوشكنا أن نصل مع كلّ ذلك...»

«نعم... فعلًا أوشكنا.»

«كلّ ما أفكّر فيه هو غضب بابا وماما الآن... وأنّني خذلت ستّي زينب.»

«لا تكوني غبية. أنتِ حاولتِ. انظري إلى أي مدى وصلنا؟ من كان يفكّر أنّ هذا ممكن؟»

«ولكنّني لم أصل إلى أرضها. كيف ستتحسّن إذن الآن؟»

يوسي بعد أن فرغ من حديثه مع بابا ينظر إلي من خلال مرآة الخلف. «أي أرض؟ عمّ تتحدّثان؟»

أخبره بكلّ شيء. يومئ برأسه متفكّرًا ولكنّه لا يقول أيّ شيء.

أسعى باستماتة أن أنظر خارج النافذة لأرى القدس ونحن نغادرها، ولكن يوسي يعتقد أنّه أكثر أمانًا أن نظلّ مختبئَين بسبب التواجد الشرطي المكثّف عقب المظاهرات.

أسأل يوسي بعد مرور بعض الوقت: «أين نحن الآن؟»

يقول لنا بينما يتوقّف فجأة إلى جانب الطريق: «في ضواحي القدس».

يقول لنا وهو يشير خارجًا: «ربّما ليست هذه قرية جدّتك ولكنّها القدس.» يميل نحو مقعد الراكب ويعطيني حقيبة ظهري. أنظر

إليه وأفهم. أُخرج إناء الحمّص وأخرج من السيّارة. يأتي سامي معي ونجلس القرفصاء على جانب الطريق ونغرف التراب والطين إلى داخل الإناء.

ليست هي قرية ستّي زينب. ولكنّها نفحة من القدس، وهذا يكفي.

١٨

يأخذنا يوسي إلى موقف سيّارات أجرة في «أبو ديس». ومن هناك نأخذ سيّارة نقل جماعي إلى بيت لحم. كاد الوقت يقترب من منتصف الليل. أنام وأستيقظ بشكل متقطع، ولا أستيقظ إلا عندما نقترب من نقطة تفتيش ويكون لزامًا عليّ أن أُبرز أوراقي للجنود. ينساب الارتياح خلالي عندما نصل إلى بيت لحم. عندما نسير عبر الشوارع المألوفة وإلى جانب الجدار الخرساني الرمادي الطويل، أعرف أنّني في بلدي.

يوافق السائق على أن يأخذنا أنا وسامي مباشرة إلى شارعنا. نعده أن ندفع له مبلغًا إضافيًّا ولكنّه يقول لا بأس في الأمر حيث إنّ مجمّع الشقق الذي نقيم فيه يقع في الطريق إلى منزله.

الكبار في حالة هستيرية. ماما تنشج بالبكاء على نحو لا يمكن السيطرة عليه. تندفع بقوة للأمام وتضمّني إليها. تنطلق ماما في عملية تقريع وتوبيخ مطوّلة غير عابئة أنّ عمتو كريستينا وعمّو جوزيف في حالة هياج مع سامي على بعد عدّة خطوات فقط.

تصيح قائلة: «الأولاد دائمًا ما يخاطرون! إنّهم يحبّون المغامرات. يعتقدون أنّ هذا كله لعبة. ولكنّك فتاة تحتاجين إلى البقاء، لا إلى تعريض نفسك للتأثيرات السيئة! انظري لماذا أُصرّ أنا على أن تلعبي مع الفتيات؟ هل أنت على ما يرام؟ هل تعرّضتِ لأيّ أذى؟ أوه، كيف تضعينا في هذه التجربة السيّئة؟ الحمد لله أنّك عدت إلى الدار!»

إنّها لا تدعني أشرح لها. ولمّا كنتُ وقعت تحت صدرها الضخم، فإنّ عينَيّ تقابلان عينّي سامي. إنّه يبتسم ابتسامة عريضة وأنا أسمع مصادفة عمتو كريستينا وعمّو جوزيف يوبّخانه هو أيضًا وهما يُمطرانه في نفس الوقت بالقبلات.

يترنّح قلبي ويتمايل عندما يديرني بابا باتّجاهه ويضع يدَيه على كتفَيّ. ينظر إليّ عندئذٍ في العينين، ومحاولًا أن يكبت تنهيدة، يضمّني بقوّة.

يقول لي: «أنت في أمان»، يكرّرها مرارًا وتكرارًا. «أيّتها البنت السخيفة، أنت الآن في أمان.»

تهبط چيهان سلّم مجموعة الشقق ركضًا وتلقي بنفسها عليّ.

تصيح وهي تحتضنني بقوة: «سوف أقتلك! لم يتبقَّ على عرسي سوى أسابيع قليلة وأنت تقرّرين الذهاب والمخاطرة بنفسك. إنّنا جميعًا مضغوطون بما فيه الكفاية في هذه الظروف! وهل أخذت مدّخراتي من النقود؟ كنتُ أوفّرها على مدار فترة طويلة!»

أقول في تذلّل: «لقد استعرتها فقط».

تقول ماما: «أوه يا چيهان، اهدئي. تكونين متبلّدة الحسّ في بعض الأحيان.»

يضحك بابا وماما تدير عينَيها تعجّبًا.

«أين ستّي زينب؟» أسأل السؤال أخيرًا، ونحن نمشي صاعدين السلّم إلى شقّتنا.

تقول ماما: «تهذي من القلق. جاءتها نوبة أوشكت أن تقضي عليها، هل تتخيّلين ما فعله بها جريك بعيدًا إلى القدس؟»

يقول بابا: «أوه يا نور، لا حاجة إلى المبالغة. حياة ليست بحاجة إلى سماع تلك الأشياء في وقت كهذا. ستّي زينب بخير.»

«بخير؟ إنّها لم تتوقّف عن الصلاة منذ أن أخبرها طارق أنّ حياة قد اختطفها الموساد!»

«حسنًا لقد فهمنا هذه القصّة، أليس كذلك؟ وأمّك تصلّي دائمًا. سوف تهدأ بمجرّد أن ترى حياة.»

قلبي يخفق بعنف وشراسة وأنا أفتح الباب المؤدّي إلى غرفة نومنا. ستّي زينب تستند على وسادتين لونهما أزرق داكن، تقرأ القرآن. تنظر لأعلى فتنطلق منها صرخة. عيناها لامعتان لم تتغيّرا، حيث لم تصبهما على الإطلاق لعنة التجاعيد والانكماش التي يحدثها الزمن.

«حياة!» - تصيح وتمدّ ذراعَيها إليّ. تتشابك ذراعاها وذراعاي وصوت ضربات قلبها وصوت الرصاص ينطلق في مخّي، ونأخذ في البكاء. عندما نلتقط أنفاسنا، تميل للوراء مستندة على وسائدها. وبعد ذلك، تغنّي لي بصوت به تماوج وعمق وخشونة ونعومة في الآن نفسه:

نسيـم بلادنـا للجسم منعـش		بدون الوطن إقنع يوم ما انعيش
بيبكي الطير إذا بنطرد من عش		فكيف الوطن اللي لو أصحاب؟

وجهها متجهّم بينما يتلعثم صوتها ويرتجف بكلّ من الكآبة والبهجة. حاجباها مقطبان وكفّاها مرفوعتان كما لو كانت في صلاة ودعاء.

عندما تنتهي تبتسم. تقول: «آه، كم أنا سعيدة لرؤيتك، ربّما سيتاح لي الآن بعض الطمأنينة والهدوء. لقد قادتني أمّك إلى الجنون، وهي في حالة توتّر واضطراب بشأني كما لو أنّني كنت سيدّة عجوزًا مريضة.» وتبتسم لي ابتسامة عريضة. «هل تصنعين لي معروفًا يا حبيبتي؟ لا تدعي أمّك تطعمني أكثر من ذلك من حساء الخضار الذي تصنعه. يعلم الله أنّها طاهية بارعة، ولكنّني لا أستطيع أن أحتمل أن أذوق ورقة كرنب أخرى. هل تظنّ هي أنّ بعض حساء الكرنب النتن سوف يغيّر خطط الله بالنسبة لي؟»

«ولن تساعد الهضم عندك أيضًا» ـ أضيف أنا بابتسامة، أحاول أن أسجّل في عقلي أن أنام والنوافذ مفتوحة الليلة.

تقول هي: «أخبريني يا حياة، أخبريني أنّك على ما يرام.»

أقول أنا في صوت هادئ: «كنت خائفة ومرعوبة جدًّا يا ستّي. منذ ذات اليوم الذي ماتت فيه مايسة أوقفت ذكرياتي. كانت ملتفّة حول عنقي. كلّ ما كنت أريده بالنسبة لعقلي أن ينام. وبعد ذلك، عندما كنّا في القدس...»

«وصلت أنت هناك...؟»

أقول أنا: «نعم». «لقد وصلنا. ولكن التوقيت كان خطأً تمامًا. لقد وقعنا في مظاهرة. وكان ذلك عندما تذكّرتُ كلّ شيء. جاء كلّ شيء عائدًا إليّ بشكل جارف...أنا أفتقد مايسة كثيرًا جدًّا...

وأشعر بمنتهى الذنب لأنني أفتقدها ولكن ليس في وسعي شيء أفعله سوى أن أفكّر في وجهي أيضًا. ولكن كيف يمكن لي أن أفكّر في هذا عندما تكون هي راقدة على الأرض وأنا لا أزال حية؟ إنّني ضعيفة جدًّا.» أمسح أنفي السائلة على ذراعي.

تقول ستّي زينب وهي تتنفّس بجهد محدثة صوتًا: «يا نور عينَي، كيف تقولين عن نفسك إنّك ضعيفة؟ أنت؟ ضعيفة؟ إنّ روحك قوية، يا حياة. لا تحرمِي العالم من روحك وقلبك. سوف تأتي العدالة عندما يزيد عدد أولئك الذين يأملون عن عدد أولئك الذي يمتلئون يأسًا. الأمل قوة لا يمكن إهمالها أو التقليل من شأنها، يا حياة. سوف تجدين مكانًا لنفسك في هذا العالم. تجاهلي العمّات البدينات والأعمام البدناء الذين يرثون لحالك ويشفقون عليك بسبب الندوب التي في وجهك. إنّني لا أرثى لحالك ولا أشفق عليك. إنّني أحترمك. ولكن يا حياة، لماذا تخاطرين بالذهاب إلى القدس؟»

أجلس وأنظر إليها نظرة هادئة. أقول لها: «أريدك أن تعرفي يا ستّي أنّني حاولتُ. وسامي أيضًا.»

«لا أفهم. حاولتِ ماذا؟»

«أن أصل إلى قريتك. أن أُحضر لك معي بعض التراب...لقد نجحنا في الوصول إلى المدينة القديمة. كانت كما وصفتِها أنت تمامًا.»

تقول متأوّهة: «يا إلهي! تقصدين أنّك ذهبتِ بسببي؟»

«حسنًا، نعم.»

«لا تصغي أبدًا إلى تخاريف سيّدة عجوز يا حياة! بيني وبينك إنّني حتّى لا أعلم أيّ يوم نحن اليوم. كيف يمكن أن تعتمدي على أيّ شيء قلته أنا لتقومي بمثل تلك الرحلة المجنونة؟ إنّه حملي أنا لأنّني وضعت تلك الفكرة في رأسك.»

«إنّ رأسي يخصّني يا ستّي. لقد كانت فكرتي.»

«غرست أنا البذرة. لا أزال أنا المسؤولة. إنّني حمقاء. إنّ رجْلي في القبر ولا تزال روحي ممزّقة، نصفها في قريتي، ونصفها هنا. حتّى على الرغم من أنّ رأسي يخبرني أنّني سأموت في هذا المنزل، في هذه البلدة، لا بدّ أن أعترف لك، يا حياة، أنّ قلبي يهمس لي بوعود خائنة: سوف تعودين - إنّه يخبرني بذلك. إنّ الأمر لا يجدي أن نتعلّقِ بأمل زائف. ولكنّ الأمر لا يجدي أن نعيش بدونه كذلك... أوه، هأنذا مرّة أخرى. عليّ أن أتوقّف عن الحديث.»

تغرس رأسها في الوسائد. ترفرف رموشها الخفيفة لوهلة. تسأل، ولا تزال عيناها مغلقتين: «هل هي ثمينة لأنّها أُخذت منا أو كانت ثمينة أوّلًا وقبل كلّ شيء؟»

أقول أنا: «لا يهمّ ذلك». أقفز من الفراش وأضع حقيبة الظهر على الفراش بيننا.

تفتح هي عينيها. «ما هذا؟»

أفتح سحّاب الحقيبة وأُخرج إناء الحمّص.

«لقد أكلتُ بالفعل يا حبيبتي، شكرًا لك.»

أفتح الإناء سريعًا وأضعه في يديها. أقول لها: «انظري». تحدّق في الإناء مقطّبة الجبين. وتتنفّس نفسًا حادًّا.

آخذ الإناء منها. «افتحي يديك». أصبّ بعض التراب على كفّيها المفتوحَين.

أهمس قائلة لها: «تراب القدس.»

أرى عينَيها وأنا أعلم أنّ كلّ خطوة في رحلتنا كانت جديرة بتلك اللحظة.

* * *

مع قرب موعد حفل الزفاف الذي لا يزال باقيًا عليه شهر، فإنّ ماما وبابا ينويان جعلي مشغولة بعد المدرسة. تأخذني چيهان من بوّابة المدرسة، وتخرج دفترها الوردي الدافئ وقلم الحبر الذي يضاهيه مع الخيط الحريري الرقيق الذي ينساب من إحدى نهايتَيه. تنظر في قائمة مواعيدها، شفتاها مثنيّتان في تركيز، وتكشف في بهجة وانفعال عن مهمّة بعد ظهر اليوم. اليوم نذهب للتسوق لشراء أحذية الزفاف وأنا مجبرة على مشاهدتها هي وماما وهما يتجادلان حول ظلال اللون الأبيض. في لحظة من اللحظات أنا مدعوّة لإبداء رأيي.

«هذا الحذاء أم ذاك؟» تسألني چيهان، وهي تمسك زوجين متماثلَين من الأحذية.

«أوو... ما الفرق؟»

تسألني في نفاد صبر: «حسنًا، هل تفضّلين هذا الأبيض أم ذلك الأبيض؟»

تهمس ماما في أذني: «قولي الزوج الذي في اليسار.»

تُصيبني الحيرة، وأخبرهما أنّني أعاني من صداع وأَجري منطلقة بعيدًا وأنتظرهما عند الخزينة.

في هذه الليلة تمّ فرض حظر تجوال لمدة ثمان ساعات. كانت هناك صدامات بالقرب من قبر راشيل عندما بدأت البلدوزرات تهدم بعض المتاجر وبعض المنازل المحيطة التي كانت في طريق الجدار. ماما غاضبة ثائرة. لقد دعت بعض صديقاتها للعشاء الليلة. كما أنّ بابا كان غاضبًا أيضًا، على الرغم من أنّ مشاعره كانت هادئة لأنّه سيكون باستطاعته أن يبقى في البيت (كان قد خطّط للهرب من صديقات ماما بلعب الكوتشينة في منزل عمّو هشام) وأن يمتّع

نفسه بكلّ طيبات الطعام والشراب الخاصّة التي أعدّتها ماما بعناء وجهد.

نجلس في غرفة الجلوس، اجتماع يحدوه صمت مهيب ونحن نصغي إلى ماما من المطبخ. يجلس طارق في حجر چيهان، عيناه مفتوحتان على اتّساعهما يملؤهما الفضول والخوف على السواء. لم يجرؤ بابا على الدخول إلى المطبخ ليشعل فحم أرجيلته على الموقد ولجأ إلى علبة سجائر ماما. حتّى محمّد راح في النوم مبكرًا قبل موعد نومه المعتاد. على الرغم من أنّ ستّي زينب ليست بخير، إلا أنّ طاقتها للحديث لم تنضب ولم تضعف، ولكنّها هي أيضًا تمارس كبحًا غير عادي، مبقية على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال العربية التي تردّدها وتقولها عند أقلّ قدر ممكن ولا تكاد تقولها إلا همسًا فقط.

«كلّ هذا اللحم والدجاج!» تغمغم ماما متذمّرة. «هل يعتقدون أنّني أستيقظ وأجد نقودًا تحت وسادتي؟» يدوّي غطاء إناء. «المرّة الأولى التي أدعوهم فيها إلى منزلنا و...» - يغلَق باب الثلاجة بقوّة - «كانت الكنافة ممتازة! بل حتّى دعيهم يجمّدون الكريمة بالعسل بالطريقة التي أفعلها أنا!» - يوضع وعاء بقوّة على طاولة المطبخ. - «وتخبرني تلك الحمقاء الثرثارة سارة ألا أقلق» - يُغلَق باب خزانة محدثًا صوت ارتطام - «يمكننا إعادة الجدولة ونجعلها في مكانها هي. كيف» - صوت ارتطام - «تجرؤ» - صوت شيء يسقط - «هي» - صوت إغلاق بقوّة ـ «على أن تُخطئ الأمر ولا تفهمه؟»

عندئذٍ يرنّ جرس الهاتف. تصيح ماما: «سوف أردّ عليه أنا. لا بدّ أنّها يسرا». وتندفع إلى غرفة الجلوس، وعيناها تتحدّياننا

لنعارضها.

«نعم؟ حسنًا... نعم... بالطبع... نعم سوف نحدث ضوضاء أيضًا.»

في تروٍّ واحتراز نتبادل رفع حواجبنا في عجب وننتظر انتهاء ماما من الردّ على الهاتف.

تتنهّد تنهيدة عميقة، وتمرّر أصابعها خلال شعرها، التي قامت چيهان بتجفيفه وتصفيفه، وبعد ذلك تمسح أحمر الشفاه خاصّتها بظهر يدها.

تقول ماما: «سوف يكون هناك مظاهرة. چيهان، حياة، اذهبا وأحضرا الأواني، وصواني القلي، والمغارف. فؤاد، افتح جميع النوافذ.»

إنّها حالة «أبو فلان»، يتّصل هاتفيًّا بأمّ فلان، التي تخبر كلّ أبي فلان أنّه في منتصف الليل ينبغي على الجميع أن يقرعوا أوانيهم وصواني القلي لديهم احتجاجًا على حظر التجوال.

نُمسك أنا وطارق وچيهان المغارف المعدنية وندقّها بشدّة على أواني ماما وصواني القلي، واضعين أنفسنا أمام نوافذ شقّتنا، متنافسين مع أصوات الطبول التي تأتي منبعثة من البيوت القريبة المجاورة. يتقاطر العرق على وجوهنا، تحمرّ خدودنا من فرط الجهد، ونصرخ في ابتهاج حيث إنّ منزلنا تعود له الحياة بأصوات الارتطام والأصداء التي يحدثها احتجاجنا. محمّد، الذي استيقظ حتمًا، يجلس في حجر ستّي زينب، ويتبع رأسه المتمايل الأصوات. تنظر ستّي زينب إلينا وتضحك. «أعلى! أعلى!» تصيح، وهي تحثّنا على الاستمرار. حتّى ماما وبابا ينضمّان إلينا. إنّني لم أرَ ماما بمثل هذه الحيوية من قبل مطلقًا.

لقد انبعج الوعاء الذي كانت تدق عليه عندما انتهت من الطرق. تلبّد شعرها بالعرق، عيناها تكادان تكونان مجنونتين من البهجة والمرح وهي تطرق بكلّ قوّة صينية القلي التيفال التي لا يلتصق بها الطعام. كان لزامًا على بابا أن يكبحها عندما راحت مندفعة لتأخذ صينية قلي أخرى.

يقول هو: «إنّنا نحتاج على الأقلّ إلى صينية قلي تتبقّى حتّى نطهو دجاجة مشوية فيها.»

يقترب منّي سامي قبل أن يدقّ جرس المدرسة بلحظات معلنًا وقت الغداء، يريد أن يعرف إذا كنت سأهرب من المدرسة وأنضمّ إليه. إنّه ذاهب إلى الكنيسة.

«ماذا؟ تعني طواعية واختيارًا؟»

«نعم.»

«حسنًا. أظنّ أنّني مدينة لك بزيارة على أيّة حال.»

يقودني إلى كنيسة المهد. عندما نصل أتبعه عبر دهليز من مداخل مقنطرة هائلة مصنوعة من حجارة منحوتة باللون البنّي الداكن والفاتح. إنّني لم أذهب قبل ذلك قطّ إلى هذا العمق في الكنيسة. ليس لأنّني مسلمة، ولكن في سنّي هذه فإنّ الكنائس والمساجد وطبيب الأسنان هي في العادة أماكن يتمّ تجنّبها.

ندخل من بابَين كبيرَين ونصل إلى الداخل. تلقي الشموع بظلال عملاقة على الجدران العتيقة. الرائحة الثقيلة تداعب أنفي وتجعلني أشعر بالدوار. صفوف وصفوف من أعمدة رخامية ضخمة تصطفّ عبر المساحة المكشوفة وتقود إلى باب ضخم آخر بضلفتَين. الأرضية من الرخام بظلال مختلفة من اللونين الرمادي والأبيض. نمشي إلى المذبح ويصيبني الذهول من ثراء الكنيسة. المكان مليء

بالذهب والفضة والشمعدانات والثريات المتساقطة والمتدلية.

أهمس قائلة: «واو، إنّها جميلة.»

يقول سامي في هدوء: «اتبعيني.»

«إلى أين نحن ذاهبان؟»

«الكهف.»

«ما هذا؟»

«المكان الذي ولد فيه المسيح، يا غبية. كلّ الناس تعرف ذلك.»

«إلام نحن ذاهبان هناك؟ أنا مسلمة، تذكّر ذلك.»

«نعم، أعلم ذلك! أريد أن أضيء شمعة.»

«لماذا؟»

«لأبي»، يقول ذلك دون أن ينظر إليّ. «لقد مرّت سبع سنوات اليوم.»

«أوه.» إنّني أشعر بالخزي أنّني نسيتُ ذلك.

نهبط درجات السلم إلى مذبح مستطيل الشكل. السيّاح والعُبّاد متجمعون حول نجمة فضّية مثبّتة في الأرض المرصوفة بالرخام.

«كيف يمكنهم أن يضعوا سريرًا هنا؟» أقول ذلك همسًا لسامي. «أم إنّ السيّدة مريم قد وضعت مولودها على هذه الأرضية الصخرية؟»

ينظر سامي إليّ نظرة غاضبة. «لقد وضعت في إسطبل. وتمّ بناء ذلك فوقه فيما بعد. ألا يعلّمون المسلمين أيّ شيء؟»

«إنّني حتّى لا أنصت لدروس التربية الدينية الخاصّة بي، ناهيك عن دروس التربية الدينية الخاصّة بكم.»

يهزّ رأسه في وقار. «كلام معقول.»

يُضيء شمعة ويقترب من النجمة الفضّية.

«هل يمكنني أن أشعل شمعة أنا أيضًا لوالدك؟» أقول ذلك همسًا له في تردّد.

يعطيني شمعة ويهزّ رأسه. ننحني إلى جوار بعضنا البعض ونأخذ في الدعاء والصلاة.

في طريق عودتنا إلى البيت يسألني سامي إذا كنت مستعدّة.

أنظر إليه في صراحة: «مستعدّة لماذا؟»

«للعثور على وسيم. ألا تتساءلين إن كان قد انتظرني؟ عند الصيدلية؟»

«أوه... نعم! لقد نسيته تمامًا.»

«هكذا البنات كلّهن. إنّها كرة القدم التي نتحدّث عنها يا حياة! أريد أن أعثر عليه. إنّني ذاهب إلى مخيّم عايدة غدًا. بعد المدرسة. يمكن أن نقول إنّ لدينا تدريبًا على الدبكة.»

أرفع حاجبَيّ باتّجاهه متعجّبة.

«حسنًا، سوف نجرّب عذرًا آخر. اللعنة، لن يكون بإمكاننا أبدًا أن نستخدم تدريب الدبكة مرّة أخرى. أنت قادمة، نعم؟»

«بكلّ تأكيد. ولكنّني لن أستطيع غدًا. ﭼيهان تريدني أن أساعدها في حزم حقائبها.»

«لماذا؟»

في هذه المرّة أرفع كلا حاجبَيّ متعجّبةً.

ينظر سامي إليّ نظرة خجولة مرتبكة. «أوه. نعم. حفل الزفاف... حسنًا، سوف نذهب بعد غد.»

«حسنًا.»

يقول في ابتهاج وهو يفرك يديه معًا: «سوف يحدث يا حياة إنّني متأكّد من أنّني سأعجِب المدرّب. وبعد ذلك شاهديني

أغادر هذا المكان! شاهديني أصبح نجمًا كبيرًا. وبعد ذلك سوف أشتري وسيلة عِودتي إلى هنا مرّة أخرى وسوف أجد شخصًا يدفع حتّى أستطيع أن أرى والدي. المال يتكلّم يا حياة. فقط فكّري فيمَ سيقوله!»

١٩

ستّي زينب متعبة. تطلب منّي أن أساعدها في الذهاب إلى فراشها. تميل بجسمها الثقيل عليّ وأقودها ببطء إلى غرفة نومها. يمكنني مساعدتها في أن تصبح مرتاحة، وأن أشد البطانية عليها وأغطيها حتى صدرها، وأرتّب الوسائد خلفها. يتدلى خمارها الأبيض ملفوفًا حول رأسها، وتسقط خصلات من شعرها على وجهها. نفَسُها مجهد، وهواء هذا النفس موهن عفن.

«لقد كانت حياتي كلّها سياسة» - تقول ذلك هامسة وهي تمسّ مجموعة من صور خالاتي وأخوالي الفوتوغرافية الموجودة على الطاولة الموجودة إلى جوار سريرها. «إنّني لا أشاهد التلفزيون

من أجل السياسة لأنّ السياسة موجودة في كلّ نفس أتنفّسه. إنّها هنا في هذه الشقّة، في المقاعد الخالية التي ينبغي أن تحوي أولادي الذين أجبروا على التفرّق والتشتّت في أنحاء العالم. إنّها هنا في أوراق النعناع التي تطفو في قدح الشاي الموجود إلى جوار فراشي. أوراق النعناع التي كان ينبغي أن تُقطف من مشتل الزهور الموجود في بيتي، لا أن يتمّ جلبها من متجر «أبو يوسف». إنّها في حبّات الزيتون التي آكلها من شجرة شخص آخر، وتلك البقعة من السماء التي تمّ إخباري أنّه يجب عليّ أن أعيش تحتها.»

أربت عليها: «اهدئي يا ستّي. إنّك بحاجة إلى توفير طاقتك. لا تُرهقي نفسك.»

تمدّ يدها وتتحسّس وجهي.

«حياة، لطالما أردت أن تُردّ إليّ أحلامي وأحصل على ثمنها. لقد عرفت مشاعر ذلك الخراب والتدمير الذي كان يهدّد بأن يدفنني تحت الأرض. لقد بكيت في حرقة على أرضي، وهي تجيبني في صراخ وصياح. ولكنّني رحتُ أشاهدك تكبرين، وجيهان تقع في الحبّ، ومحمّد يصل إلى هذا العالم، وطارق يدخل المدرسة. إنّ قلبي، مثل وردة وأنت مثل أوراقها. ما الذي أحتاج إليه أكثر من ذلك؟» وتُقبّل قمّة رأسي. «والآن، كوني فتاة لطيفة وأحضري لي دوائي.»

«إنّه مع ماما.»

«إنّها تظنّ أنّني صرت خرفة إلى حدّ لا يمكنني معه أن أعرف ما آخذه. باه! ربّما يكون قد أصاب جسدي الوهن والضعف، ولكنّ عقلي لا يزال حادًّا ومتيقّظًا يا حياة. وعلى أيّة حال، فإنّها هي التي أمضت ساعة تبحث عن كيس نقودها بالأمس. لقد كان في درج

جواربها. هل أخبرتك بذلك؟»

أهزّ رأسي وأبتسم. وعندما أمرّ بغرفة النوم بعد ذلك بقليل، أختلس نظرة نحو الداخل. ستّي زينب نائمة، وتشخر بصوت عال. تستريح يداها على صدرها، وتكاد أصابعها تمسّ الإناء المملوء بالتراب الذي لا بدّ أنّها قد مدّت يدها إلى جوار فراشها لتأخذه.

أستغرق أنا في تأمّل وجهها كما لو كان آخر طيّارة أطيّرها في الهواء هذا الصيف وأبتسم ابتسامة عريضة تملأ وجهي من الأذن إلى الأذن.

«إذن سوف نأخذ فستاني الأسبوع القادم. هل تصدّقين ذلك يا حياة؟ الأمر كلّه يحدث سريعًا سريعًا. أمّ أحمد تلاحقني بالاتّصال. إنّها تخبرني أنّها تتحرّق شوقًا ليوم الزفاف. إنّها تبدو لطيفة. آمل ألا تكون واحدة من تلك الحيزَبونات اللاتي يتدخّلن في شؤون الغير. حسنًا، إنّها لم تتدخّل في أيّ قرار من قراراتي حتّى الآن. هاه! ربّما سيكون أحمد هو الشخص الذي لديه مشاكل مع ماما...»

أجلس في سرير ستّي زينب أساعد چيهان في فرز الملابس التي ستأخذها معها والملابس التي ستتركها لي.

«الآن يمكنك أن تأخذي هذا الفستان» - تقول چيهان ذلك لي، وهي تقذف به إليّ.

«شكرًا!» أردّ عليها صائحة، وأنا أمرّر يدي على النسيج الحريري.» هل أنت متأكّدة من ذلك؟ سيكون لديك الكثير من حفلات الزفاف والحفلات الأخرى التي ستذهبين إليها عندما تكونين عروسًا.»

«آه، لا تقلقي بهذا الشأن. إنّه صغير جدًّا عليّ بحيث لا يمكنني ارتداؤه.»

تسير ستّي زينب متهادية مترنّحة إلى الغرفة وتجلس في مقعد عند حافّة سريرها. وتسأل چيهان قائلة: «ماذا تفعلين؟»

«إنّني أفرز ثيابي يا ستّي.»

«يرعاك الله ويحميك. أتمنّى لك السعادة. أتمنّى أن تعاملك أسرتك الجديدة بالحبّ والعطف. أتمنّى أن نراك كثيرًا. يا إلهي، أتمنّى أن نراك كثيرًا. وأتمنّى أن تُرزقي بأطفال كثيرين.»

«آمين»، تغمغم چيهان بالكلمة بشكل تلقائي.

«أدعو الله أن يرعى حماتك وحماك وإخوتهم وأخواتهم و...»

أنظر نظرة مرتعبة مذعورة إلى چيهان. «سريعًا»، وأهمس: «قد يستمرّ ذلك لساعات وساعات!»

تقاطعها چيهان، وهي ترتمي في تثاقل إلى جوار ستّي زينب: «هل ستفتقدينني يا ستّي زينب؟» وتحيط بذراعها كتفي ستّي زينب الواهنَين وتضغط عليهما ضغطة حنونًا كلّها عطف وحبّ. «من الذي سيسبّب لك المشاكل عندما أرحل أنا؟ أوه، سيكون هذا المنزل خاويًا من غيري!»

تنفجر ستّي زينب في ضحك صامت، وكتفاها تهتزّان في حركة لأعلى ولأسفل.

«لا تقلقي يا ستّي، ستكون حياة هنا. إنّها فتاتك المفضّلة على أيّة حال. إنّها تذهب إلى القدس بمفردها من أجل إناء من التراب. إنّني لن أفعل ذلك أبدًا.» تغمز چيهان بعينها نحوي وأُخرج أنا لساني لها.

«كان الله في عون أهلِ زوجك.» تقول ذلك ستّي زينب، مما يجعل چيهان تقهقه ضحكًا.

«ما هي النكتة التي تضحكن عليها؟» تسأل ماما هذا السؤال وهي

تدخل. وبدون انتظار لأيّ ردّ تستمرّ في الحديث: «چيهان، لا تأخذي كلّ شيء معك. إنّك حتّى لا ترتدين نصف ملابسك. هل حزمت كلّ ملابسك الجديدة؟ أرجوك لا تأخذي بنطلون الجينز الفظيع هذا معك. إنّه بالٍ عند المقعدة! ولا تقولي لي إنّ هذه هي الموضة!»

«ولكنّها هي الموضة!»

«حياة، أَخرِجي هذا البنطلون من الحقيبة. إنّني لن أدع ابنتي تدخل بيتها الجديد بملابس ممزّقة. ما الذي ستقوله حماتك؟ سوف أخبرك بالذي ستقوله. سوف تقول: «أيّ أمّ هذه التي ربّتك لترتدي ملابس ممزّقة بالية؟» سوف تقول...»

«أوه يا ماما» - تقول ذلك چيهان في تهكّم.

تذهب چيهان بسرعة إلى جهاز تشغيل الأقراص المدمجة وتُشغل الموسيقى. وترقص حول أمّها، وهي تشدّ يدي وتجذبني لترفعني معها. يأتي طارق جريًا إلى داخل الغرفة ويقلّد رقصنا، وهو يسخر منها وينظر إلينا في استهزاء وسخرية.

تقول چيهان: «إنّني سأتزوّج!» وتصفّق ستّي زينب على صوت الموسيقى، وتبدأ ماما في النحيب. يدخل بابا ويصيح: «ما المشكلة؟ ما الذي حدث؟»

تردّ ماما في نحيب وعويل: «إنّها ستتركنا وتذهب إلى رام الله.»

تقول ستّي بصوت أجشّ: «يا حبيبتي، هكذا هي الحياة. فكّري في عدد الأولاد الذين ودّعتهم أنا. أوّلًا كان هناك سليم...»

تطرح چيهان ذراعَيها حول أمّها وتضحك.

«يا ماما، سيكون كلّ شيء على ما يرام. سوف أجعلك جدّة في يوم من الأيّام! هاه! كم هو أمر مضحك ومسلٍّ! يا لك من ستّو صغيرة ستكونين!»

أصاب بابا الارتباك والحرج من هذا الاستعراض للمشاعر، وراح يبتسم في خجل وينسحب في هدوء بعد ذلك.

راحت چيهان تدور حولنا: «يقول أحمد إنّنا سنرقص الليل بطوله. وأنت يا حياة، سوف تكونين أفضل راقصة دبكة هناك! لقد استأجر أحمد فرقة ممتازة!

تجعل ماما چيهان تقطع على نفسها عهدًا أن تتّصل بها كلّ يوم وألا تستشيرها إلا في وصفات الأطعمة. تقول ماما: «افعلي هذا من أجلي يا چيهان. لا تستشيري أمّ أحمد. اسأليني أنا.»

أتقلّب تلك الليلة في فراشي وألاحظ چيهان وهي ترقد مستيقظة تمامًا تحدّق في السقف.

«ألا تستطيعين النوم؟» قلت ذلك همسًا لها.

تهزّ رأسها.

«ما المشكلة؟»

يبدو وجهها عندئذٍ على وشك الانهيار وهي نصف تقهقه ونصف تختنق.

«هل تشاجرت مع أحمد؟»

تهزّ رأسها وهي تنشج بصوت مسموع. أزحف خارجة من فراشي، فأجد علبة مناديل ورقية وأعود، وأناولها إيّاها. تتمخّط في هدوء قدر الإمكان وتمسح عينَيها. نرقد جنبًا إلى جنب، ورأسانا في مواجهة كلّ منا الأخرى على نفس الوسادة.

«لقد خطر ببالي وحسب. هذا هو كلّ شيء.»

«ماذا؟»

«ماذا لو حدث وانتهى بنا الأمر أنا وأحمد إلى شجار طوال الوقت؟ مثل بابا وماما؟ وماذا لو كان فوضويًّا ويتوقّع منّي أن

أرتّب كلّ شيء وراءه؟»

«أوه، حسنًا، حسنًا. أنت فوضوية على أيّة حال، فما المشكلة إذن؟» تفكّر للحظة وبعدها تبتسم. «نعم، أنا فوضوية...يا إلهي!» وتتّسع عيناها. «ماذا لو كان مرتّبًا منظّمًا؟»

«يمكنه أن يرتّب وراءك؟»

«ها! نعم، خيرًا سيفعل!» وتكبت ضحكتها في الوسادة. وبعد ذلك تنظر إليّ بعينَين واسعتَين. «يا إلهي. ماذا لو أنّني احتجت الذهاب - أنت تعرفين - إلى الحمّام أو احتجت إلى الضراط؟» وتقهقه. «يا للإحراج يا حياة. أوه، لا يمكنني ذلك. لن أذهب إلى الحمّام مرّة أخرى.»

«لا تكوني سخيفة. إنّ ماما وبابا يضرطان أمام بعضهما البعض طوال الوقت ولا يزالان متزوّجَين.»

«إنّني أحبّه يا حياة. انظري، اقرئي هذه الرسالة التي أرسلها لي الليلة.» وتمد يدها تحت وسادتها تبحث عن هاتفها، وتُريني الرسالة. «أنت ترقصين حافية القدمين على مدخل قلبي.»

«هل هو الذي ألّف تلك الكلمات؟»

«لا، إنّها أغنية. الأمر كلّه يتعلّق بالاستعمال والتطبيق.»

«أوه. شيء لطيف.»

نرقد في مكاننا في صمت لبضع لحظات.

«نعم، إنّني أحبّه. ولكن...» تنزل دمعة على وجهها فتمسحها. «كم أنا غبية، وأنا أبكي مثل طفلة... إنّني سأفتقدكم جميعًا.»

«إنّنا لن نفتقدك. سوف يكون لدينا مساحة فراغ أكبر في الفراش الآن. ووقت أطول للاستحمام. و...»

«أيّتها الطفلة الشقية!» تقول ذلك وهي تضربني على ذراعي.

«هل تعتقدين أنّ أحدًا سيحبّني على الإطلاق؟» سألتها هذا السؤال بعد فترة توقّف طويلة.

«نعم بالطبع!»

«صه. سوف توقظين ستّي زينب.»

«بالطبع.» كرّرتْ ذلك في صوت خفيض. «لماذا بالله عليك...»

أرفع يدَيّ إلى وجهي، أتحسّس الندوب التي فيه. «إنّني مثل لوح زجاجي مهشّم متناثر» أقول ذلك مغمغمة. «حتّى عندما تصلحين الزجاج وتلصقينه ببعضه، فما تزال الشروخ ظاهرة وواضحة.»

تمسك ذقني بيدها وتجبرني على النظر إليها في عينَيها. «إنّك جميلة، أيّتها السخيفة. إنّني لم أكن لأستمرّ في الحياة ثانية واحدة...» صوتها يتلعثم فأنظر بعيدًا وأبتلع الغصّة التي جاءت إلى حلقي فجأة. «إنّني أحترمك، يا حياة. إنّني فتاة تعسة جاحدة وأتعجّب أحيانًا عمّا يراه أحمد فيّ.» وتمرّ لحظة من الصمت بيننا، وبعدها تضيف بشكل عفوي: «الشابّ المسكين، لا يعلم ما هو في انتظاره.»

نقهقه، وعندما نلتقط أنفاسنا، أرتمي في حضنها وأغلق عينيّ. لقد سئمتُ الكلمات. في تلك اللحظة، يكفي بالنسبة لي أن أنام بدون أحلام بين ذراعَي أختي.

٢٠

تطلب منّي ماما أن أرافقها وهي تلفّ أوراق العنب لوجبة عشاء اليوم التالي. أراقبها وهي تغرف بالملعقة الأرزّ النيّيء والطماطم والبقدونس وتضعها في أوراق العنب المفرودة على الطاولة الصغيرة. المطبخ صغير مقارنة بالمكان الشاسع الذي كان لدينا في بيتنا في بيت جالا. كان لمطبخنا هناك باب بضلفتين يفتح على بلكونة تطلّ على بستان مليء بأشجار البرتقال والليمون. يوجد في وسط الغرفة طاولة بيضاوية من خشب الزان تتّسع لثمانية أشخاص للجلوس عليها. كان هناك بوفيه طويل بجانب أحد الجدران خاص بأطقم ماما وأوانيها الفخّارية الخاصّة بالعشاء. يذكّرني المطبخ الموجود في الشقّة هنا بخزانة. صغير ومكدّس، بل ولا يمكن أن يتّسع للفريزر،

والذي كان لزامًا أن يتمّ وضعه في نهاية الطرقة.

تقول ماما، وصوتها منخفض على غير عادة: «كنتُ غاضبة منك للذهاب إلى القدس، كم كنتُ قلقة عندما لم تعودي للمنزل من المدرسة في ذلك اليوم. يجب عليك أن تعدينني بألا تفعلي ذلك الشيء مرّة أخرى.»

أردّ عليها مغمغمة بشكل تلقائي: «نعم، يا ماما.»

«كان ذلك منتهى الشجاعة يا حياة...»

ولّما كنتُ قد اندهشتُ من مديحها، نظرتُ لأعلى في عينَيها، فابتسمتْ هي.

«إلا أنّ ذلك كان حماقة على الرغم من ذلك.»

«نعم، يا ماما».

«ياللا، خذي ملعقة وساعديني. سيكون لديك منزلك الخاصّ في يوم من الأيام، ولكن لن يكون لديك سوى مطبخ واحد لتتعلّمي منه. ولكن من أجل قلبي، أرجوكِ أن تختاري شابًّا من هنا. أو من بيت جالا، مسقط رأسنا الحقيقي. على الرغم من أنّه سيكون من الأفضل أن يسكن هنا، حيث إنّنا نعيش هنا الآن. لا تحشي الأوراق أكثر من اللازم يا حبيبتي، وإلا سيكون من الصعب لفها. كلّما كانت صغيرة، كان الإطراء والمديح أفضل. إذن أخبريني يا حياة. هل رأيت المدينة القديمة؟ هل هي جميلة مثلما يقولون؟»

«نعم. ولكن يا ماما... إنّها ليست بيت جالا.»

تقول وتبتسم: «آه، بيت جالا، كان عمرك تسع سنوات فقط عندما جئنا إلى هنا. هل كنتِ صغيرة بحيث لا يمكنك أن تتذكّري كم كانت رائحة التلال طيبة وزكية؟ الفضاء المكشوف؟ كنتُ أتمتّع بالتنفّس هناك...» وتنظر إليّ محدّقة.

«تعلمين، يا حياة، أحسّ أحيانًا بالماضي ملموسًا للغاية وكأنّني أستطيع أن أمسك بالذكريات بيدي، وأُحضرها إلى وجهي وأتذوّقها.» تميل باتجاهي. «هل تذكرين اليوم الذي جاؤوا فيه من أجل أرضنا؟»

أهزّ رأسي فتواصل هي حديثها. كلماتها، التي عادة ما تنساب من فمها، تقرّر أن تتلكّأ هذه المرّة، وأنا سعيدة بالهدوء غير العادي الذي في صوتها.

«تمّ إعطاؤنا أمر المصادرة. كانوا سيبنون طريقًا ليربط المستوطنات بعضها ببعض... عاد والدك إلى البيت من الحقل. وناولته الأمر... مزّقه وجلسنا لتناول الطعام. رفض أن يتكلّم عن ذلك في تلك الليلة.

«عشنا في خوف لمدّة عامَين يا حياة، متسائلين متى ستصل البلدوزرات.» يتلعثم صوتها وتستقرّ عيناها المكحولتان بكحل كثيف - تستقرّان في ثبات على ورقة العنب التي كانت تلفّها.

«ماما...؟»

إنّني غير متعوّدة على رؤية ماما بهذه الصورة. كان دائمًا لديها فهم جادّ للعواطف لا يعرف المزاح. على العكس من بابا، الذي كنت أراه بانتظام محبوسًا في أحلام يقظته، تبدو ماما دائمًا مشغولة للغاية بحيث لا يمكنها التأمّل في أيّ شيء سوى إدارة المنزل والعناية بنا.

تحاول الابتسام وتتنهّد تنهيدة كلّها إعياء. «إنّني على ما يرام، يا حياة. إنّني فقط مندهشة من قوّة وحيوية ذكرياتي عن تلك الأيّام.»

«أتذكّر أنّك في أحد الأيّام أخبرتنا بإخلاء المنزل من كلّ شيء،

وكنّا أنا وچيهان نتجادل بخصوص اللُّعب التي تملكها كلّ منّا.»

«كان ذلك عندما وصلَنا إخطار الهدم - ضعي المزيد من الأرزّ في هذه الورقة يا حياة - كان أمامنا أسبوع للخروج وإخلاء المكان. جاءت إخطارات هدم لبعض جيراننا أيضًا. كنّا جميعًا في حالة من الذعر يا حياة، نتنافس على الوصول إلى شاحنات نقل الأغراض القليلة في المدينة...» تضحك ضحكة خافتة وتهزّ رأسها. «نشبت بيني وبين أمّ تامر مشاجرة كبيرة بسبب ذلك. كانت لديها حجرة جلوس وغرفتا نوم. كانت لدينا غرفة جلوس كبيرة واحدة، وغرفة معيشة واحدة، وأثاث شرفة، وطاولتا طعام وأربع غرف نوم. وكانت تريد أن تأخذ الشاحنة الأكبر... إنّني لم أحبّ تلك المرأة قطّ. انتقلتْ لتعيش مع ابنتها وزوج ابنتها. ومع ذلك، فإنّني أشعر بالأسف من أجلها. إنّها لم تنسجم مع زوج ابنتها. على الرغم من ذلك، فإنّني لا ألومه...»

«ماما، في اليوم الذي أتَوا فيه... لماذا أرسلتِ ستّي زينب وأنا وچيهان إلى البلدة مع خالتو أنيسة؟ اشترت خالتو أنيسة لنا غداءً. إنّني أتذكّر ذلك. كما أتذكّر چيهان التي كانت في حالة مزاجية سيّئة للغاية. قالت إنّك تعاملينها كطفلة.»

«إنّها لم تسامحني عندما عدتنّ ولم يكن هناك شيء باقٍ. ولكنّني لم أُردْكما أن ترَيا المشهد. أوّلًا دمروا خزّانات المياه، الخزانات التي كنّا نستخدمها لريّ المزرعة. بعد ذلك المبنى الذي كان والدك يخزّن فيه المعدّات الزراعية. والدك... حسنًا، إنّك لم ترَيه أبدًا في تلك الحالة ومن غير المحتمل أنّك سترَينه كذلك على الإطلاق...

أمّا الجزء الأكثر سوءًا فقد كان في مدى الصخب الذي صاحب الهدم والبطء أيضًا. وعندما أتَوا لهدم منزلنا فقدتُ السيطرة على

نفسي يا حياة. ورحتُ أجري باتّجاهه، ولكنّ صفًّا من الجنود كانوا يعترضون البوابة الأمامية ويسدّونها، حامين البلدوزرات. كنتُ أريد أن أضربهم. كنتُ أريد أن أسحقهم. لم أشعر بثورة الغضب هذه في حياتي أبدًا. عندما سقطتْ الجدران انهرتُ أنا.»

«وبابا؟»

«كان لزامًا على الجيران أن يُمسكوا به ويمنعوه. ثبّتوه على الأرض وهو يصرخ ويصيح... بدأوا بالأشجار»، وتحوّل صوتها إلى همس «وكان ذلك هو الشيء الأكثر فظاعة على الإطلاق.»

«إنّني أفتقد أرضنا يا ماما، كلّ ذلك تحت الكتل الخرسانية الآن. البستان... الدار... إنّني أفكّر في السيّارات التي راحت تسير على الطريق... أتساءل إذا كانوا لا يعرفون أو كانوا لا يأبهون.»

تتّكئ في مقعدها إلى الخلف وتحدّق بحزن بالغ في وجهي. بعد ذلك تبتسم، عيناها مجعّدتان وحلوتان. تقول بنبرة عملية: «لدينا في هذا العالم خياران. إمّا أن نحاول البقاء وإمّا أن نستسلم.»

٢١

نتسلّل خارجَين من المدرسة قبل الموعد بساعة.

«سوف أسابقكِ إلى المخيّم!»

أنطلق جريًا وراء سامي، سعيدة بقدمَيّ وهما تدكّان الأرض وتجعلان قلبي يرقص ورئتَيّ ترقصان داخلي. عندما نصل إلى مخيّم عايدة تستوعب عيناي الفرق الكبير بين المخيّم وبين البلدة. منذ أن انتقلنا من بيت جالا إلى بيت لحم، تعوّدت على القباب وأبراج الأجراس والكنائس. ولكن في مخيّم عايدة، المساكن عبارة عن شبكة محكمة من البيوت الخرسانية ذات أبواب ثقيلة من الصُّلب تفصلها ممرّات ضيّقة للغاية. تزيّن الفتحات التي صنعتها طلقات الرصاص بعضًا من الجدران المغطّاة بالكتابة

المنقوشة باليد. هناك أشخاص في كلّ مكان، مكدّسين فوق بعضهم البعض مثل وعاء من العدس الملوّن. هناك أطفال في عمرنا وأصغر منّا سنًّا يعانون من سوء التغذية، هناك دوائر سوداء حول أعينهم، وملابسهم ممزّقة فضفاضة على أجسادهم النحيلة الهزيلة، يلعبون في الشوارع والأزقّة المليئة بالقمامة. كما أنّ هناك أيضًا أطفالًا مرتدين أزياء مدرسية نظيفة، يحملون أكوامًا من الكتب، وحقائب ظهر ثقيلة. رحتُ أمشي في المخيّم، وقد وجدتُ صعوبة في تخيّله عندما كان مجرّد مجموعة من الخيام وستّي زينب وسيدي يوسف يجلسان في نطاق أربعة أعمدة مع أخوالي وخالاتي وأمّي تجلس عند أقدامهم. هناك صفة دائمة يتّصف بها المخيم؛ تبدو مصفوفة المباني المتراصّة دائمة وباقية بشكل صارم. الملصقات التي تحمل صور الأشخاص الذين قتلهم الاحتلال ملصقة على الأعمدة وعلى نوافذ المتاجر. ملصقات لرجال ونساء وأطفال ورُضّع تحدّق فيّ، وقد تجمّدتْ بفعل الزمن. إنّهم جزء من ديمومة المخيّم ومع ذلك فإنّني أدرك أنّ النضال ضدّ تلك الديمومة هو الذي قتلهم.

نقترب من رجل يقف خارج متجر سلع مختلطة. يطلب سامي - الذي كان قد حفظ عنوان وسيم - من الرجل أن يشرح له الاتّجاهات.

«هل تظنّين أنّه ربّما يكون قد نسي أن يتحدّث إلى المدرب؟» يسألني سامي ونحن نتبع تعليمات الرجل.

«إنّني أشفق عليه إن كان قد فعلها!» إنّني أمزح ولكنّ وجه سامي يتجعّد بخطوط القلق. نمرّ بجزّار وتنقلب معدتي من مرأى الخراف والأبقار مسلوخة الجلد وهي معلّقة أمام واجهة محلّه. كم

هو مضحك أنّني أنسى ذلك الاشمئزاز بمجرّد أن أجلس إلى طبق يدخّن من المقلوبة التي تصنعها ماما!

وفجأة ينفرد وجه سامي الذي كان قد تكرمش وتجعّد وفي نبرة مبتهجة يقول: «إنّني متأكّد أنّه فعل ذلك! كيف يمكن أن ينسى وأنا أطارده على النحو الذي كنتُ أفعله؟ لقد أخبرتُ الشباب في المدرسة، وكما تعرَفين أنت فهم حسودون للغاية.»

«هاه!» ورحتُ أتذمّر. «لماذا يحبّ الأولاد جميعًا أن يتنافسوا مع بعضهم البعض؟»

ينظر سامي إليّ نظرة غريبة.

نعثر على الشارع الذي يعيش فيه وسيم سريعًا. يجلس عمّه أمام مجمّع الشقق الذي يقيمون فيه، وخرطوم الأرجيلة في فمه. ومع ذلك، فإنّني ألاحظ أنّه ليس هناك فحم على الرقاقة التي تغطّي التبغ. يتفرّس وجهَينا ونحن نقترب منه وبعد ذلك ينفجر في ضحك هستيري غريب. أخطو خطوة للوراء - مرتعبة - إلا أنّ سامي يظلّ في مكانه. فجأة ينفتح الباب بقوّة وتأتي امرأة مندفعة إلى الخارج. تصيح المرأة: «مؤيّد»، وهي تلفّ ذراعَيها حول كتفَيه لتهدّئه.

تسألنا: «ماذا تريدان؟» يصيبني الذهول ولا أقدر على الكلام، فقط أحدّق فيها.

يقول سامي: «إنّنا نبحث عن وسيم.»

«إنّه يلعب الكرة مع أصدقائه.»

ينظر سامي إليّ نظرة وامضة تآمرية ويطلب منها أن تصف له الطريق.

أقول ونحن نسير إلى زقاق قريب يبدو أنّ وسيم يلعب فيه: «يا تُرى ما مشكلته؟»

«يبدو أنّه غير مؤذ...»

وسيم وحيد بمفرده. هناك كرة قدم ترقد على الأرض إلى جواره. ينحني على الأرض، ويشدّ جوربه لأعلى. عندما يسمع وقع أقدامنا المتثاقلة، ينظر لأعلى ويرانا.

«لقد أتيتما!» - يقول ذلك صائحًا وهو يبتسم ابتسامة عريضة في ابتهاج وينهض سريعًا. «كنت أنتظركما عند الصيدلية كلّ يوم هذا الأسبوع، يا زلمة! كنّا سنلعب الكرة. هل تذكر؟»

سار سامي باتّجاهه. يسأل في قلق: «هل تحدّثت إلى المدرّب؟»

في لحظة تخون وسيم عيناه. يُصيبه الارتباك، فيعصر يدَيه معًا، وهو ينظر لأسفل إلى الأرض وبعد ذلك يتقهقر.

«أنا... بالطبع لم يكن ذلك حقيقيًّا، يا زلمة. أعني، كانوا يفكّرون في فريق، الأشخاص الذين أتَوا إلى هنا من الخارج ليساعدونا، ولكنّني، حسنًا، كنتُ أمزح. كانت تلك مزحة فقط. ظننتُ أنّك ستستطيع أن تفهم. ولكنّ الأمر كلّه يتعلّق بالكرة مع ذلك. أليس كذلك؟ أعني، إنّني لاعب ممتاز، أؤكّد لك ذلك. كان هناك مدرّب إنجليزي ذات مرّة. كان هنا متطوّعًا. لقد أخبرني أنّني ممتاز. إنّني أُقسم بذلك. انظرا، بإمكاننا أن يكون لدينا مباراة رائعة. وبإمكانكما إحضار بعض من أصدقائكما الآخرين. نعم؟»

«لقد أقسمتَ أنّك كنت تقول الحقيقة!» أقول ذلك. «قلتَ أنت، على قبر أمّك.»

يقول وسيم بنبرة واقعية: «ماما ليست ميتة.»

أضرب بقدمي على الأرض في إحباط. «لقد صدّقناك. أبراج مائلة و... و... واقيات الركبة!»

تومض في وجه وسيم تكشيرة جانبية بها شعور بالذنب.

«لماذا كذبت؟» أواصل الضغط عليه.

يغمغم قائلًا: «لا أعرف».

يلتزم سامي الصمت. ينساب عبر الزقاق توتر يبعث على الغثيان. كلمات وسيم وكلماتي مثل وميض البرق الذي يسبق هدير الرعد.

يقول وسيم: «أصابني السأم والملل...» أُدرك أنّ عينَيه غير قادرتَين على إخفاء إحساسه بالوحدة والعزلة.

«كلام! كلام! كلام!» يصرخ سامي ويندفع على وسيم، دافعًا إيّاه على الأرض ومثبّتًا إيّاه وجالسًا فوقه مباعدًا بين رجلَيه. يبدأ وسيم في البكاء. يقول مغالبًا دموعه المنهمرة: «أنا آسف!»

«أنت كذّاب!» يصرخ سامي في هستيرية. «جعلتني أصدّق أنّه بإمكاني الخروج من هذا المكان المُقرف! أيّها الكذّاب!»

لم أرَ سامي على الإطلاق يفقد صوابه بهذه الطريقة، وفجأة أصابني الخوف.

«أنا آسف!» يصرخ وسيم مرة أخرى، ويسيل المخاط على فمه. أشعر بالاختناق.

أقول محاولةً أن أبدو رابطة الجأش: «ابتعد عنه يا سامي.»

يرفع سامي قبضة يده، ويستعدّ لتسديد لكمة إلى وسيم. يصيح قائلًا: «سوف أضربكَ وأوجعكَ ضربًا»

«سامي! كلا!»

«ابتعدي عن هذا الأمر يا حياة!»

«ابتعد عنّي!» يصرخ وسيم.

أُمسك بذراع سامي وأشدّه بعيدًا. «سامي، توقّف! هل جننت؟»

تتشابك أعيننا. للحظة بالكاد أتعرّف عليه. بعد ذلك ينهار وجهه ويسقط إلى جانب وسيم، الذي ينشج بصوت عالٍ بالبكاء.

«أغلق فمك!» يصرخ سامي في وجه وسيم.

«لا تؤذني!» يصرخ وسيم، رافعًا يدَيه إلى وجهه.

ينظر إلينا سامي نحن الاثنين نظرة اشمئزاز وبعد ذلك ينطلق مندفعًا، ويعدو منطلقًا خارج الزقاق.

«انتظر!» أصرخ وأَجري وراءه.

المخيّم ممتلئ بالأزقّة والممرّات، ويدقّ قلبي بشدّة وأنا أحاول أن أجاري سرعة سامي الكبيرة وأبقيه في مجال رؤيتي.

«توقّف!» أصيح وأنا ألهث، ولكنّه لا يتوقّف. أتابعه عبر الشوارع المزدحمة، وأنا أروغ من المشاة ومن السيارات المارّة. رئتاي تحترقان الآن وأريد أن أصرخ من الألم. وأخيرًا، ينعطف سامي إلى ممرّ قذر بين مجموعتَين من العمارات المتداعية المنهارة. الممرّ مسدود ويوجد في نهايته سيّارة محطّمة. تنبعث من الزقاق رائحة كريهة، وتوجد أكياس من القمامة الطافحة في كومات عفنة متناثرة هنا وهناك.

أتوقّف وأضع يدَيّ على ركبتَيّ، وأنا أميل للأمام أحاول أن ألتقط أنفاسي. إنّني محطّمة للغاية بحيث لا يمكنني النظر إلى سامي. أركّز على إرخاء رئتَيّ. أتساءل عن مكان وجود وسيم ولكنّني أقرّر عندئذٍ أنّ الأمر لا يهمّني. إنّني لا آبه بأيّ شيء سوى تنفّسي.

أخيرًا تهدأ رئتاي وفي نفس اللحظة أسمع صوت زجاج يتهشّم على الأرض. أنظر لأعلى وأرى سامي يقف إلى جوار السيّارة. هناك قطع مكسّرة من الزجاج تتدلّى بشكلٍ يُنذر بالخطر من الزجاج الخلفي للسيّارة. حقيبة السيّارة مغطّاة بزجاج مكسور

متناثر. ينحني سامي على الأرض ويأخذ حجرًا كبيرًا.

«توقّف!» أصيح عليه. أَجري إليه. إنّني غاضبة الآن. غاضبة لأنّه فقد السيطرة على نفسه. غاضبة لأنّ الأشياء انتهت إلى هذا الطريق. غاضبة من وسيم، غاضبة من ذلك الزقاق النتن، غاضبة من أحلام كرة القدم الحمقاء. ولكنّني غاضبة فوق ذلك كلّه من سامي لاستسلامه بهذه السهولة.

أضع نفسي بينه وبين السيّارة وأنظر إليه نظرة مهدِّدة. أقول له بنبرة جادّة: «أنزل هذا من يدك. تمالك نفسك، فأنت تتصرّف مثل شخص هرب من مستشفى للأمراض العقلية.»

«اهتمّي بشأنك أنت. أنت دائمًا في وجهي.»

«نعم، وهذا شيء جيّد. شخص لديه قدر من العقل ينبغي أن يُبقي عينه عليك.»

«ليس هذا شأنك.»

أقول وأنا أضع ذراعَيّ على صدري: «لن أذهب إلى أيّ مكان، لقد أحدثتَ تلفًا بهذه السيّارة بالفعل وكدت أن تضرب وسيم وتسحقه. وأراهن أنّك لا تزال تشعر بالحماقة».

«نعم، أشعر بالحماقة. ولكنّي كنتُ أفضّل لو أنّك أغلقت فمك وتركتني أحطّم تلك النافذة الأخرى.»

يتحرّك إلى مقدّمة السيّارة ويرفع الحجر، ويصوّبه إلى زجاج السيّارة الأمامي. «ابتعدي عن طريقي وإلا ستصابين بأذى.»

«أيّها الأبله، انظر إلى وجهي. يوجد زجاج مستقرّ هناك، حتّى الطبيب لا يمكنه أن يُزيله ويُخرجه. تظنّ أنّني خائفة ومرعوبة من قطعة صغيرة من زجاج سيّارة أمامي؟ تفضّل.» إنّني خائفة ومرعوبة ولكنّني لا أتقهقر، محاولة أن أبدو شجاعة قدر استطاعتي.

يبدو سامي مصمِّمًا. يرفع الحجر لأعلى أكثر، وأنا أقاوم التراجع خطوة واحدة للوراء. يصوّب مرّة أخرى، وبعد ذلك يصرخ، راميًا الحجر على الحائط، بعيدًا عنّا نحن الاثنين. يسقط على الأرض ويبدأ في البكاء دون صوت أو صخب. إنّني مصدومة. الأمر فظيع للغاية بحيث لا يمكن تصوّر سامي يبكي، ناهيك عن مشاهدة ذلك.

لا أقترب منه حتّى يستعيد سيطرته على نفسه.

يرفع ركبتَيه حتّى تلمسا ذقنه ويحدّق لأسفل في الأرض. أخطو خطوة متردّدة باتّجاهه، وأُخفض نفسي بطيئًا حتّى أصل إلى مستواه وبعد ذلك أجلس.

«إذا أنتِ أخبرتِ أيّ شخص أنّني بكيت...»

«بكيتَ؟» أقول هازئة وأنا أقاطعه. «إنّني لم أرك تبكي.»

يهزّ رأسه مرّة واحدة.

نجلس في صمت لبرهة. أحدّق في الزجاج المكسور على الأرض. ترتدّ آخر أشعّة لسماء ما بعد الظهيرة منعكسة على قطع الزجاج الصغيرة، مكوِّنة أقواس قزح صغيرة على الجدار.

يكسر سامي الصمت. «أخبرتك أنّه لا فائدة من الحلم.»

«هذا ليس صحيحًا... إنّه كلّ ما نملكه. تقول ستّي زينب...»

ينظر لأعلى، ووجهه مغضن بالإحباط والغضب.

«أنت لديك جدّة تتحدّثين معها، ولكنّ أمّي ماتت وأبي مسجون. لا يمكنني الحديث إلى عمتو كريستينا وعمّو جوزيف. ليس لديّ أيّ أحد... إنّني لا أحد. ظننت أنّ هذه ستكون فرصتي... حسنًا، ليست هناك فائدة، أهناك أية فائدة؟»

«هناك فائدة... انظر إليّ. إنّ وجهي محطّم، ومايسة ماتت،

سامي، إنّها ماتت! وبابا يشعر بالاكتئاب طوال اليوم وماما تتذمّر وتشكو وستّي زينب تتذكّر وعلى الدوام هناك المرآة أو الانعكاس في نافذة متجر التي تذكّرني بذلك اليوم. ولكنّ ماما تقول إنّ لدينا خيارَين في هذا العالم. إمّا أن نحاول البقاء وإمّا أن نستسلم.»

«ولكنّني لا أريد فقط مجرّد البقاء. ألا تستطيعين أن ترَي الفرق بين البقاء والحياة؟»

«لا أعلم... هناك أوقات أريد فيها أن أتكوّر في فراشي وأتجمّد في مكاني وأتوقّف تمامًا... ولكنّني أفكّر... حسنًا، أعتقد أنّ الأمل أيسر من الاستسلام. لا يبدو الأمر كذلك ولكنّه هكذا. أنظرُ إلى بابا واكتئابه ينهشه. ولكنّني أنظرُ إلى ستّي زينب. وهي لا تزال قادرة على الضحك والصفح.»

يقول في مرارة: «الصفح؟ أبدًا!»

أهزّ كتفَيّ. «من يدري؟ ولكن ربّما تكون ماما مخطئة، يا سامي.»

«ماذا تقصدين؟»

«ربّما لا يكون الأمر يتعلّق بالبقاء. ربّما يكون لزامًا علينا أن نتعلّم كيف نعيش بهدف.»

«حسنًا، ما هو هدفي؟»

«كيف يُفترض أن أعرف؟»

«لقد ذكرتِه أنت.»

«كلّ ما أعرفه أنّه ليس داخل هذا الزقاق. ولم يكن أبدًا في يدَي وسيم.»

يقف وينفض التراب من بنطلونه. «ما هذه الرائحة؟»

أقف أنا أيضًا. «إنّه الزقاق. من كلّ الأماكن التي تتوقّف فيها كان لزامًا عليك أن تختار مقلب القمامة هذا.»

«إنّه ليس مخيّمي. كيف كان يُفترض أن أعرف أين أقف؟ كنت متعبًا. زقاق خالٍ كان يبدو مثل فكرة جيّدة في هذا الوقت.»

«اترك الأفكار الجيّدة لي في المرة القادمة.»

«بكلّ تأكيد أنت تتكلّمين كثيرًا.»

أرفع حاجبَيّ باتّجاهه متعجّبة. «ماذا كنت تتوقّع؟ أنّني سأتركك تهشّم أنف وسيم؟»

«على الأقلّ كنت سأشعر بالرضا وكنّا سنتفادى كلّ هذا الحديث الباقي.»

ضربت بيدَيّ الهواء. «سأتوقّف عن الإيمان بك وتصديقك!»

يقول في هدوء: «لا تفعلي هذا يا حياة، هيّا، سوف أسابقك لنعود إلى المخيّم!»

٢٢

أطلب من بابا أن يأخذني معه لأزور قبر مايسة. لم أذهب إلى هناك منذ الجنازة وأريد أن أودّعها وداعًا لائقًا. يوافق على ذلك رغم اندهاشه.

يمشي معي عبر الرَّبع المسيحي من الجبّانة. أُمسك بيده. يضغط عليها بقوّة وأنا سعيدة بذلك.

«ها نحن أولاء» - يقول بابا برفق، وأنظر إلى الشاهد. وُضعت زهور جديدة ناضرة على حجر الشاهد. أدفن وجهي في جسد بابا.

«لا بأس» - يقولها في هدوء ويكرّرها مرارًا وتكرارًا. «إنّها في سلام. إنّا لله وإنّا إليه راجعون يا حياة.»

أتذكّر أنّني سمعت أنّه عندما عادت أمّ مايسة إلى البيت من

الجنازة، أغلقت باب غرفة نومها وراءها، وجلست أمام المرآة ومزّقت كتلًا من شعرها بأصابعها. اقتلعتها مثلما يقتلع الطاهي الريش من دجاجة. كانت ترتدي طرحة سوداء عندما ذهبت إلى الجنازة. أمسك بها زوجها وأبناؤها وهي تنتحب وتولول وتضرب بقبضتَي يدَيها على صدرها.

غُطّي وجهي بالضمادات. راح الناس يحدّقون فيّ. أردت أن أصعد إلى نعش مايسة وأدفن نفسي معها. ضمّتني ماما بشدّة إليها، جاعلة إيّاي أستريح على بطنها بينما راحت الدموع تنهمر على وجهها. كان بابا يرتدي غُطرته وكان يحمل مصحفًا بحجم الجيب في يدَيه المرتعشتَين. لم يكن يقرأ من المصحف، بل كان يربت على حوافّه وحسب، وهو يقلّبه مرارًا وتكرارًا في يدَيه. لم يُحضر معه مصحفه الأكبر حجمًا. كانت مايسة مسيحية، ولم يكن بابا يريد أن يجرح إحساس أسرتها وربّما يكون قد دعا لروحها مثلما يفعل كلّ المسلمين الصالحين، ومثلما يفعل كلّ المسيحيين الصالحين، إذ ربّما يدعون لأرواح موتانا.

كان النعش من خشب الماهوغني؛ كان وجه القسّيس مصطبغًا بلون وردي فاتح. وقف فوق النعش، يقرأ بصوت عال من الإنجيل. ألقى إخوة مايسة بأنفسهم على النعش، وأعينهم جامحة تائهة ملؤها الحزن وهم يحضنون الخشب ويقبّلونه. أردت أن أَجري صاعدة إليهم وأن أؤكّد لهم وأطمئنهم أنّ مايسة لم تكن، ولا يمكن أن تكون، راقدة ميتة دون حياة في ذلك الصندوق الخشبي. في وقت لاحق من تلك الليلة تعجّبت من حقيقة أنّ القمر قد بزغ وأنّ النجوم قد أشرقت وسطعت كما لو أنّها لم تتأثّر بموت مايسة. لم يكن لها الحقّ في الظهور هكذا، هكذا فكّرتُ بيني وبين نفسي.

وبينما كنتُ أشاهد نعش مايسة وهو يتمّ إنزاله إلى الأرض، حاولتُ أن أتجاهل نظرات الناس المحدقة والحوارات الهامسة حولي. كان القسّيس يتحدّث عن عودة مايسة إلى الخالق. كان يخبرنا أن نكون شجعانًا. لم يكن يفهم أنّها كانت ستصير نجمة الدبكة، أنّه كانت لدينا أحلام حول الفوز بكلّ مسابقة، أنّنا كنّا نخطّط للنجاح في الوصول إلى البطولات وربّما حتّى الظهور على شاشة التلفزيون. لم يفهم أحد أنّها ماتت وعيناها مفتوحتان لأنّها لم تكن مستعدّة للرحيل.

اختبأتُ أنا خلف ضماداتي، أغالب الدموع. رحتُ أشاهدهم يدفنون مايسة وكانت لديّ رغبة في أن أتقيّأ. ظللتُ أشاهد الرأس الذي مزّقه الرصاص، والجسد الميت فاقد الحياة. هال الرجال التراب على النعش، ورغبت أنا نفسي في أن ألقي بذكرياتي عن ذلك اليوم في تلك الحفرة في الأرض.

ولكن بدلًا من ذلك دُفنت جميع ذكرياتي عن الأوقات الطيّبة مع مايسة.

«حياة؟» يُمسك بابا بذقني بيده ويرفع رأسي لأعلى. «سوف تكونين على ما يرام. أعرف ذلك. إنّك أكثر قوّة منّي. أحيانًا أحسّ بأنّني قد خذلتكم جميعًا. أتشبّث بالماضي عندما أعلم أنّه من الخطر فعل ذلك... ولكن إذا تخلّيت عن ذلك، ماذا لديّ غيره؟»

«لديك نحن.»

«نعم، أعلم ذلك، وسواءٌ في بيت جالا أو في بيت لحم، أنتم عالمي. ولكن في أرضي كان باستطاعتي أن أعطيكم أكثر، أخذوا ذلك مني. أتمنّى لو كانت لدي شجاعتك يا حياة.»

«أنا؟»

يهزّ رأسه. «أنتِ لم تسحقك ذكرياتك بالطريقة التي سحقتني بها ذكرياتي.»

أوه، ولكن سحقتني ذكرياتي، أريد أن أخبره ذلك. ومع ذلك، منذ القدس، فإنّ ذكرياتي عن ذلك اليوم ظلّت تضرب بقبضات أيديها على باب في رأسي. ولكن أخيرًا، وعلى نحو رائع، إنّني أستطيع أن أرفض دخولها.

أمر غريب ولكنّني أشعر بالهدوء وأحسّ بالسيطرة. لقد سرتُ عبر ذلك اليوم مرّات ومرّات، أكثر ممّا ينبغي. في شوارع القدس، عشتها مجدّدًا وفي الحقيقة فإنّني سعيدة الآن أنّني واجهتُ ذلك اليوم وجهًا لوجه مباشرة. لقد مرّت أيّام كثيرة للغاية مع مايسة قبل ذلك اليوم، وهناك أيّام كثيرة للغاية بدونها في انتظاري في المستقبل. وإنّني أُدرك تمام الإدراك أنّ الوساوس سوف تتوقّف إذا تذكّرت مايسة ليس كشبح يطاردني ولكن كثاني أفضل راقصة دبكة في الفصل، وكانت دائمًا تمضغ العلكة، وتشدّ جوربَيها لأعلى إلى ركبتَيها، وتشرب علبتها اليومية من البيبسي بشفّاطتين.

يأخذ بابا بيدي. «هل أنت مستعدّة لتودّعي مايسة الآن؟»

«كلا»، أقولها بابتسامة. «أبدًا.»

إنّه الأسبوع الذي يسبق حفل الزفاف. تُدرّبنا ماما على أن نصبح آلات تنظيف آلية. نغسل الجدران، نلمّع الأثاث، نعلّم خزانة المفروشات والملاءات بالألوان، ننظّف الأواني الإستنليس ستيل وندعكها حتّى تصبح مثل المرايا، ننظّف الأرفف وإطارات الصور من التراب، نغيّر بياضات السرير، ونمسح الأرضيات بالكيروسين. يعيد بابا وماما ترتيب الأثاث، محاولَين زيادة المساحة الخالية إلى أقصى درجة استعدادًا لأحمد الذي سيأتي ليأخذ چيهان

إلى حفل الزفاف في رام الله. كما أنّ أسرته وأصدقاءه المسموح لهم بالمرور عبر نقاط التفتيش سوف يرافقونه أيضًا.

«ولكنّهم لن يبقَوا مع ذلك!» أقول ذلك في ضجر. «إنّهم قادمون ليأخذوها وبعد ذلك يغادرون! إذن ما الفائدة في كلّ ذلك؟»

«سوف يزورنا الناس. الآن نظّفوا!» تصيح ماما بصوت عالٍ.

أعبسُ في وجهها وآخذ كومة من المناشف وألقي بها في الخزانة، آملة أنّها سترتطم بقوّة على الرفّ.

رُفض السماح بالدخول لخالو سامي الذي يعيش في القدس. الأمر مكلف للغاية أكثر من اللازم بالنسبة لخالتو ابتسام، التي تعيش في أميركا، وخالو شريف، الذي يعيش في أستراليا، أن يُحضرا أسرهما معهما حيث إنّ لديهما ارتباطات عمل على أيّة حال. تتفهّم ستّي زينب موقفهما ولكنّها لا تزال محبَطة مع ذلك.

«إنّه أوّل زواج لنا هنا... إذا كان مكلفًا للغاية أكثر من اللازم بالنسبة للعائلة بأكملها، لماذا لا تستطيع ابتسام وشريف أن يأتيا؟ إنّني لم أرهما منذ زمن طويل.»

«من الصعب السفر يامّا» - تقول ماما ذلك في حنق. تتجاهلها ستّي زينب. «ألا يفتقدون أمّهم؟ كم هم واثقون أنّني لن أختنق حتّى أموت وأنا أتناول طبقًا من الكبّة غدًا أو تسحقني الأقدام على أرض الرقص في حفل الزفاف؟»

«أوه يامّا» - تقول ماما ذلك، وهي تمشي نحو ستّي زينب وتضغط على كتفها ضغطة حانية. «لا تفكّري أفكارًا سيّئة.»

«أنت تعلمين كم يصبح الناس مهتاجين ومنفعلين عندما تأتي الموسيقى. يمكن أن أنسحق أنا تحت الأقدام، لأنّه من سيلاحظ امرأة عجوز صغيرة الجسم مثلي؟»

«ولكنّك لست صغيرة!» يقول طارق ذلك من غير تفكير، جاعلًا إيّانا جميعًا، بما فينا ستّي زينب، نستغرق في نوبات من الضحك.

في وقت لاحق في المساء، تأتي لزيارتنا صديقة ماما، عمتو سمر، مع ابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات - حسن. تريد عمتو سمر، التي لا تستطيع حضور حفل الزفاف، أن ترى فستان چيهان.

تحضر چيهان الفستان إلى غرفة الجلوس وتنفجر عمتو سمر في الحديث بحماس وجلبة.

«ما شاء الله، الحمد لله» تظلّ ستّو زينب تغمغم بهذه الكلمات وهي تحدّق في عمتو سمر. «سوف تجلبين النحس للفستان بكلّ هذه الجلبة! قولي الحمد لله، ما شاء الله، تمام؟ هل هذه البلورة سائبة الآن وتتدلّى من الصدر؟»

«أوه يامّا، هلا استرخيتِ؟»

«إنّني أؤكّد لك أنّه لديّ أنقى وأطهر النوايا وإنّني لن أحسد چيهان» - تقول ذلك عمتو سمر في إيجاز.

«الشيطان يعمل بطرق غامضة وسرّية. كنتُ قد عرفتُ امرأة ذات مرّة كان شعرها ينزل إلى خصرها. راح زوجها يتفاخر بشعرها وكم كان حريريًّا. في يوم من الأيّام، استيقظت ونصف شعرها على الوسادة، كان الشعر في ساقيها أكثر كثافة من الشعر في ساقي زوج ابنتي. كيف تشرحين ذلك وتفسّرينه؟»

«الحساسية؟» تقول ماما، متبادلة نظرة تآمرية مع عمتو سمر.

«باه!»

عندئذٍ يدخل بابا، ويُشغّل التلفزيون. يقول في تجهّم: «كان هناك هجوم انتحاري في تلّ أبيب.»

نجلس لرؤية مشاهد المذبحة على الشاشة. تدوّي أبواق سيّارات

الإسعاف وتولول، الدم متناثر في الشارع، الناس تجري، تزعق وتصرخ، ملابسهم مشرّبة بالدماء.

أفكّر في دافيد وموللي وتتسارع دقّات قلبي.

يغمغم بابا قائلًا: «الانتقام لا يحقّق شيئًا.» وينحني للأمام ويضع كوعَيه على فخذيه، مخفيًا رأسه بين يدَيه.

تقول ستّي زينب: «هذا جنون.»

تقول ماما بتنهيدة: «سوف ندفع ثمن ذلك كلّنا. كيف يظنّون أنّ الله سوف يكافئ أولئك الذين يقتلون؟»

بعد ذلك تدوّي مكبّرات الصوت الضخمة في الخارج فجأة، ويقوم جنود بتمشيط الشوارع في ناقلات أفراد مصفّحة ليعلنوا فرض حظر التجوال. أصبحت عمتو سمر وحسن محصورَين معنا. في نفس الوقت، يبدأ حسن في الصراخ والزعيق حتّى يبحّ صوته دون أن تكون لدينا أدنى فكرة عن سبب ذلك.

«ماما! إنّه يؤلمني!» - يصرخ بهذه الكلمات.

يذرع بابا الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو مغلوب على أمره. ماما وعمتو سمر في حالة هستيرية.

تصيح عمتو سمر قائلة: «ربّما تكون زائدته الدودية قد انفجرت!».

«ربّما يكون لديه حصوات في الكلية!»

«ماما!» تصرخ چيهان عاليًا. «عمره ثلاث سنوات.»

يصرخ حسن من الألم، وتنشج عمتو سمر بالبكاء عاليًا، وهي عديمة الحيلة.

«ربّما يكون قد مسّه الجنّ!» تقول ستّي زينب. تبدأ قراءة آيات من القرآن.

«أيّ نوع من الجنّ، يا ستّي؟» يسأل طارق. «ألا يزال موجودًا هنا؟ هل يمكنني الحديث إليه؟»

يصيح بابا: «نحتاج إلى طبيب!»

يواصل حسن الصراخ، عمتو سمر تولول وتنتحب، ستّي زينب تدعو وتصلّي، ماما تلوم بابا لعدم معرفته ما ينبغي عليه فعله، بابا يلوم ماما لأنّها تزيد الأشياء سوءًا، وأنا وچيهان وطارق ننظر إلى بعضنا البعض ونتجادل بشأن من الذي سيترك مكانه في الفراش لعمتو سمر وحسن.

تقول چيهان: «إنّني على وشك أن أتزوّج. إنّني بحاجة إلى النوم الجيد لأحافظ على جمالي... أوه، على رسلك... انظروا إلى حسن... إنّ منظره مؤثّر للغاية...» بعد ذلك تندفع إلى حسن، ترفعه في حجرها وتمسك به من أسفل ذقنه، وتميل وجهه لأعلى.

«أنت! هناك شيء ما في أنفه!»

تقفز عمتو سمر إلى حسن وتضمّه بين ذراعَيها بقوّة.

يقول بابا: «على رسلك، أرقديه على الأريكة. نور، أحضري ملقاط حواجبك.»

«قد يكون هناك جني وضع شيئًا ما في أنفه» - تقول ذلك ستّي زينب في عناد، وتواصل قراءتها لآيات من القرآن.

تجري ماما إلى غرفة النوم، وتعود مُحضرةً الملقاط. يراهم حسن ويصرخ بصوت أعلى. چيهان وعمتو سمر وماما يمسكون بحسن بينما يقوم بابا برقة بإخراج عجلة السيارة اللعبة من منخر حسن الأيمن. كلّنا نبتهج فرحًا، بينما يتنفّس حسن بصوت مسموع ويدفن وجهه في صدر عمتو سمر.

«من يريد آيس كريم؟» تصيح ماما ويومئ حسن برأسه في حماسة.

إنّها آخر علبة لدينا من الشوكولاتة بالنعناع. تُصرّ ماما دائمًا على الاحتفاظ بالحلويات في الفريزر للضيوف المحتملين. إنّه شيء جنوني لأنّه من غير المسموح لأحد بالزيارة أثناء حظر التجوال على أيّة حال. ولذلك فإنّنا نتشاجر معها دومًا لتتركنا نأكل الحلوى أثناء أوقات حظر التجوال. نادرًا ما توافق هي على ذلك.

هذه الليلة، تتوقّف ماما عن عنادها وتسمح لنا أنا وحسن وطارق بأكل أوّل وثاني تقديمة من الشوكولاتة بالنعناع. بل إنّنا رحنا نلعق الغطاء والعلبة حتّى لم نترك فيها نقطة واحدة. نرفض أن ندع بابا يذوقها لأنّه يكون شريكًا مع ماما ضدّنا كلّما أردنا آيس كريم في أوقات أخرى. ننام أربعتنا على أرضية غرفة الجلوس (تأخذ عمتو سمر هي وحسن السرير) وتفوح منّا رائحة السكّر.

نرفض أن نغسل أسناننا بالفرشاة حتّى يدوم المذاق العالق في الفم لفترة أطول قليلًا. أستيقظ في منتصف الليل لأسمع ستي زينب منحنية فوق حسن. إنّها تدعو الله ألا يسمح لأيّ جنّي أن يحشر لعبة في منخره الأيسر. إذا كان من المتوقّع الحصول على آيس كريم كمكافأة على متاعبه ومشاكله، فإنّني أدعو الله أن يفعلها الجنّي.

٢٣

يقوم بابا بإجراء الاتّصالات الضرورية في الليلة التي تسبق حفل زفاف چيهان. نجلس حوله، نستمع إليه وهو يكرّر تقارير السفر الخاصّة بأصدقائه.

«ماذا؟ حظر تامّ على جميع المركبات الفلسطينية عبر الطريق أربعمائة وخمسة وستين؟ أين ذلك؟ في شمال رام الله؟ هل سيؤثّر هذا علينا؟»

تقول ماما: «اسأله إن كان سيؤثّر هذا علينا!»

يتحدّث بابا في غضب: «لقد فعلت ذلك من توّي! ماذا؟ يقول - انتظر يا هاني، دعني أخبر نور - يقول إنّ قرى الحوسان وبتير والولجة لا يمكنهم مغادرة منطقتهم إلا على الأقدام.»

تقول ماما: «ولكنّهم إلى الغرب من هنا. ستكون الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟»

«نعم. كما إنّه يقول أيضًا إنّ هناك نقط تفتيش طائرة - معذرة؟ أوه، هذا في منطقة الخليل.»

«حسنًا، ليس لنا شأن بهذا! أووف!»

«نعم، أعرف ذلك. كلا، إنّني أتحدّث مع نور. حسنًا، هل تظنّ أنّ نقطة تفتيش الكونتينر ستكون على ما يرام؟ أنت لا تعلم. يا زلمة، أعرف أنّك لا يمكن أن تكون متأكّدًا...»

نستيقظ في الفجر في صباح اليوم التالي. يوصلنا بابا بالسيّارة أنا وچيهان إلى مصفّف الشعر حيث يقوم رجل غريب بشعر أسود فاحم مستعار بفرد شعرنا حتّى يسهل تسريحه وتصفيفه. تتدلّى سيجارة من بين شفتَيه كما لو كانت معلّقة بخيط غير مرئي. لا يمكنني أن أُبقي عينَيّ بعيدًا عن الدخان الذي يزداد كلّما احترقت السيجارة. يواصل الشدّ والجذب في شعري حتّى أشعر وكأنّ جذور الشعر تحترق. يتجعّد جبينه، عيناه تصابان بالحول من فرط التركيز. تتأرجح حبّات العرق أسفل خطّ شعره الزائف مباشرة. ولكنّ رماد السيجارة لا يسقط أبدًا. في الثانية الأخيرة، يعرف بطريقة ما متى يضع الرماد في منفضة سجائر لها شكل حبّة الأناناس. عندما يكون الشعر أخيرًا قد احترق، واختفت التجاعيد الطبيعية، يتمّ تقديم مكواة تجعيد الشعر. تقوم يداه بكلّ خفّة، وهما تحدثان صوت «كليك كلاك»، بتحريك المكواة التي تغلي بشدّة مثل ساحر يوازن قضبان النار. يقوم مرّة أخرى بشد وجذب شعري حتّى يصبح كلّه أخيرًا مجعّدًا، ويتمّ إلقاء نصف منه للوراء

على رأسي وربطه بشريط وردي لإحداث الأثر التامّ المطلوب.

عندما يتمّ الانتهاء من تكويم شعر چيهان عاليًا، ويُرَشّ بمثبّت الشعر حتّى يستقرّ في مكانه، فإنّها تقوم بفحص كامل لشعري.

«ممتاز»، تعلن ذلك وبعدها تقودني نحو الخارج إلى السيّارة حيث بابا في انتظارنا.

تصل فنّانة الماكياج - شمس - إلى شقّتنا بمجرّد عودتنا تقريبًا. تضع الكثير من المساحيق على وجه چيهان لدرجة أنّني أتساءل إن كانت چيهان ستحتاج إلى إزميل لإزالتها كلّها. تنشغل شمس بعد ذلك بجلبتها مع ماما بينما أساعد أنا ستّي زينب في تغيير ملابسها لترتدي جلبابًا فضفاضًا فاتح اللون. ترتعش يداها وأنا أساعدها في لبس خواتمها. عندما أنتهي من ذلك، أقبّل يدها، أرفعها إلى جبهتي، وبعد ذلك أقبّلها مرّة أخرى.

تظهر ماما من غرفة الجلوس بعد نصف ساعة من ذلك، وعيناها مشرقتان بالكحل، وخدّاها ملوّنان وأحمران، وشفتاها ملساوان وحمراوان. يزداد الفخر داخلي. تلمح نظرتي إليها وتبتسم في خجل.

تسأل قائلة: «أين أختك؟»

«في انتظارك لتساعديها في لبس فستانها.»

تذهب إلى غرفة النوم وتخرج شمس من غرفة الجلوس وتنادي باسمي.

تتصلّب العضلات في رقبتي بينما أرى عينَيها تتتبعان الندوب التي في وجهي.

تقول وهي تضرب بيدها على ذقنها وهي تتفحّص صندوق

الماكياج لديها: «همم، سوف يتحتّم علينا أن نستخدم المزيد من كريم الأساس. لا تقلقي. يمكنني أن أخفي الندوب التي في وجهك بنفس الطرَيقة التي أخفي بها حبّ الشباب الذي في وجهي. أنت فائقة الجمال على أيّة حال. انظري إلى عينَيك الواسعتَين. وهاتَين الوجنتَين. مثل أمّك تمامًا. بل إنّ العروس نفسها ليس عندها ذلك النوع من المواصفات والدقّة، ولكن ذلك بيني وبينك، تفهمين؟»

تبتسم لي ابتسامة عريضة وتحاول ألا تضحك. تطلب منّي أن أجلس وأن أمسح وجهي وأنظّفه بمناديل مسح الأطفال. تدندن وتتحدّث مع نفسها وهي تعمل في وجهي. «همم، ليس ذلك اللون، خفيف أكثر من اللازم... آآه، نعم، هذا ممتاز...»

عندما تنتهي في النهاية، أنتظر في ذعر وارتعاش وهي تُخرج مرآة يد من صندوقها. أكاد أنفجر ببكاء الارتياح عندما أرى أنّها قد غطّت الندوب التي في وجهي تحت طبقات من كريم الأساس والمساحيق. أجلس ساكنة، والمرآة في يدي، وأنا أدرس وجهي وأتأمله. للمرة الأولى منذ ذلك اليوم أشعر بأنّني جميلة مرّة أخرى.

عندما نكون كلّنا جاهزين، ننتظر چيهان وماما في غرفة الجلوس. يجلس محمد في حجري وهو مرتدٍ بذلة أطفال للسهرة، وهو يغرغر ويهدل ويلعب في رباط رقبته الأحمر. نتبادل أنا وطارق التهامه بالقبلات. يظلّ بابا وستّي زينب يحدّقان فيّ، ويعلّقان على مدى ما أبدو عليه من جمال، ما يجعلني أحمرّ خجلًا.

«ملكة جمال!» تقول ستّي زينب في حماسة. «ملكة جمال العائلة!»

يسأل طارق: «ماذا عن چيهان؟».

«نعم، نعم، إنّها جميلة، كما ينبغي أن تكون كلّ عروس، ولكن انظر إلى حياة. فقط انظر إليها. قمر! مضيئة وضّاحة!» يفكّر طارق للحظة. يقول: «سوف أخبر چيهان.»

يقول بابا: «تعال هنا.» طارق في منتهى السعادة لأن يقفز في حجر بابا.

أخيرًا يفتح باب غرفة النوم وتظهر ماما منه. تصيح وهي تُهوّي وجهها بيدها: «أوه، إنها فاتنة تخطف الأبصار. الحمد لله أنّ هذا مقاوم للماء. أوه، يا فؤاد، فقط انتظر وشاهد ابنتك الكبرى. فقط انتظر وشاهد.»

عندئذٍ تدخل چيهان إلى غرفة الجلوس. تبدأ ستّي زينب تزغرد وتبتسم چيهان ابتهاجًا لنا. تقع عيناها على عينَي بابا. يمدّ ذراعيه لها وهذه هي المرّة الأولى التي أراه يبكي فيها.

* * *

يتلقّى بابا مكالمة هاتفية تخبره بأنّ العريس في طريقه إلينا. نسمع أصواتًا لا تنقطع من أبواق السيّارات على البعد، يصبح صوت الأبواق أعلى عندما تدخل السيارات وحافلات النقل الجماعي إلى شارعنا. نندفع أنا وطارق إلى النافذة ونرى الأولاد ومجموعة من الرجال يحيطون بأحمد، وهم يغنّون أغنية الزفاف. يضرب أحد الرجال على طبلة كبيرة معلّقة حول وسطه. عيناه متوهّجتان في وجهه المتورّد حمرة، ويشكّل بعض الرجال وبعض النساء حلقة

ويرقصون الدبكة حوله، وهم يضربون الأرض بأقدامهم كما لو كانوا يريدون أن ينبِّهوا الأرض أنّها هي أيضًا ينبغي أن تفرح وتمرح في زواج أحمد وڇيهان. يصفق الجمع ويغنون حول أحمد، وينشدون قائلين:

عريسنا زين الشباب زين الشباب عريسنا
عريسنا عنتر عبس عنتر عبس عريسنا
الشمس بتعرف انّو عنّا عريس اليوم
عريسنا شمس الضحى طلب عروسو ما استحى

نساعد نحن ڇيهان في التعامل مع فستانها وهي تهبط درجات السلم. ألاحظ أن يدَي ڇيهان ترتعشان. يضغط بابا بشدّة على إحدى اليدَين ويبتسم في وجهها ابتسامة عطف وحنان.

عندما نصل الطابق الأرضي، يدخل أحمد من الباب. يقبّل بابا وماما ويحضنهما. ألاحظ ابتسامته الحمقاء وهو ينظر إلى ڇيهان، وأتعجّب كيف أدّى به حبّه لڇيهان إلى كلّ هذا الحنان وهذه الرقّة. تزداد الفرحة والسعادة بداخلي.

يسأله بابا: «ولكن أين والداك؟» يقول أحمد: «ماما كانت مسرورة ومنفعلة للغاية حتّى أنّها نسيت بطاقتها، فلم تستطع اجتياز نقطة التفتيش».

يقول بابا: «يا للأسف.»

تضحك ماما. «إنّني لا ألومها. كدتُ أنسى كيس نقودي، كنتُ قلقة للغاية!»

يقول أحمد: «إنّهم في انتظارنا في رام الله».

أوّل فكرة خطرت لي هي أنّ كلّ التنظيف الذي جعلتنا ماما نقوم

به كان دون جدوى. لن يكون هناك أي أقارب للعريس ليعجبوا برائحة المطهّر في المنزل وخزائن المطبخ اللامعة.

تأخذ چيهان مجلسها إلى جوار أحمد في المقعد الخلفي من سيّارة الزفاف. الأشرطة البيضاء والرايات التي رُبطت بحقيبة السيّارة ترفرف مع النسيم الرقيق. نركب نحن في سيّارة ركّاب صغيرة. تجلس ماما إلى جوار طارق، ومحمّد في حجرها. تجلس ستّي زينب إلى جواري ويجلس بابا بمفرده. يملأ سامي وعمتو كريستينا وعمو جوزيف، مع بعض الضيوف من بيت لحم، الكراسي المتبقّية. يطلق سائق سيّارة الزفاف، صديق أحمد الحميم، بوق السيّارة وينطلق بها مسرعًا من منحنى الشارع. نتبعه سائرين خلفه عن كثب. استأجر ضيوف آخرون سيّارتَي ركّاب صغيرتَين، وهم يتبعوننا، ويتبعهم مجموعة الناس الذين رافقوا أحمد. يطلق السائق بوق السيّارة خلال الشوارع وينظر الناس إلينا ويلوّحون لنا بأيديهم.

أحضر أبو مازن معه دربُكّة صغيرة. يبدأ يطبّل. نغنّي ونمرح. أنظر إلى سامي وهو يبتسم ابتسامة عريضة باتّجاهي.

نسير بالسيّارات عبر وادي النار. عندما نصل إلى نقطة تفتيش الكونتينر يتلوّى بطني متحوّلًا إلى عُقَد. صفّ السيّارات وسيّارات الأجرة طويل بشكل مستحيل. من المعقول أنّنا تحرّكنا قبل الظهر حيث إنّ الزفاف يبدأ في الساعة الخامسة. لا تبعد رام الله سوى اثنين وعشرين كيلومترًا تقريبًا عنّا، ولكنّ المسافة كانت أشبه بمائة كيلومتر. يفحص الجنود بطاقات الهوية. تستدير چيهان لتواجهنا من خلال زجاج السيارة الخلفي. هناك تعبير مرهق على وجهها، وتميل برأسها على كتف أحمد.

تمرّ خمس وثلاثون دقيقة طويلة. يصرخ محمّد في كلّ دقيقة من هذه الدقائق. يرفض أن يذهب إلى بابا أو إليّ. ستّي زينب - في محاولة منها لجعله يبتسم - تبتسم في وجهه ابتسامة عريضة من فم لا أسنان فيه، وهو يصرخ حتّى يكاد يكسر السقف. يقفز طارق من مقعده وينطّ على قدم واحدة، مقلّدًا صوت القرد الذي غالبًا ما يجعل محمّد يدخل في نوبات جنونية من القهقهة لا يمكن السيطرة عليها. ولكنّ محمّد ليس في حالة مزاجية للقهقهة إطلاقًا. يطلق الركّاب الآخرون تعليقات عديمة الجدوى. «افحصي حفاضته.» «ربّما يكون جائعًا.» «ألم في الأذن؟»

تصاب ماما بالضجر والملل. تناولني محمّد وتنطلق مندفعة من سيّارة الركّاب الصغيرة، متجاهلة صيحات بابا عليها بأن تهدأ وهو يتبعها.

تسأل أحد الجنود: «كم من الوقت أكثر من ذلك؟ ابني يصرخ! إنّه حفل زفاف ابنتنا! نريد أن نعبر!»

يقول لها: «ينبغي عليكم الانتظار.» ويمشي بطيئًا إلى سيّارة الزفاف. يشير للسائق وچيهان وأحمد ويطلب منهم الخروج من السيّارة.

تصرخ ماما قائلة: «ولكن فستان زفافها سوف يتسخ!»

يقول لها في غضب: «ارجعي. لن يستغرق هذا طويلًا.»

تأخذ ماما في الصراخ الهستيري فجأة: «هذا يكفي! هل نحن نبدو مثل الإرهابيين بالنسبة لك؟»

«لا بأس، لا بأس» - يطمئن بابا الجنديّ في عصبية. «سوف تعود. ليست هناك مشكلة.»

«ماما!» أصيح من نافذة السيّارة، على صرخات محمّد. «أرجوك ارجعي!»

يأخذ بابا ذراع ماما سريعًا ويقودها عائدًا إلى سيّارة الركّاب. بعد انتهاء الجنديّ من مهمّته يستدير نحو السيارة. تغوص ماما في مقعدها وتحدّق في كآبة من نافذة السيّارة. يواصل محمد البكاء وأهدهده أنا بين ذارعيّ، لا أجرؤ على أن أثقل به ماما.

تقول لها عمتو كريستينا: «امسحي دموعك يا نور. سوف نعبر في نهاية الأمر.»

يخرج أحمد من السيّارة أوّلًا. تحاول چيهان الخروج، ولكنّ فستان زفافها كبير جدًّا لدرجة أنّه يتوجّب عليها أوّلًا أن ترفع الطبقات التي في المقدّمة حتّى تتجنّب أن تطأ على النسيج الحريري بقدمَيها. ينحني أحمد لأسفل ليساعدها، وتنجح أخيرًا في الخروج دون أن تطأ بقدمَيها على الفستان.

«فستان زفافها. التراب والقاذورات...» تقول إحدى الضيوف مع طقطقة من لسانها.

يقول سامي لي: «هذا هو السبب الذي يجعل الفساتين البيضاء غير معقولة.»

يضع أحمد ذراعًا حامية على ذراع چيهان. يقول الجنديّ شيئًا ما لأحمد، ويضع أحمد يده في جيبه، ويخرج بطاقة هويّته. تفتح چيهان قبضتها البيضاء الصغيرة وتُبرز هي أيضًا بطاقة هويّتها. ينظر الجنديّ إلى بطاقات الهويّة وبعد ذلك يومئ برأسه، محركًا يده ليشير بالسماح لهما بالعودة والصعود إلى السيّارة.

تلتفت ستّي زينب إلى أبي مازن وتطلب منه أن يطبّل على

الدربُكّة. «يعلم الله أنّنا سنوصل چيهان بالضحك والرقص» - تقول ذلك وتبدأ في التصفيق بيدَيها. نبدأ جميعنا في الغناء.

تقول ستّي زينب لماما موبّخة: «ياللا، توقّفي عن البكاء وانضمّي إلينا يا نور. كان يمكن أن تكون الأشياء أسوأ من ذلك.»

تردّ عليها ماما تلقائيًّا: «نعم يامّا».

عندما يستقرّ أحمد وچيهان في مقاعدهما في سيّارة الزفاف، تلتفت چيهان لتواجهنا من المرآة الخلفية وتلوّح بيدها في حماسة.

«مرحى!» - نصيح ونواصل الغناء والضرب بأيدينا على الكراسي من الخلف على صوت ضربات الدربُكّة.

المحطّة التالية هي محطّة قلنديا. تنضمّ السيّارة التي نستقلها إلى ركب السيّارات والحافلات وسيارات الأجرة للعبور من خلال معبر المركبات. ننزل من سيّاراتنا. تندفع ماما إلى سيّارة الزفاف وتساعد چيهان في الخروج. نحاول أنا وماما وعمتو كريستينا رفع فستان زفاف چيهان من على الأرض ونحن نقودها للعبور من خلال معبر الركّاب.

ندخل المحطّة. إنّها متاهة من أبواب معدنية دوارة، وأجهزة كشف المعادن، ودهاليز معدنية. يذكّرني ذلك بحظيرة حيوانات في مزرعة في عرض في التلفزيون في أحد الأيّام. الطابور طويل ويحدّق الناس في چيهان وأحمد ويهنّئونهما. عندما يأتي الدور على چيهان، نساعدها في التعامل مع فستان زفافها عند العبور من خلال الأبواب الدوّارة. ماما محبَطة وتسبّ بصوت عال. أحمد متجهّم إلا أنّه هادئ. چيهان متضجّرة بشكل واضح إلا أنّها تنجح في المزاح بشأن الموقف.

تسأل أحمد مداعبة: «هل ستأتي لإنقاذي عندما يمرّرون أجهزة كشف المعادن تحت طوق فستاني؟»

يردّ أحمد قائلًا: «سوف أكسر أرجلهم إن تجرّأوا على ذلك»؛ ولكنّنا جميعًا نعلم أنّ شجاعته لا معنى لها. نضحك من أجل خاطره على أيّة حال.

عندما تضغط چيهان عابرة من خلال أحد الأبواب المعدنية وينطلق جهاز الإنذار عاليًا، يقترب منها أحد الجنود ويقوم سريعًا بتمرير جهاز كشف المعادن فوق جسمها.

تشرح له چيهان الأمر: «إنّها مجوهراتي.»

يقول الجنديّ: «آسف ينبغي عليّ أن أفحص وأتحقّق.» إنّه شابّ، ربّما يكون في التاسعة عشرة من عمره، له وجه أملس وعينان كبيرتان رماديتا اللون.

تنظر چيهان للخلف وتنادي علينا: «على الأقلّ أعرف أنّ زوجي ليس بخيلًا. انظروا كم الطنين الذي يصدر بسببي.»

يقول بابا لأحمد: «لديها حقّ. لديها من الذهب ما يكفي لأن يحجزنا جميعًا حتّى يوم غد.»

بعد ساعة من ذلك كنّا قد عبرنا جميعًا خلال عمليات الفحص لنقابل سيّاراتنا وحافلاتنا على الجانب الآخر. نساعد چيهان في الصعود إلى سيّارة الزفاف مرّة أخرى، تعطيها ماما حقيبة مليئة بمزيل العرق، ومناشف أطفال معطرة، وعطر.

تقول ماما في إصرار: «إليك، أنعشي نفسك.»

ندخل رام الله بعد ذلك مباشرة، مغنّين بصوت عال، معلنين عاليًا وصولنا للشوارع. اليوم يوم جمعة، اليوم الأكثر شيوعًا بالنسبة

لحفلات الزفاف والزواج، ولسنا نحن حفل الزفاف الوحيد على الطريق الذي يتنافس للفت انتباه النظارة والمشاهدين.

نصل إلى مكان الاحتفال. والدا أحمد في الانتظار ويصفّق الجمع الصغير الموجود خارج القاعة ويهلّل. يدخل الضيوف ويأخذون مقاعدهم. نقبّل كلّنا والدَي أحمد وأسرته ونحضنهم. تضع أم أحمد علامة أحمر شفاه على خدّ ماما. إحدى عمّات أحمد تفوح من فمها رائحة الثوم.

يقودنا صاحب القاعة إلى غرفة حفل الزفاف.

«سأراك بالداخل» - أقول لسامي وهو يسير متتبّعًا عمتو كريستينا وعمّو جوزيف.

خالتو سمية، التي قابلتنا في المقدّمة، تأخذ ستّي زينب إلى الداخل لتُجلسها. أتبع ماما وبابا وطارق إلى غرفة حفل الزفاف، ومحمد بين ذراعَيّ.

تقول چيهان: «إنّني خائفة جدًّا!»

تمسح ماما علامة أحمر الشفاه من على وجهها. «سوف تكونين على ما يرام!»

تقول چيهان: «بابا، تذكّر أن تحيّي الضيوف بيدك وأنت تدخل.»

«نعم، نعم بالطبع!»

«واحرص على أن يلتقط المصوّر صورة لك وأنت تبتسم له وتلوّح بيدك.»

«نعم يا حبيبتي.» يلتفت بابا إلى والد أحمد. «مثل جنرال عسكري، صحّ؟» ويضحكان.

تركّز چيهان بعد ذلك على طارق. «طارق، من الأفضل ألا تخطئ وتسبب أيّ مشاكل! تذكر كيف تمرَّنّا؟ تمشي أنت داخلًا مع سوزان وحياة ومحمّد وسوف يريكم شخص من القاعة مكان الوقوف.»

«من هي سوزان؟»

«ابنة عمّ أحمد. أنت تعلم ذلك.»

«محمّد لا يمكنه المشي.»

تدير چيهان عينَيها. «حياة تمسك به، يا سخيف.»

«حسنًا، لا أريد أن أمسك يدها».

تقول چيهان من خلال أسنانها وهي تصر عليها: «لقد ناقشنا هذا بالفعل.»

«حسنًا، لن أفعل ذلك. إنّها فتاة.»

«طارق.»

يقول أحمد وهو يحضن سوزان حضنًا حنونًا: «إنّها لن تعضّ.» تنظر سوزان إلى طارق وتُصدر فحيحًا.

يُخرج طارق لسانه لها وتنظر چيهان إليه نظرة مهدِّدة. «سوف أكسر رأسك إن أنت أخطأت وسبّبت أيّ مشاكل!»

يدخل صاحب القاعة. يقول لهم: «حان الوقت.»

نصطفّ خارج الأبواب ذات الضلفتَين، تغرق ثرثرتنا العصبية فجأة في الموسيقى الصاخبة وصوت رئيس المراسم مقدّمًا والدي أحمد. تفتح الأبواب ويدخل والدا أحمد إلى القاعة. تنفجر القاعة في التصفيق.

بعد ذلك ماما وبابا. «إنّني خائفة جدًّا!» تقول ماما بصوت عالٍ،

وهي تدفن رأسها في كتف بابا. يقبّل قمّة رأسها. تذهلني عاطفتهما وحبّهما. أشعر بالدفء والخدر من الداخل. يقول: «لا أزال أبدو أكثر شخص سخافة في حفل الزفاف، لذلك ليس أمامك ما تقلقي بشأنه.»

عندما ينادي رئيس المراسم أسماءنا نسير عبر الباب المزدوج على سجّادة حمراء طويلة. القاعة كبيرة. هناك ما يزيد عن ثلاثمائة ضيف يشاهدوننا نمشي عبر السجّادة الحمراء للانضمام لحفل الزفاف. محمد ـ في حالة انبهار من كلّ شيء - هادئ بين ذارعَيّ، منشغل تمامًا بالنظر إلى الجميع. لا يكاد طارق وسوزان أن يلمس كلّ منهما يدَي الآخر ولكنّهما على الأقلّ يقفان جنبًا إلى جنب. الكلّ يشاهدوننا، ينظرون إلى وجوهنا، ويصفّقون ويبتسمون. ستّي زينب تجلس عند رأس الطاولة ونحن نتبادل الابتسامات العريضة. إنّني خائفة وخجولة إلا أنّني مبتهجة ومنتعشة بفعل الطنين الذي في الهواء ومرح الموسيقى وصخبها.

نأخذ مكاننا إلى جوار ماما وبابا، ويدعو رئيس المراسم الجميع للوقوف استعدادًا لدخول أحمد وجيهان. تفتح الأبواب ويدخل العروسان بطيئًا، ويقود فريق الزفة الطريق أمامهما. هناك رجلان يضربان طبولًا ضخمة مربوطة إلى خصر كلّ منهما. هناك رجل آخر يعزف على العود. رجلان آخران يقفزان ويرقصان أمام أحمد وجيهان، يقودانهما إلى منطقة الرقص في وسط القاعة. يصفّق الضيوف ويبتهجون ويتركون مقاعدهم للانضمام إلى الزفة. أنضمّ أنا إلى صفّ الدبكة ونشقّ طريقنا في دائرة حول أحمد وجيهان اللذَين يرقصان في الوسط.

يجري سامي إليّ ويدخل في صفّ الدبكة، ويأخذ يدَيّ ويريحني

من الكفّ المبلّلة بالعرق للسيّدة الضخمة التي توجد إلى جواري. ينحني قريبًا من أذني، زاعقًا بأعلى صوته ليتأكّد أنّني أسمعه فوق صوت الموسيقى العالي إلى حدّ يُصيب بالصمم يقول: «تعرقل والد أحمد وسقط وهو يدخل!»

وأطلقت نوبة من الضحك. «كلا!»

«كان ذلك مسلّيًا. تشابكت قدمه في السجّادة وسقط للأمام. كان بخير مع ذلك. ولكنّ وجهه كان أحمر لامعًا!»

يرفع الحشد أحمد فجأة على أكتافهم وبعد ذلك يرفعون چيهان على كرسي. ألهث، داعية ألا تسقط على الأرض.

أخبر أنا سامي قائلة: «توجد ملاءة حريرية على الكرسي!»

«إذن؟»

«سوف ينزلق فستانها! سوف تقع! تبدو مرعوبة.»

«كلا لا تبدو مرعوبة. إنّها تضحك. يبدو أحمد أكثر قلقًا. هذان الشخصان اللذان يرفعانه عاليًا لا يبدو أنّ لديهما من اللحم ما يكفي لحمل محمّد ورفعه.»

لكنّهما لا يقعان. تسطع أضواء الثريات على وجه چيهان الدافئ الذي يشعّ حيوية، بينما يمسك أحمد يدَيها في الهواء والحشد يغنّي ويصفّق.

يمرّ باقي الليل مثل مُذَنَّب منطلقٍ في الهواء. نرقص أنا وسامي كلّ دبكة. نمضي الوقت أنا وأبناء عمومتي من رام الله معًا. نوال أيضًا عمرها ثلاث عشرة سنة وحكيم عمره أربع عشرة سنة. عندما نتعب من الرقص، نأخذ أطباق الحلوى الخاصّة بنا ونجلس في حافّة القاعة، بعيدًا عن حشود الناس الذين لا يزالون يرقصون

بشكل محموم حول أحمد وچيهان.

يتفاخر سامي وهو يأخذ قضمة كبيرة من كعكته قائلًا: «إذن نعم، قد ألقينا نظرة على القدس.»

«أبدًا مستحيل!»

«لم تفعل ذلك، أليس كذلك؟»

يهزّ سامي رأسه ويهزّ كتفَيه بشكل عرضي لنوال وحكيم. «كان الأمر سهلًا. قفزنا على الجدار وصرنا داخلها. كان معنا إسرائيليون. أحبّتهم حياة في الحال ولكنّني لم أنخدع للحظة. فقط تجاهلوا حياة وهي تدير عينَيها هناك. على الأقلّ كان لزامًا أن يكون واحد منّا داهية. كان عليّ أن أحلّلهم أوّلًا. أقيّم ما إذا كانوا من الموساد أو الشاباك. أنا أعرف هذه الأشياء، بسبب والدي. يمكنني أن أكتشف العميل من على بعد ميل. ولكنّهم كانوا على ما يرام في النهاية.»

«واو» - تصرخ نوال بصوت منخفض وأشعر أنا بالاختناق.

يقول حكيم: «إذن أخبرنا بالمزيد.»

يخلّل سامي أحد أسنانه وبعد ذلك يميل برأسه إلى الجانب. «حسنًا، نجحنا في الوصول للمدينة القديمة ولكن كان هناك احتجاج ضخم. كانت هناك دبّابات وطائرة وصاروخ أو اثنان.»

«سامي!»

«حياة، أنت فقدت الوعي، هل تذكرين؟ لم تكوني في معمعة الحدث. لم أشرح الموقف بالكامل لك أبدًا.»

«كلا، ولكن يوسي شرح لي الموقف ولم يذكر قطّ الطائرات أو الصواريخ.»

يلوّح لي سامي تلويحة ازدراء. «لم يودّ أن يثيرك أكثر من ذلك.»
يلتفت إلى نوال وحكيم. «بعد أن فقدتني حياة...»
«معذرة، أنت فقدتني.»
تقول نوال: «دعيه يكمل.»
يضيف حكيم: «نعم، يا حياة، نريد أن نسمع.»
أعبس في وجوههم وأثني ذارعَيّ فوق صدري. «حسنًا، استمرّ. إنّني أبحث دائمًا عن سرد القصص والحكايات وأتوق إليها.»
تبتسم نوال وحكيم لسامي ابتسامات الدعم والتأييد. يرسل سامي إليّ نظرة منتصرة وهو ينفخ صدره.
«أمسك جنديّ بيّ! ألقى بجوّال على رأسي وجرّني إلى سيّارة جيب.»
«ماذا فعلوا بك؟»
«هل عذّبوك؟ إنّنا نعرف شخصًا - سفيان - تمّ إلقاء القبض عليه في القدس دون تصريح. لقد ضربوه ضربًا مبرحًا. ماذا فعلوا بك؟»
«أخبرنا يا سامي!»
«نجحت في الهرب. انتهزت فرصة الفوضى وانسللت بعيدًا هاربًا. لا بدّ أنّ الجنديّ كان جديدًا في الخدمة. لم يقيّد يدَيّ ولا قدمَيّ. ولكنّه هدّد بوضع أقطاب كهربائية في حلمات صدري وإطلاق الكلاب عليّ. عندما ألقى بي في سيّارة الجيب السوداء وسار بعيدًا ليجمع المزيد من الأشخاص، نزعت الجوّال عن رأسي وتسلّلت خارجًا من السيّارة. كان الهواء مملوءًا بالدخان وكان صوت الطائرة عاليًا حقًّا ولذلك فقد استطعتُ أن أهرب عائدًا إلى الشوارع لإنقاذ حياة.»

«إنقاذي! ماذا عن يوسي؟» أهزّ رأسي في غير تصديق ولكنّه يتجاهلني.

«واو!» تقول نوال بصوت عالٍ: «إنّك شجاع جدًّا.»

يعلن حكيم قائلًا: «هذا مذهل!»

أقول: «بعض الأسئلة. هل تركك الجنديّ تمامًا بدون أيّ شخص يقوم على حراستك؟ هل ترك السيّارة الجيب هكذا مفتوحة تمامًا؟ هل تخبرني أنّه أراد أن يعطيك بعض الهواء المنعش؟ ولماذا هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها عن...»

يقول سامي، وهو يقف: «أوه، انظروا، إنّهم يبدؤون الخطب. من الأفضل أن نذهب. سوف تصاب عمّتي بنوبة إذا لم أكن أنا على الطاولة. إنّها تهتمّ حقًّا بالسلوكيات، تعرفون هذه الأشياء.»

«نعم، نعرف ذلك» - يقول حكيم متنهّدًا وتومئ نوال برأسها في حماسة.

تقول نوال: «تعال للقائنا عندما ينتهون. أريد أن أسمع كلّ شيء عن طريقة إنقاذك لحياة!»

أنطلق مندفعة ويتبعني سامي، وهو ينهار من الضحك.

أقول أنا: «أنا لا أرى أنّ هناك نكتة.»

«أوه، على رسلكِ، كان الأمر ممتعًا! هل رأيتِ وجهَيهما؟»

«إنقاذي؟ ماذا ستقول؟ وصلت في سيّارة باتمان؟»

يضرب يدَيه. «لا بدّ أنّهم قد انخدعوا بذلك! على أيّة حال، كان حفل الزفاف مملًّا. كان لزامًا عليّ أن أضيف له بعض التوابل.»

أزمجر أنا ويضحك هو مرّة أخرى.

«على رسلكِ، دعينا نرى إلى أيّ مدى يمكننا أن نستمرّ.»

«حسنًا، إذا كنت أنت قد نجحت في الهروب من سيّارة الجيب، فإنّني نجحت في قيادة سيّارة يوسي بين الدبّابتين.»

ينظر إليّ نظرة مرتابة. «هذا رائع. لماذا لم أفكّر أنا في ذلك؟»

بعد الخطب، نوحّد أنا وسامي جهودنا ونرعبُ أبناء عمومتنا ونؤثّر عليهم. عندما نكتفي من هذه اللعبة، آخذ مقعدًا إلى جوار ستّي زينب، أسند رأسي على كتفها.

نحدّق في چيهان وأحمد، حيث يقوم صفّ طويل من الضيوف بتقبيلهما قبلات الوداع.

«سوف أفتقدها، هذه الوغدة»، تقول ستّي زينب لي وتمسح عينَيها. «ولكنّها تبدو سعيدة للغاية. منحهم الله السعادة والكثير من الأطفال. حماهم الله وأُسَرَهم وأمّ أحمد...»

للمرّة الوحيدة أتركها تواصل كلامها دون مقاطعة.

يقترب المساء في آخر الأمر من نهايته. ينبغي علينا أن نغادر أبكر من المعتاد حتّى نضمن عبور نقاط التفتيش قبل أن تغلق.

يقول بابا في لهفة: «ياللا، ياللا. لا يمكننا المجازفة بأن نعلق في رام الله. يجب أن نعود قبل أن يغلقوا البوّابة.»

نمسك بچيهان بقوة تحت سماء سوداء كالحبر وتحت صفّ من نجوم لامعة مشرقة، ودموع الفرح والحزن تنساب منهمرة على وجوهنا.

تنتحب ماما وهي تتشبّث بچيهان قائلة: «عيشي في بيت لحم. أرجوك يا أحمد لا تأخذها منّا.»

تقول چيهان وهي تغالب الدموع: «لا بأس يا ماما. سوف... نزوركم... إنّني... أعدك.»

«يجب عليكم ذلك! يجب عليكم ذلك! تنفجر ماما في نوبة جديدة من الدموع ويتقدّم بابا في شيء من الخجل باتّجاه ماما، لافًّا ذراعه حولها.

«عودي معنا!» يصرخ طارق، متشبّثًا بفستان چيهان. ولمّا كان قد تعب وأصابه الإرهاق من البقاء مستيقظًا بعد وقت النوم بكثير، فإنّه يبدأ في العويل، حاثًّا بابا على أن يحمله. يريح طارق رأسه على كتف بابا وينشج بالبكاء.

يقول أحمد: «سوف أعتني بها. إنّني أعدكم جميعًا.»

يقول بابا: «نعرف أنّك ستعتني بها.»

«سوف أحطّمك إذا سمعتُ أيّ شيء غير ذلك» - تقول ستّي ذلك ونضحك نحن.

ماما تذكر چيهان قائلة: «استشيريني في وصفات الطعام! واتّصلي بي كلّ يوم. أيّ وقت جيّد، ولكن من الأفضل أن تتّصلي بي بعد العشاء حتّى يمكنني أن أتحدّث معك بدون مقاطعة. وأنت يا أحمد، أعدك أنّني سأرسل لك الخيار المخلّل الذي أصنعه. أعلم مدى حرمانك من الخيار المخلّل الجيد. و...»

تتقدّم چيهان باتّجاهي خطوة، تاركة أحمد ليتعامل مع ماما. تأخذ يدي وتشدّني قريبًا منها. أعانقها بقوّة وتقبّلني هي.

تقول هي: «يجب أن تزوريني. أعلم أنّ ذلك صعب ولكن حاولي من فضلك.»

«بالطبع سوف نفعل».

«واتّصلي بي. كثيرًا قدر استطاعتك. أطلعيني على آخر الأخبار حول الثرثرة والقيلِ والقال في بيت لحم.»

«چيهان» يقول أحمد بلطف ورقّة، وهو يلمس ذراعها. «السيّارة في الانتظار.»

يصرّ بابا قائلًا: «ويجب علينا أن نبدأ تحرّكنا.»

تحيطني چيهان بحضن هائل وأجاهد حتّى لا أبكي. بعد ذلك تتراجع هي وتبتسم لنا جميعًا. تصيح قائلة: «يا للإثارة والبهجة! أنا متزوّجة!»

تبدأ ستّي زينب تزغرد وتضحك ماما وهي تمسح الدموع من وجهها. تهمس الريح في أشجار الأناناس والزيتون، مخبرة إيّانا أن ندعها تمضي.

وفي النهاية نفعل نحن ذلك.

في طريق عودتنا الطويل الذي قطعناه بالسيّارات أريح رأسي على كتف بابا، أحدّق في ليلة مليئة بالنجوم وأفكّر في الأسابيع القليلة الماضية.

عمري ثلاث عشرة سنة وأعرف معنى الدم. أعرف ماذا يعني أن نفقد الأحبّة. أعرف رائحة الجثّة. أعرف شكل الجسم يُسوّى تحت دبّابة. أعرف سُحب التراب والغبار التي يخلّفها بلدوزر مسعور. سوف يتمّ الانتهاء من الجدار قريبًا. سوف تُهجَّر أجزاء كاملة من بيت لحم. سوف تغلق الأعمال، تُهجر البيوت، تخلو الشوارع، تقسم المدارس إلى نصفَين. إنّني أعيش في سجن مفتوح.

ولكنّني لن أعيش في يأس. لأنّ عمري ثلاث عشرة سنة وهذا ما أعرفه أيضًا.

إنّه طالما كانت هناك حياة سوف يكون هناك حبّ. إنّني سوف أتعلّم أن أحبّ المرآة بكلّ تأكيد مثلما تعلّمتُ أن أفكّر في مايسة

وأبتسم. إنّ الماضي يمكن أن يعذّب ويشفي على السواء. إنّني سأفعل أكثر من مجرّد البقاء. أنّنا جميعًا في النهاية لسنا سوى مخلوقات بشرية تضحك نفس الضحكة، وإنّ العالم يومًا ما سوف يُدرك أنّنا ببساطة نريد أن نعيش كشعب حرّ، له أمل وكرامة وهدف. هذا هو كلّ شيء.

شكر وتقدير

أشعر بعظيم الامتنان للكثيرين الذين كانوا مصدر الإلهام لهذا الكتاب وفي مقدّمتهم زوجي إبراهيم، فبدون مساعدته ومؤازرته لي لكي أستطيع التوفيق بين متطلّبات الأمومة وأعمال المحاماة والكتابة لم يكن هذا الكتاب ليرى النور. أشكر أيضًا والدي ووالدتي وأسرتي لوجودهم معي ووقوفهم إلى جانبي دومًا.

أودّ أيضًا تقديم شكري لوكيلة أعمالي المتميّزة شيلا دراموند لمساندتها التي لا تتزعزع ولنزاهتها ومشورتها الفنّية السليمة، وأيضًا إلى محرّرة الكتاب المتألّقة ماريون لويد لحماستها وشجاعتها ورؤيتها الثاقبة.

عن المترجمين

نبيل نويرة يعمل كاستشاري لإحدى الشركات الأمريكية العاملة في مصر. قام، ضمن مهام عمله، وأيضًا بصفة مستقلة، بترجمة العديد من الوثائق والمقالات والكتب في مجالات مختلفة من وإلى اللغة العربية. أحدث أعماله ترجمة رواية «بيت العائلة» لسامية سراج الدين من الإنجليزية إلى العربية (٢٠٠٩).

أميرة نويرة أستاذ الأدب الإنجليزي في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ورئيس القسم سابقًا. ترجمت إلى العربية كتاب سوزان باسنت «الأدب المقارن: مقدمة نقدية» (١٩٩٩). وترجمت إلى الإنجليزية، بالاشتراك مع عزة الخولي، رواية إقبال قزويني «ممرات السكون» (٢٠٠٨)، كما شاركت في تحرير كتاب «المرأة تكتب إفريقيا - منطقة شمال إفريقيا» الذي صدرعن Feminist Press (٢٠٠٩).



★ جائزة «إينكيز» الذهبية لأدب النشء ٢٠٠٩

★ اختاره مجلس كتب الأطفال الأسترالي ككتاب متميز ٢٠٠٩

★ اختير بالقائمة القصيرة لجوائز مهرجان «أدلايد» للأدب ٢٠١٠

★ اختارته مكتبة نيويورك العامة بترشيحاتها للقراءة ٢٠١٠

«رواية مؤثرة جدًّا» جريدة كانبِرا تايمز، أستراليا

تنطلق حياة؛ التي تبلغ من العُمر ثلاثة عشر عامًا، مع سامي؛ ذي السنوات التسع والمجنون بكرة القدم، في مهمة سرية مليئة بالأحداث والمخاطر.
حياة مقتنعة بأن حفنة من تراب بلدة جدَّتها في فلسطين المحتلة ستجعل الجدة المريضة تتعافى مرة أخرى. ولكن كيف سيجتازان الجدار العازل الذي يفصل الضفة الغربية وأبراج المراقبة ونقاط التفتيش؟

إنها مغامرة تحتاج إلى الشجاعة والذكاء.. فهل سينجحان؟
قصة رائعة تمتزج فيها الكوميديا بالمغامرة والواقع وحب الوطن.

ولِدت رندة عبد الفتاح في أستراليا لأب فلسطيني وأم مصرية. وتعيش في «سيدني» مع أسرتها، حيث تعمل بالمحاماة. وقد حظي كتاباها: «عشرة أشياء أكرهها في نفسي» و«حينما كان للشوارع أسماء» على تقدير كبير من القرَّاء والصحافة. ونُشرت كتبها في أكثر من خمس وثلاثين دولة. وتعتبر من أهم كُتَّاب أدب النشء والشباب، ومن أكثرهم نجاحًا.

www.bqfp.com.qa





دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



تصميم: جون فوردام | صورة الغلاف: بيج ستوك فوتو